الدكتور عماد الدّين خليل

في التّاريخ الإسلاميّ

فصول في المنهج والتحليل

المكتب الإسلاميّ


في التاريخ الإسلامي
فصول في المنهج والتحليل

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

المكتب الإسلامي
دمشق : ص.ب ٨٠٠ - هاتف : ١١١٦٣٧ - برقياً : إسلامي
بيروت : ص.ب ٣٧٧١/١١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨ - برقياً : إسلامياً

الدكتور عماد الدّين خليل



في التاريخ الإسلامي

فصول في المنهج والتحليل

المكتب الإسلامي

حَول تداول السُّلطة في العَصْر الراشِدِي



تقديم

يتناول الكتاب الذي بين أيدينا دراسات شتى في حقول تاريخنا الإسلامي الواسع المتشعّب .. دراسات كتبت في أوقات متباعدة بعضها يرجع إلى السبعينات وبعضها يرتد إلى الستّينات .. وقد اخترت منها – بعد جولة فيها – نماذج تعمدتُ أن يمثل كل واحد منها لعصر من عصور تاريخنا هذا .. فإذْ يناقش احدها مسألة تداول السلطة في العصر الراشدي ، يتناول ثانيها بحثًا مقارنًا عن شخصيتين من العصر الأموي ، ويحللّ بحث ثالث مصادر الطبري المؤرخ عن بدايات العصر العباسي ، ويقدم بحث رابع دراسة بلدانية لمدينة ظهرت ونمت في العصر السلجوقي ، وينقد بحث آخر كتابًا موجزًا يتناول جانبًا من الدويلات الإسلامية بالتحليل .

وأضفت اليها بحثين اثنين يتناول احدهما مسألة (التراث والمعاصرة) التي تستقطب اهتمام المثقفين في الوقت الراهن ، ويعرض الآخر لعدد من الاقتراحات بشأن التدريس والمنهج التاريخي .

ولم اقف في هذه الفصول عند حدود التعامل مع (الموضوع) بل حاولت أن اقدّم لمسات متواضعة عن بعض جوانب (المنهج) الذي يتوجب أن نعتمده في كتابة تاريخنا ذي الشخصية المتفردة والملامح الخاصة . وقد جاءت هذه اللمسات مقترحات (نظرية) حيناً ومحاولات (تطبيقية) ازاء عدد من المواضيع حينًا آخر .

ولَكم نحن بحاجة إلى مزيد من الأبحاث التي تسعى لبلورة منهج متميّز في كتابة تاريخنا هذا ، نظرية وتطبيقاً[1] .. وما من شك في أن الصِيغ القديمة لعرض تاريخنا الإسلامي كما لو كان ميدان عمليات عسكرية ومناورات سياسية وتبدلات دورية في الأسر والحكام .. قد مضى أوانها .. كما أنه قد مضى زمن الدفاع المتشنّج إزاء كل ما طرحه الخصوم حول هذه النقطة أو تلك في مجرى هذا التاريخ .

إن التوجه الأكثر أهمية وجدوى يجب أن يتجاوز هذا وذاك صوب أبحاث في تكوين الحضارة الإسلامية ونظمها وصيرورتها . ويجب -كذلك- أن يقدم اعمالاً بنائية في هذا الجانب أو ذاك من التاريخ الإسلامي ، تقدم بذاتها القناعات التي تتهافت عندها مقولات الخصوم .

إن علينا ألاّ نسلّم بكل ما طرح عن هذا التاريخ من معطيات . إنْ على مستوى المصادر القديمة أو في نطاق الدراسات الحديثة والمعاصرة .. ومن خلال هذا الشك البنّاء يمكن أن نحقّق لتاريخنا قدرًا من الخدمة التي ينتظر منها المزيد .

ولئن اخطأت أو قصّرت ، فاني التمس من القارئ الصفح الجميل . وإلى الله وحده نتوجه بالأعمال .

الموصل **عماد الدين خليل**

---

١) انظر مقال (مؤشرات حول مشروع كتابة تاريخ العرب والإسلام) في كتاب (مع القرآن في عالمه الرحيب) للمؤلف ، الطبعة الثانية . دار العلم للملايين ، بيروت – ١٩٨٠ .

يتناول البحث الذي بين أيدينا والمعنون بـ (أساليب تداول السلطة في الدولة العربية الإسلامية) * مسألة مهمة في صدد تاريخنا الإسلامي ، ويحاول في صفحات معدودات لا تتجاوز الخمسة والعشرين أن يحسم كثيرًا من القضايا الخطيرة والمتعلقة بتجربة الحكم في العصرين الراشدي والأموي ، وفي كثير من الاحيان يكتفي بالرواية والروايتين ، وبالتعليق الذي يصدر عن باحث معاصر ، لكن ما يلبث أن يصدر حكمه الذي يأخذ – أحيانًا – صفة الحسم .

ولسنا هنا بصدد مناقشة مفصّلة لجزئيات البحث ، وانما الوقوف – قليلاً – عند بعض الملامح الأساسية فيه منهجًا وموضوعًا .

والبحث المذكور لا يعدو أن يكون نموذجًا للمنهج الاستشراقي في في دراسة التاريخ الإسلامي ، وهو منهج يقوم على فحص هذا التاريخ من الخارج ، ويتكيء على قدر كبير من مواضعات العصر ، محاولاً أن يعاين الوقائع التاريخية من خلالها ، دون أن يبذل جهدًا يذكر – لسببٍ أو آخر – في التوغل في صميم التركيب التاريخي للوقائع ، أو إدراك المناخ الطبيعي الذي تخلّقت فيه ، لفهم مسيرتها وصيرورتها ومنحنياتها .

ولكنه نموذج (معتدل) ، ومن ثم فهو اولى بالنقاش .. فأما النماذج المتطرفة على طريقة الأب اليسوعي (لامانس) و (دوزي) و (لريمر)

---

* مجلة آداب الرافدين ، صفحة ٨ – ٣٢ ، العدد السابع ١٩٧٦ (إصدار كلية آداب جامعة الموصل) .

و (موللر) وتلامذتهم .. فإن تطرفها البالغ هو الذي يتكفل باسقاطها من ميدان البحث العلمي الجادّ ، ويخرجها من إطاره ، فلا تستحق نقاشًا .

وما دام الباحث قد جعل اعتماده الأساسي على (الطبري) في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) ، باعتباره المصدر الأم لمعظم البحوث التي عالجت القرون الثلاثة الاولى من تاريخنا ، فسنعتمده مرة اخرى مصدرًا أساسيًا في مناقشتنا هذه ، مع ملاحظة أن ما كل ما أورده الطبري صوابًا .. فانه هو نفسه يحذّر في مقدمة كتابه الكبير من التسليم المطلق برواياته «فما يكن في كتابي هذا – يقول الرجل – من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا صحيحًا .. فليفهم أنه لم يؤت بذلك من قبلنا ، وانما أتي من بعض ناقليه الينا ، وانما أدينا ذلك على نحو ما أدّي الينا .. » .

والبحث الإسلامي – اليوم – بحاجة إلى البُناة ، الذين يملكون الحسّ النقدي بطبيعة الحال ، أكثر منه إلى النقّاد .. إن قضايا كثيرة في تاريخنا وفكرنا ، ينتظر قرننا العشرون هذا من يكشف النقاب عنها ، أو يعيد عرضها بالاسلوب الذي يمكنه من إيصال الصوت إلى سمع هذا القرن وفؤاده .

أما ملاحقة معطيات الآخرين ، كشفًا عن خطأ فيها ودفاعًا عن قيمة في تاريخنا وفكرنا ، فيبدو أمرًا ثانويًا .. ولن يحتل الخط الأمامي الاّ بعد أن يتم إنجاز القدر الأكبر من مساحات البناء .

ومع ذلك ، فان العملية النقدية ، ما دامت تتضمن قدرًا من الانجاز البنائي في جانب ما من جوانب الفكر أو التاريخ .. تغدو جديرة بالممارسة هي الاخرى ، شرط الاّ تكون هدفًا بحدّ ذاتها .

١

في موضوع المعارضة التي جوبه بها انتخاب ابي بكر (رضي الله عنه) للخلافة ترد هذه العبارة : «.. ورغم تخلّف علي ابن ابي طالب وبعض بني هاشم عن البيعة فترة من الزمن لم تتجاوز ستة أشهر ، على ما يروي الطبري[1] ، ربما بسبب اعتقاد علي بأنه أحق من غيره بالخلافة لقرابته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وبسبب خلاف نشب بين زوجته فاطمة وابي بكر الصديق حول حقها في ميراث الرسول على أرجح الأقوال ... » .

لكننا برجوعنا للطبري مرة اخرى سنجد أنفسنا أمام تيّار آخر ، مضادّ ، من الروايات ، يؤكد (إسراع) علي (رضي الله عنه) بانتخاب أبي بكر (رضي الله عنه) منذ الأيام ، بل الساعات ، الاولى .. وإنه يتوجب علينا في حالة كهذه أن نعرض للتيارين معًا ، ونقلب الروايات على وجوهها جميعًا .. ألاّ نقف عند وجه واحد للواقعة التاريخية ، بل أن ندور حولها متمعّنين من أجل رؤية جوانبها جميعًا .. وبعد ذاك يمكن أن يجيء (الحكم) أو (الترجيح) التاريخي ، لاقبله بأية حال من الأحوال .. إن عرض التيار المضاد من الروايات في تحليل الواقعة التاريخية لا يلغي تركيبها ويمسّه باشارة سحرية فيغير مكوناته ومساحاته تغييرًا كليًا ، وإنما يحدث – اذا صحّ التعبير – تخفيفًا في اللون ، ويمنح القارىء درجات لونية (تونات) أقرب إلى الواقع وأكثر موضوعية .

ما الذي تقوله معطيات هذا التيار المعاكس من الروايات ؟ !

ثمة نصوص عديدة يمكن أن نمثل لها بهاتين الروايتين فحسب : «قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد : أشهدت وفاة رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : فمتى بويع أبو بكر؟ قال : يوم مات رسول الله ،

---

١) تاريخ الرسل والملوك ١٨٢٠/٤ ، ١٨٢٥ (طبعة بريل – تصوير بيروت) .

كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة . قال : (فهل) خالف عليه أحد؟ قال : إلاّ من ارتد ، أو كاد يرتدّ ، لولا أن الله عزّ وجل ينقذهم من الأنصار.. قال : فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال : لا ، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم »[٢] .

وعن حبيب بن أبي ثابت قال : «كان علي ، إذْ أتي فقيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة ، فخرج في قميص ما عليه ازار ولا رداء ، عجلًا ، كراهية أن يبطىء عنها ، حتمًا بايعه . ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله ، ولزم مجلسه »[٣] .

وثمة روايتان أخريتان تحملان دلالتهما في الموضوع نفسه : « قال أبو سفيان لعلي : ما بال هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش؟ والله لئن شئت لأملأنها عليك خيلًا ورجالًا . فقال علي : يا أبا سفيان طالما عاديت الاسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئًا . إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً »[٤] . وتقول الرواية الاخرى : إنه لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر ، أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها الاّ دم !! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم؟ اين المستضعفان؟ اين الاذلان علي والعباس؟ وقال : ابا حسن ، ابسط يدك حتى ابايعك . فأبى عليّ عليه .. وزجره وقال : انك والله ما اردت بهذا الاّ الفتنة ، وانك والله طالما بغيت بالإسلام شرًا . لا حاجة لنا في نصيحتك»[٥] .

---

٢) الطبري : تاريخ ٢٠٧/٣ . طبعة دار المعارف بمصر . تحقيق أبي الفضل ابراهيم (وسيكون جلّ اعتمادنا على هذه الطبعة . وفي الحالات القليلة التي ستعتمد فيها الطبعة الأخرى فسيشار إلى ذلك) .

٣) نفسه .

٤) المصدر السابق ٢٠٩/٣ .

٥) نفسه .

ثم ماذا بعد؟ لابدّ أن يكون لهذا (التوافق) السياسي بين الرجلين ، المنبثق من على الأرضية العقيدية التي صهرتهما وصاغتهما على عين الله ورسوله ... من مردود تاريخي ، اشدّ تمنعًا على النقد والرفض من المعطيات النظرية والتأويلية التي وضع معظمها فيما بعد ، ودوّن بعد قرن من الزمن على اقل تقدير ، حتى لقد بلغت حدّ التورّم والانتفاخ ... إن المردود التاريخي هو فعلٌ في قلب الواقع ، وتغيير منظور في خرائط الحركة التاريخية .. أما المعطيات والنصوص والروايات النظرية (التالية) فلم يكن لها من الثقل بحيث نضعها جنبًا إلى جنب مع الوقائع التي بلغت حدّ التواتر .

علي (رضي الله عنه) وهو يتولى ورفيقه الزبير بن العوام (رضي الله عنه) قيادة فرقة الأنقاب في خلافة ابي بكر نفسه (رضي الله عنه) لمجابهة اي غزو محتمل قد تقوم به قوى الردّة المتواجدة عند تخوم المدينة .. خروجه مع الصديق إلى ذي الْقَصَّة للبدء بقتال المرتدين[٦] ... حضوره الدائم المكثف في كافة المناقشات ، وإسهامه المباشر في اتخاذ القرارات الحاسمة ... عدم انقطاعه ، البتة ، عن الصلاة خلف الصديق ، بكل ما يحمله ذلك من دلالة[٧] .. تكوينه الاخلاقي الذي يرفض الازدواج والنفاق ، فلا يتعامل مع سلطة لا يؤمن – أساسًا – بشرعيتها ، أو يتأخر عن الاعتراف بها ، فلا يمدّ يده لمبايعتها الاّ بعد أشهر طويلة ، وبعد ممارسة ضغوط عديدة ضده ، كما ترى بعض الروايات بحجة أنه صاحبها الشرعيّ الوحيد ...

إننا – على العكس من ذلك – نسمعه يقول ، خلال مناقشات الشورى في أعقاب وفاة عمر (رضي الله عنه) : «لو عهد إلينا رسول الله

---

٦) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٩/٥ .
٧) نفسه .

ﷺ عهدًا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت »[٨] .

ويتأكد الحسّ الشوري لدى علي (رضي الله عنه) ، الحسّ الذي هو نقيض تمامًا لفكرة إستلام (الحق) بالتعيين ، يتأكد مرة اخرى في المناقشات التي شهدتها ساحات المدينة في أعقاب مقتل عثمان (رضي الله عنه) ، عندما ألحت جماهير المسلمين على انتخابه . عن محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) قال : «كنت امسي مع أبي حين قتل عثمان ، فأتاه ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : إن هذا الرجل قد قتل ، ولابدّ من إمام للناس . قال : أوَ تكون شورى ؟ قالوا : انت لنا رضا . قال : فالمسجد اذن يكون عن رضًا من الناس . فخرج إلى المسجد فبايعه من بايعه ...»[٩] . يقول الطبري بالحرف : «فلما اصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد ، وجاء علي حتى صعد المنبر فقال : ايها الناس – عن ملأ واذن – إن هذا امركم ، ليس لأحد فيه حق الاّ من امرّتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر ، فان شئتم قعدت لكم وإلا فلا أجد على أحد . فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس »[١٠] .

(إن هذا امركم ليس لأحد فيه حق الاّ من امرتم) ، وذلك هو القول الفصل الذي يقودنا إلى عمق الحسّ الشوري لدى علي (رضي الله عنه) وإسداء الحرية الانتخابية التي يطمح اليها .

وبنقلة سريعة صوب المستقبل ، وباعتماد منهج قياسي ، نجد عليًا (رضي الله عنه) يتخذ الموقف الايجابي نفسه تجاه الخليفة التالي عمر (رضي الله عنه) .. فيكون رجل الدولة الأول وساعدها الأيمن .. وكلنا

---

٨) الطبري : تاريخ ٤/٢٣٦ .

٩) المصدر السابق ٤/٤٢٩ .

١٠) المصدر السابق ٤/٤٣٥ .

نعرف عبارة عمر: (لولا علي لهلك عمر)، ونعرف محاولته (رضي الله عنه) إنابة علي (رضي الله عنه) عنه في المدينة لمّا قرر التوجه إلى العراق لمتابعة العمليات الحربية هناك.

ليس هذا فحسب، بل ان عليًّا على المستوى الشخصي، يزوج عمر بن الخطاب ابنته، ويتبرّك بتسمية أبنائه، بعد الحسن والحسين ومحمد، بأبي بكر وعمر الأكبر وبعد موته: عمر الأصغر وعثمان!!

لقد جابهت الدولة الإسلامية في خلافة الرجلين، أبي بكر وعمر، اخطر التجارب في تاريخها: الثورة المضادة المعروفة بالردّة... مجابهة عسكرية ومصيرية حاسمة مع نظم العالم القائمة يومذاك.. تحديات حضارية دائمة تتطلب استجابات ناجحة باستمرار.. لقد كانت الأمة الإسلامية أمام امتحانها العسير.. وكان عليها أن تنجح أو أن تنتكس.. ولقد نجحت في نهاية الأمر على المستويات الثلاثة..

وحركة التاريخ الإسلامي تحدثنا، بالمتواتر المنظور، كيف أن محاولة الثورة المضادة سحقت (فعلاً)، وكيف أن نُظُم العالم الجائرة دمّرت (فعلاً)، وكيف أن أجهزة ونظمًا ومؤسسات استجدّت (فعلاً) كاستجابة لتحديات الزمن الجديد والبيئة الجديدة.

وحركة التاريخ (الثقيلة) هذه، ما كان لها أن تتحقق هذا التحقق لو كانت الأمة الإسلامية، والدولة الجديدة، تعاني في قياداتها العليا إنشقاقًا خطيرًا.. إن (التجربة) اكثر إقناعًا، ولا ريب، من مجرد (النصوص) الإخبارية التي لا مردود لها على مستوى الفعل التاريخي إزاء التحديات الكبرى.

إننا نرى – على سبيل المثال – كيف أن الفتوحات الإسلامية قطعت اشواطاً واسعة مذهلة في عهد الخليفتين الأولين والسنين الأولى من عهد

الخليفة الثالث ، ثم ما لبثت أن توقفت فترة من الزمن لكي تعود فتستأنف قدرتها على الانجاز في عهد معاوية .. وإننا لنرى - أيضًا - كيف لم يتقدم الأمويون في خلافة عبد الملك أو سليمان (فيما عدا مجازفة القسطنطينية) ، بينما فتحوا المشارق والمغارب في خلافة الوليد .

إن الوقائع التاريخية المنظورة هنا لا تعطي للصدفة أية مساحة في الفعل التاريخي .. ولا ريب أن هنالك قانونًا يفسرّ : لماذا ، عبْر هذا المدى الزمني القصير نسبيًا ، تَحَقِّقَتْ ظاهرة الفتح وتوقفت مرتين ؟

والجواب ، إزاء الانجازات التاريخية الكبرى ، يكمن دائمًا في وحدة الأمة ووحدة قيادتها .. في تجمع طاقاتها ، في مرحلة ما بين مراحل التاريخ ، وقدرتها على صنع الانجاز الكبير . وعلي نفسه ينطلق من دور الشيخين في صنع هذا الانجاز عندما كان يعلن من على منبر الكوفة ، بعد تولية الخلافة ، أكثر من مرة : «ألا إن خير هذه الأمة ، بعد نبيها ، أبو بكر وعمر» ، ولقد روي عنه قوله هذا أكثر من ثمانين وجهًا بالاسلوب العلمي التاريخي الموثوق به . وعندما كان يقول : «لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلاّ ضربته حدّ المفتري»[11] . وعن النزال بن سبرة أن عليًا سئل عن أبي بكر فقال : « ذاك امرؤ سماه الله الصديق على لسان جبريل وعلى لسان محمد ﷺ . رضيه ﷺ لديننا فرضيناه لدنيانا »[12] .

وعن الحسن قال : « جاء رجل إلى عليّ فقال : يا أمير المؤمنين كيف سبق المهاجرون والانصار إلى بيعة أبي بكر وأنت أسبق منه سابقة وأروى منه منقبة ، فقال علي : ويلك ، إن أبا بكر سبقني إلى أربع لم اوتهن

---

١١) انظر بالتفصيل : محب الدين الخطيب : حملة رسالة الإسلام الأولون صفحة ١١ - ١٢ (دار الكتاب العربي - القاهرة) .
١٢) المحب الطبري : الرياض النضرة ١٨٧/١ .

ولم أَعْتض منهن بشيء : سبقني إلى افشاء الاسلام وقدم الهجرة ومصاحبته في الغار واقام الصلاة ، وأنا يومئذ بالشعب أظهر الإسلام وأُخفيه .. »[13] ..

وعن علي قال : «إنه – أي ابو بكر – لأرأف الناس ، وإنه لصاحب رسول الله في الغار ، وإنه لأعظم الناس غناء عن نبيه ﷺ في ذات يده »[14] . وعن موسى بن شداد قال : «سمعت عليًا (رضي الله عنه) يقول : افضلنا ابو بكر. »[15] ... وغير هذه ، روايات اخرى كثيرة ، يقيّم فيها علي رفيقيه ابا بكر وعمر[16] .

* * *

أما مسألة حق فاطمة (رضي الله عنها) في ميراث الرسول ﷺ حيث قيل كثيرًا بأنه كان أحد اسباب الجفاء بين فاطمة وعلي من جهة والخليفة ابي بكر من جهة اخرى .. فان لها وجهًا آخر يتوجب على المؤرخ الجاد أن يعاينه قبل أن يمضي للحسم أو الترجيح .. إن أبا بكر أجاب فاطمة بصراحة : أن أباها نبيّ ، وأن الانبياء لا يورثون ، وأن ما يتركونه صدقة للمسلمين جميعًا . قال : أما اني سمعت رسول الله ﷺ يقول (لا نورث . ما تركناه صدقة . انما يأكل آل محمد في هذا المال) . واني والله لا ادع أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلاّ صَنَعتُه ! ![17] . وفي كتاب (فضائل الصحابة) من صحيح البخاري[18] ، أن عليًا أجابه :

---

١٣) المصدر السابق ١/٧٥ – ٧٦ .
١٤) المصدر السابق ١/١١٤ .
١٥) المصدر السابق ١/١٢١ .
١٦) للمزيد من التفصيل أنظر المصدر السابق ١/١٨٧ – –١٨٨ .
١٧) الطبري : تاريخ ٣/٢٠٧ .
١٨) ٤/٢٠٩ – ٢١٠ .

إنا عرفنا يا ابا بكر فضيلتك ولكنه الحق والقرابة . فأجابه ابو بكر : والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله احبّ الي أن اصل من قرابتي .

إن عائشة نفسها ، ابنة الخليفة ، كانت من ورثة النبي ﷺ ، وقد حرمت نصيبها بهذا الحديث ولو جرى ابو بكر مع ميله الفطري لأحبّ أن ترث ابنته [١٩] .. ولكنه الالتزام .. ونقرأ في (منهاج السنة) لابن تيمية [٢٠] ، أنه عندما تولىٰ علي الخلافة وصارت فدك وغيرها تحت حكمه ، لم يعط لاولاد فاطمة ولا زوجات النبي ولا ولد العباس شيئًا من ميراثه .. لأنه الالتزام .. هنا وهناك .

لقد كان بمقدور ابي بكر ، لو كانت المسألة مجرد صراع على السلطة ، أن يكون ماكياڤِلّيَّاً وحاشاه .. أن يُسكت فاطمة بميراث الرسول ﷺ في فدك وخيبر ، ويسد على خلافته ثغرة قد تتسرب منها بعض المتاعب .. لكن المسألة لم تكن قضية صراع سياسي ، انما قضية الجيل الذي صنعته العقيدة ، ورباه الرسول ﷺ ، وثمنه القرآن الكريم .. الجيل الذي استطاع (فعلاً) أن يحقق الانجازات التاريخية الكبرىٰ بسبب من هذا كله .. لقد طرح رسول الله ﷺ قاعدة أن الانبياء لا يورثون ، وإن الخليفة الأول مسؤول عن كلمات الرسول ... وإلاّ خان الأمانة .. وأبو بكر يقولها بوضوح : «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله يعمل به ، إلا عملت به ، فاني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ» [٢١] . وهو عندما قرر إنفاذ جيش اسامة إلىٰ فلسطين ، وقال له الناس : إن هؤلاء جل المسلمين ، والعرب – علىٰ ما ترىٰ – قد انتقضت بك ، فليس ينبغي لك أن تفرق

---

١٩) أبو بكر بن العربي : العواصم من القواصم ، هامش الصفحة ٤٨ (تحقيق محب الدين الخطيب) .

٢٠) ٣/٢٣٠ .

٢١) صحيح البخاري ٤/٤٢ .

عنك جماعة المسلمين .. أجاب : والذي نفس ابي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته[22] وينهي زيد بن علي كل لجاجة في هذه المسألة عندما يقول : «وايم الله لو رجع القضاء إليَّ لقضيت بما قضى به أبو بكر .. »[23] .

لا اريد أن اقول بان البحث الذي بين ايدينا يمضي مع صورة (الصراع) المبالغ فيها إلى نهاية الشوط .. ابدًا .. بل بالعكس ، إنه يحاول في أكثر من موضع أن يضيّق الشقة ما وسعه الجهد .. إلاّ أنه ازاء وقائع كهذه يتوجب عليه الاّ يقف عند جانب واحد من الواقعة التاريخية وأن يمد رؤيته لالتقاط كل ما قد قيل من أجل أن تكون الصورة أكثر موضوعية .

٢

وتحت موضوع (ابو بكر والعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب) ترد هذه العبارة « .. كان عمر بن الخطاب أقرب الشخصيات الصالحة لهذا المنصب إلى قلبه (أبي بكر) ، فهو بالاضافة إلى جهاده الطويل في خدمة الاسلام ، ومكانته البارزة في المجتمع ، كان أول من عمل على مبايعة أبي بكر بمنصب الخلافة ، وكان أقرب الأعوان اليه في حكم البلاد .. » ، وبعد أن يستعرض جانبًا من الاستشارات التي أجراها ابو بكر ، والتي انتهت بترشيحه لمنصب الخلافة ، يتطرق لما أسماه بالمعارضة التي جوبه بها هذا الترشيح ، ويقول : « .. ويبدو أن المعارضة لاستخلاف عمر كانت تنحصر بين كبار الصحابة من أهل الحلّ والعقد المتطلعين إلى شغل منصب الخلافة ... » ، ثم يخلص إلى القول بأنه «لم تظهر أية معارضة لذات الطريقة التي اختارها ابو بكر

---

٢٢) الطبري : تاريخ ٢٢٥/٣ .

٢٣) المحب الطبري : الرياض النضرة ٥٩/١ .

للعهد بالخلافة إلى عمر ، والتي كانت صورة من صور التعيين وليس الانتخاب ، مما يشعر بأن هذه الطريقة في التعيين لم تكن غريبة على تقاليد العرب في اختيار الرئيس » .

ثمة ما يستوقف الباحث في هذا العرض : فهنالك – من جهة – ما يشبه الاتفاق الثنائي لتسلّم السلطة والتعاون عليها بين أبي بكر وعمر ، مما يذكرنا ببحث ماسيه وبروكلمان والأب لامانس اليسوعي الموسوم بـ (الحكومة الثلاثية) حيث سعى الكتاب الثلاثة إلى تأكيد مسألة أن اتفاقاً ، أو مؤامرة ، تمت بين ابي بكر وعمر وأبي عبيدة بصدد الوصول إلى السلطة وحجبها عن بني هاشم .. وهنالك – من جهة اخرى – معارضة قادها كبار الصحابة من أهل الحل المتطلعين إلى شغل منصب الخلافة .. وهنالك – ثالثًا – (تعيين) لعمر بن الخطاب وليس (انتخابًا) .. وهنالك – رابعًا – استمرار لتقليد عربي جاهلي قديم يمنح هذه الصيغة قبولاً لدى جماهير المسلمين .

بعبارة اخرى تبدو مسألة وصول عمر بن الخطاب إلى السلطة ، تجربة أخرى تتضمن الكثير من السلبيات ، من مثل الاتفاق المسبق بعيدًا عن إرادة الجماهير ، والصراع على السلطة واستمرار التقليد القبلي ، كأنه لم يكن هنالك برنامج ايديولوجي جديدٌ يمتلك رؤيته المستقلة الخاصة لمسألة الحكم هذه .

فلنناقش بعض هذه الافتراضات ، حتى اذا تبين لنا عدم صوابها (المطلق) عرفنا أنها لا تعدو أن تكون مجرد فرضيات لم تصل عتبات اليقين الأولى ..

هل صحيح أن أحد أسباب ترشيح أبي بكر لعمر أن الأخير كان وراء انتخاب أبي بكر في السقيفة ؛ اذن لماذا لم تعلن (المعارضة) احتجاجها

على هذا التواطؤ (اذا صحّ التعبير)؟ لماذا كان جواب الناس، وقد اطلّ عليهم أبو بكر وسألهم: «أترضون بمن استخلف عليكم؟ فاني - والله - ما ألوت جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، واني قد استخلفت عمر بن الخطاب، فاسمعوا له واطيعوا»، لماذا كان هذا الجواب: «سمعنا وأطعنا»[٢٤]؟ أما كان بمقدورهم، وهم الطليعة التي ربّيت على النقد الحرّ والمجابهة المكشوفة، أن يعربوا عن سخطهم أو رفضهم - اذا اقتضى الأمر - لهذه الطريقة التي اعتمدها ابو بكر لاستنادها على خلفيات المصلحة المتقابلة في الوصول إلى السلطة؟

لقد كانت الكلمات الأولى التي اعلنها أبو بكر لدى تسلّمه السلطة، وهو في عزّ قوته، تتضمن دفعًا لهذا الجيل من الصحابة والتابعين إلى النقد والمعارضة والرفض: «أيها الناس، اني قد ولِّيت عليكم ولست بخيركم، إن احسنت فاعينوني وإن اسأت فقوّموني ...»، أفيقدم الرجل في اخريات أيامه، وهو يتأرجح بين الموت والحياة، ويستعد للحظة الحساب الفاصلة، على الالتفاف على مشيئة الأمة وانتخاب الرجل الذي أعانه على الوصول إلى السلطة، باعتبار أن هذه الإعانة هي عامل فاصل في الاختيار؟

إن اختيار الرجل الثاني جاء في تلك اللحظات الصعبة التي حدثنا عنها أبو بكر الصديق بالصدق الذي لا يمكن أن نشك فيه، وهو يملي كتاب ترشيحه لعمر «عند آخر عهده - أي ابي بكر - بالدنيا واول عهده بالآخرة، الحال التي يؤمن بها الكافر ويتقي الفاجر.. : اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ... الخ».. أفيجوز لأبي بكر الصديق، وهو يوشك على مفارقة الحياة أن يوفّي دينه المصلحي القديم على حساب ارادة الأمة، ويذهب إلى الله وهو يحمل هذا الوزر، بعد حياة طويلة حافلة

٢٤) الطبري: تاريخ ٣/٤٢٨.

بالتجرّد والأذى والخوف والمطاردة ، ووضع (الذات) في خدمة اهداف الجماعة العليا؟ أما كان بمقدور أبي بكر منذ شبابه الأول أن يتجاوز هذا كله بحثًا عن تطمين مصالحه وأهدافه القريبة ، بدلاً من أن ينتمي للدعوة الجديدة فيحمل همها وتغربها ورعبها في تلك الأيام الطويلة الصعبة؟ الأيام التي انفق فيها جلّ ما جمعه من مال ، فلما سأله الرسول ﷺ : وماذا ابقيت لعيالك؟ أجابه : ابقيت لهم الله ورسوله ..

إن بداهات البحث في اخلاق الرجال .. وبداهات الالتزام الايماني الذي لا يزال يستطعمه – ولله الحمد – في عصرنا هذا كثير من الرجال .. ترفض هذا التحليل الذي يرتطم أساسًا وهذه البداهات لأنه يطرح ، وبأسلوب ملتو– لعبة (اعطني لكي اعطيك) .. وليست الحياة البشرية مَحْضَ تقابل في (المصالح) وصراعٍ عليها ، وإلاّ فقدت طعمها وقيمتها وشرفها .

* * *

وماذا عن معارضة اولئك المتطلعين الى شغل منصب الخلافة؟

للوهلة الاولى يبدو أن هنالك قطاعًا واسعًا من أهل المدينة عارضوا انتخاب عمر ، فهو يقول : «لم يستقبل استخلاف أبي بكر لعمر بالرضا من قبل جميع سكان المدينة ، بل كان هنالك من يعترض على انتخاب عمر لهذا المنصب ويجهر بمعارضته» ويتكئ على هذه الرواية «دخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر فقال : استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به اذا خلا بهم؟ وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك؟ فقال أبو بكر– وكان مضطجعًا – أجلسوني فاجلسوه ، فقال لطلحة : أَباللهِ تخوفني؟ إذا لقيت الله ربي فسألني قلت : استخلفت على اهلك خير اهلك» [٢٥] .

---

٢٥) المصدر السابق ٣/٤٣٣ .

والرواية ، كما يتبين بوضوح ، لا توحي بوجود قطاع واسع من المعارضة ، فضلاً عن أنها - كما فهمها كثير من المؤرخين - تعبر عن وجهة نظر أحد رفاق عمر في العقيدة ، وتتضمن بعدًا ايجابيًا يوجه النقد إلى عمر بما هو أهل له : الصرامة والشدة ، في عصر كان يتوجب أن يسوس الأمة (لعلها : فيه) رجلٌ كهذا .. وهو القائل في أول كلماته بعد توليه الخلافة «انما مثل العرب كمثل جمل أنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، أما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق ..» «ولست ادع احدًا يظلم احدًا حتى أضع خده على الأرض ثم أضع قدمي على الخد الأخر حتى يذعن بالحق .. ثم اني اضع خدي على الأرض لأهل العفاف واهل الكفاف» .

وطلحة يخشى أن تتجاوز شدة عمر مداها المعهود .. ليس إلّا ، ومن ثم فهو عندما يستمع إلى ردّ ابي بكر يسكت أو يكون سكوته من القرار ، فهي اذن ليست معارضة بالمعنى الدقيق سيما وأننا لا نجد ، طيلة خلافة عمر ، أي ردّ فعل مضاد يعبّر عن معارضة طلحة .

ولسنا ندري كيف عقب الباحث على الرواية الآنفة بالاستنتاج التالي «يظهر أن معارضة طلحة لاستخلاف عمر ، كانت تعكس وجهة نظر قطاع ليس بالقليل من سكان المدينة» إذ أنه ما يلبث أن يتكئ على موقف صحابي آخر هو عبد الرحمن بن عوف ، ما نلبث أن نتبين من كلماته أنه لم يتخذ موقف المعارضة بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد ، وإنما هو (يشير) على الخليفة فحسب .. ثم إن موقفه هذا ، لا يعطينا أي دليل على الاستنتاج آنف الذكر ، من أن معارضة طلحة كانت تعكس وجهة نظر قطاع ليس بالقليل .

دخل عبد الرحمن بن عوف على أبي بكر فوجده مغتمًا ، فلما سأله عن السبب أخبره «إني وليت امركم خيركم في نفسي ، فكلكم

ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه» ، غير أن عبد الرحمن ابن عوف حاول التخفيف عنه بقوله : «خفف عليك رحمك الله ، فان هذا يهيضك في أمرك . إنما الناس في امرك بين رجلين ، إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، واما رجل خالفك فهو مشير عليك ، وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك اردت الاّ خيرًا ، ولم تزل صالحاً مصلحاً وانك لا تأسى على شيء من الدنيا» [26] .

واننا لنقرأ في رواية اخرى ، يوردها الطبري نفسه ، كيف أن ابا بكر يستدعي – خلال مرضه – عبد الرحمن بن عوف ويقول له : «أخبرني عن عمر» فيجيب «يا خليفة رسول الله هو والله افضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة» فيقول أبو بكر : «ذلك لأنه يراني رقيقًا ، ولو افضى الأمر اليه لترك كثيرًا مما هو عليه . ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتني اذا غضبت على الرجل في الشيء اراني الرضا عنه ، واذا لنت له اراني الشدة عليه ، لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئًا . قال : نعم» [27] .

فكأنه الاقرار الذي انتهى اليه موقف طلحة .. وليس ثمة اذن معارضة واسعة ، أو تمثيل لمعارضة واسعة ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، سيما وأننا لا نجد – كذلك – طيلة خلافة عمر ، أي ردّ فعل مضاد يعبر عن معارضة الرجل .

أما عبارة أبي بكر «فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه» فتقودنا – بالضرورة – إلى مسألة «التطلع إلى شغل منصب الخلافة من قبل أهل الحل والعقد» . وقبل أن نناقش هذه العبارة علينا أن نلجأ إلى القرائن التاريخية لتبيّن مواقف أهل الحلّ والعقد هؤلاء ، من السلطة ، ولنبدأ بالخليفة الأول نفسه .

---

٢٦) المصدر السابق ٣/ ٤٣٠ .

٢٧) المصدر السابق ٣/ ٤٢٨ .

إن الطبري يورد لنا هذا المقطع ذا الدلالة من حوار جرى بين ابي بكر وعبد الرحمن ، يقول فيه الخليفة «وددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين – يريد عمر وأبا عبيدة – فكان أحدهما أميرًا وكنت وزيرًا» [٢٨] . وفي لقاء مع عثمان بن عفان يطرح الأمنية بشكل أكثر حدّة «لوددت اني كنت خلوًا من اموركم ، واني كنت فيمن مضى من سلفكم» [٢٩] .

أما عمر بن الخطاب ، فكلنا نعرف دعاءه الدائم في سني خلافته الاخيرة «اللهم كبرت سنّي وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي ، فاقبضني اليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك» ، ونعرف ردّه الحاسم على الرجل الذي اقترح عليه تولية ابنه عبد الله من بعده «قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا . ويحك كيف استخلف رجلًا عجز عن طلاق امرأته ؟! لا أرب لنا في أموركم ، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ، إن كان خيرًا فقد اصبنا منه ، وان كان شرًا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، وان نجوت كفافًا لا وزر ولا أجر إني لسعيد» [٣٠] . كما نعرف اخراج ابنه – فعلاً – من هيئة الشورى التي عهد اليها انتخاب رجل من بينها . ويحدثنا عمر عن يوم السقيفة وكيف أن أبا بكر أخذ بيده وبيد أبي عبيدة ، وقال للمجتمعين : بايعوا ايهما شئتم ، وليختتم حديثه قائلاً «واني والله ما كرهت من كلامه شيئًا غير هذه الكلمة ، إن كنت لأقدم فتضرب عنقي ، فيما لا يقربني إلى إثم ، احبّ إليّ من أن اؤمر على قوم فيهم ابو بكر» [٣١] .

---

٢٨) المصدر السابق ٣/٤٣٠ .

٢٩) المصدر السابق ٣/٤٢٨ .

٣٠) المصدر السابق ٤/٢٢٨ .

٣١) المصدر السابق ٣/٢٠٦ .

وفي تجربة الشورى نجد عبد الرحمن ، الذي اتهم قبل قليل بأنه يتطلع للسلطة ، يقول لرفاقه الآخرين . « ايكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها افضلكم ؟ » وإذ لا يجيبه احد يقول : « فأنا انخلع منها » [٣٢] ، ويقول لسعد « اني قد خلعت نفسي منها على أن اختار ، ولو لم أفعل ، وجعل الخيار اليّ ، لم اردها ! ! » [٣٣] . وخلال المشاورات المكثفة التي اجراها لاختيار الخليفة الجديد ، يسأل سعد بن ابي وقاص « من تشير عليّ ؟ فأما أنا وانت فلا نريدها ! ! فمن تشير علي ؟ » فيجيبه سعد : « عثمان » [٣٤] .

أما الزبير ، فانه يقول خلال اجتماعات الشورى « لولا حدودالله فرضت ، وفرائضالله حدّت ، لكان الموت من الإمارة نجاة ، والفرار من الولاية عصمة ، ولكنلله علينا إجابة الدعوة وإظهار السنة » [٣٥] . وهو في كلماته هذه يضع يده على الدافع الحقيقي الذي يحرّك المتطلعين إلى السلطة .. إنها – كما سنرى – مغرم وليست مغنمًا ، وكدح وليست ترفًا .. نصب وسهرٌ وليست استلقاء وتخمة ونومًا .. ولكنها ضرورة اذا ما اريد لهذه الأمة أن تواصل مهمتها التاريخية ، واذا ما اريد لعقيدتها أن تضرب جذورها في الأرض .. إنه على مدار التاريخ حدث صراع على السلطة أو تطلع اليها من زعماء الثورات والانقلابات ... ونخطئ إن قلنا إنهم جميعًا سعوا لتحقيق مطامحهم الخاصة وإشباع نزواتهم الذاتية .. لا ريب أن فيهم الكثيرين الذين ارهقتهم السلطة وآذاهم العمل السياسي ، ولكنهم ارادوها لأنهم رأوا انفسهم قادرين على تحمل مسؤوليتها ، ومن ثم فهم

---

٣٢) المصدر السابق ٤/٢٣١ .
٣٣) المصدر السابق ٤/٢٣٢ .
٣٤) المصدر السابق ٤/٢٣٧ .
٣٥) المصدر السابق ٤/٢٣٦ .

مسؤولون عن المطالبة بها!! إن خلاف (ستالين) مع (تروتسكي) - مثلاً - لم يفسرّ من قبل اتباعهما علىٰ أنه صراع شخصي مصلحي علىٰ السلطة بقدر ما فسّر علىٰ أنه سعي لتنفيذ أكثر واقعية (ستالين) أو ثورية (تروتسكي) للتعاليم الماركسية - اللينينية.

وحين قتل عثمان، اجتمع المهاجرون والأنصار، فيهم طلحة والزبير «فأتوا عليًا فقالوا: يا أبا حسن هلم نبايعك، فقال: لا حاجة لي في امركم، انا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به فاختاروا والله!! فقالوا: ما نختار غيرك.. فاختلفوا اليه مرارًا، ثم أتوه في آخر ذلك فقالوا له: انه لا يصلح الناس الاّ بإمرة، وقد طال الأمر. فقال لهم: انكم قد اختلفتم الي، وإني قائل لكم قولاً إن قبلتموه قبلت امركم، والا فلا حاجة لي فيه. قالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله. فصعد المنبر، فاجتمع الناس اليه فقال: اني قد كنت كارهًا لأمركم فأبيتم الا ان اكون عليكم، الا واني ليس لي امر دونكم، ألا إنّ مفاتيح مالكم معي، الا وانه ليس لي أن آخذ منه درهمًا دونكم، رضيتم؟ قالوا نعم. قال: اللهم اشهد عليه، ثم بايعهم علىٰ ذلك»[٣٦]. وفي رواية اخرىٰ انه (رضي الله عنه) «كان يهرب من الناس وهم يلحوّن عليه بقبول بيعتهم، حتىٰ أنه دخل بستان بني عمرو بن مبذول وطلب أن يقفل عليه الباب»[٣٧].

وتتوالىٰ الروايات عن موقف علي واخوانه من السلطة خلال الأيام التي اعقبت مقتل عثمان، فتذكر كيف «أن الناس كانوا يلتمسون من يجيبهم إلىٰ القيام بالأمر فلا يجدونه. يأتي المصريون عليًا فيختبيء منهم ويلوذ بحيطان المدينة، فاذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة. ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، فارسلوا اليه حيث هو

٣٦) المصدر السابق ٤/٤٢٧ - ٤٢٨.

٣٧) المصدر السابق ٤/٤٢٨.

رسلاً فباعدهم وتبرأ من مقالتهم . ويطلب البصريون طلحة فاذا لقيهم باعدهم وتبرأ من مقالتهم مرة بعد مرة . وكانوا مجتمعين على قتل عثمان مختلفين فيمن يهوون . فلما لم يجدوا ممالئًا ولا مجيبًا قالوا : لا نوليّ احدًا من هؤلاء الثلاثة . فبعثوا إلى سعد بن ابي وقاص وقالوا : انك من أهل الشورى . فرأينا فيك مجتمع فاقدم نبايعك . فبعث اليهم : إني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لنا فيها على حال . وتمثل :

لا تخلطن خبيثات بطيبة   واخلع ثيابك منها وأنج عريانًا

ثم إنهم أتوا ابن عمر فقالوا : أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر ، فقال : ان لهذا الأمر انتقامًا . والله لا اتعرض له فالتمسوا غيري »[٣٨] .

وعن الشعبي قال : « لما قتل عثمان أتى الناس عليًا وهو في سوق المدينة وقالوا له : ابسط يدك نبايعك . قال : لا تعجلوا . فان عمر كان رجلاً مباركاً وقد اوصى بها شورى فامهلوا يجتمع الناس ويتشاورون » « فلما اجتمع لهم اهل المدينة قال لهم اهل مصر : انتم اهل الشورى وانتم تعقدون الامامة . وامركم عابر على الأمة . فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن تبع لكم . فقال الجمهور : علي بن أبي طالب نحن به راضون »[٣٩] . أما محمد بن سيرين فيذكر كيف أن عليًا جاء « فقال لطلحة : ابسط يدك يا طلحة لأبايعك . فقال طلحة : أنت أحق وأنت أمير المؤمنين فابسط يدك . فبسط علي يده فبايعه »[٤٠] .

وليس من المؤكد بأن رفض علي وأصحابه قبول السلطة بعد مقتل عثمان هو تخوفهم من تهمة الاشتراك في الفتنة . لأن موقفهم من عثمان كان واضحًا بيّنًا لم يتعد المعارضة (السلمية) لبعض سياساته . وعلي .

---

٣٨) المصدر السابق ٤/٤٣٢ .

٣٩) المصدر السابق ٤/٤٣٣ – ٤٣٤ .

٤٠) المصدر السابق ٤/٤٣٤ .

الذي يعد أشدهم معارضة . كان قد بعث ولديه الحسن والحسين للاسهام في الدفاع عن عثمان . أما طلحة والزبير فقد أشار الطبري في أكثر من موضع إلى أن ما قيل عن تحريضهما على عثمان لم يَعْدُ أن يكون رسائل زورت عليهما . وقد قاما بكشف ذلك في أكثر من اجتماع (في ذي خشب وذي المروة والاحوص) .

وأما الخوف من تضييق الثائرين عليهم وإخضاعهم لمشيئتهم . فانه على اهميته . لم يكن الدافع الوحيد . ذلك أن رفض السلطة من قبل عدد من الصحابة سبق وأن مورس قبل الفتنة وبعدها .. هذا إلى أن البيعة لم تكن مقتصرة على زعماء القبائل الثائرة . بل إنها كانت معروضة -كما رأينا- من قبل القطاع الأوسع الذي يضم فيمن يضم عدداً من المهاجرين والأنصار أنفسهم[٤١] . وكانت بيعة هؤلاء ستمنح الخليفة الجديد مزيداً من الشرعية التي تجعله يتحرك من مركز القوة ولا ريب .

ونعرف -أخيراً- كيف أن علياً . قبيل وفاته . يرفض أن يعهد لأحد من ابنائه بالخلافة . رغم الالحاح المتزايد عليه . ويقول : «بل اترككم كما ترككم رسول الله . فلعل الله يجمعكم بعدي على خيركم . كما جمعكم بعد نبيكم على خيركم» وقال ايضاً : «لا آمركم ولا انهاكم انتم أبصر» ..

هذه نماذج فحسب من مواقف كبار الصحابة من السلطة .. فماذا عن كيفية (استخدامهم) للسلطة نفسها ؟ هل ركبوها لتحقيق مطامحهم الخاصة واشباع نزواتهم الذاتية أم كانت وسيلة لتحقيق قدراتهم في خدمة الأمة والعقيدة والسير بهما خطوات تاريخية إلى الأمام ؟ هل كانت مغنماً وكسباً وإثراء واستعلاءً وتفرداً وطغياناً . أم كانت مغرماً وخسراناً وجوعاً وتواضعاً ونصباً وإرهاقاً ؟

---

٤١) أنظر مثلاً : المصدر السابق ٤/٤٢٩ .

إن الحديث عن تداول السلطة يستلزم تحليل موقف الحكام إزاء جماهير أمتهم بعد انتخابهم لأنه لا يمكن الفصل بين الجانبين ، إذ أن الثاني هو امتدادٌ للأوّل ..

ولا اعتقد أن مجالاً ضيقًا كهذا يتيح التوسع ، بل مجرد الإستعراض السريع . لمسألة ممارسة السلطة في عصر الراشدين ، ولكن بمجرد استقراء الوقائع التاريخية الغنية والكثيفة يمكن أن نجد الجواب واضحًا لا يحتمل مناقشة أو لجاجًا .. وسواء كانت القضية على مستوى الاستغلال المادي ، أو الابتزاز الأدبي ، فاننا – في عصر الراشدين – نحظى بتجربة في التجرّد على هذين المستويين يصعب علينا أن نجد لها مثيلاً في تاريخ البشرية كله .

إن المحك ليس نظريات تقال ، ولكن ممارسات تنفذ في الواقع المبهظ الثقيل .. وحتى عثمان بن عفان الذي بالغت الروايات في تصوير استغلاله السيء للسلطة ، نجد قبالتها روايات اخرى تمثل تيارًا مضادًا تمامًا لموقف الرجل .. فعبد الله بن شداد ، احد شهود العيان ، على سبيل المثال ، يقول : كان عثمان بن عفان يخطب وعليه قميص مرقوع ثمنه اربعة دراهم أو خمسة . والحسن البصري ، شاهد عيان آخر يقول : كان عثمان ينام في المسجد ، ويقوم وآثار الحصى على جنبه ، فيقول الناس : هذا عثمان ، هذا أمير المؤمنين . ويقول : كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة ويأكل الخل والزيت .

وعثمان نفسه ، يرد على الاتهامات التي وجهت ضده فيقول أمام حشود الناس : « .. وقالوا : اني احب اهل بيتي واعطيهم ، فأما حبي فانه لم يمل معهم على جور ، بل احمل الحقوق عليهم ، وأما اعطاؤهم فإني اعطيهم من مالي ، ولا استحلّ أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من الناس . ولقد كنت اعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان

رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، وأنا يومئذ شحيح حريص . أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي . وفني عمري . وودعت الذي لي في أهلي . قالوا ما قالوا ؟ واني – والله – ما حملت على مصر من الامصار فضلاً فيجوز لمن قاله . ولقد رددته عليهم وما قدم علي الاّ الأخماس ، ولا يحلّ لي منها شيء . فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني . ولا تَبَلَّغْت من مال الله بفلس فما فوقه ، وما اتبلغ منه . ما آكل الاّ من مالي ...وما لي من بعير غير راحلتين .وما لي ثاغية ولا راغية . وإني قد وليت وأنا أكثر العرب بعيرًا وشاء . فما لي اليوم شاة ولا بعير ، غير بعيرين لحجي . اكذلك ؟ قالوا : اللَّهُم نعم ..» [٤٢] .

الا يدفعنا هذا التيار المضاد من الروايات المتواترة إلى أن نتريث قليلاً في حكمنا على طرائق تعامل الرجل مع السلطة ؟ إلى أن نشك – على الأقل – في معطيات التيار الأوّل من خلال هذه المفارقة الحادّة التي لا ريب وأن وراءها أسبابًا ! ! .. التيار الذي صوّر لنا عثمان كما لو كان رجل اقطاع من طرازٍ أوّل ، يلبس الحرير الناعم ويتحلى بالذهب ويأكل الطيّب من الطعام ، ويملك القرى والمزارع والضياع التي يعمل فيها الاف العبيد ، وأنه كان عند خازنه يوم قتل خمسون ومائة الف دينار ، وانه خلف خَيْلًا وإبلًا كثيرة [٤٣] .. تمامًا كما قيل عن الزبير بن العوام ، مثلًا ، من أنه خلف خمسين الف دينار والف فرس والف عبد والف أمة [٤٤] .. ولكننا من خلال هذه الحشود التي قيلت عن الرجل ، نلتقي برواية يقدمها الطبري نفسه ، وتكاد تضيع بين معطيات التيار الآخر ، تقول ان الزبير توفي وهو مدين ! !

---

٤٢) المصدر السابق ٤/٣٤٧ – ٣٤٨ .

٤٣) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ٢/٢٥٤ .

٤٤) نفسه .

مهما يكن من أمر فإن الخط العام للتعامل مع السلطة في عصر الراشدين ، كان يمثل اكثر المواقف نبلاً وإنسانية في التاريخ ..

وعلى ضوء هذا كله يمكن أن نفهم عبارة أبي بكر الموجهة إلى عبد الرحمن بن عوف « فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له » .. الا يجوز أن تكون مما يقال في تأنيب رجل أبدى بعض التردّد في اختيار عمر خوفاً من شدته البالغة ، وابو بكر يعاني من المرض المهلك ، ولا يدري في أية لحظة سيحتوشه الموت ؟ والدولة الاسلامية في لحظات صراع مصيري مع خصومها في الشرق والغرب ؟ الا يجوز أن تكون العبارة نفسها قد دُسّت على الرواية بأيدي الرواة والاخباريين التي صاغت تاريخنا المبكر ، هذا بعد أكثر من قرن على تشكّله ، وفي عصر طغت فيه المذهبيات والأهواء ؟ وهي المعطيات التي يحذّر الطبري نفسه ، في مقدمة كتابه ، من التسليم المطلق بها ؟

إننا لا نريد أن نحمّل الخبر أكثر مما يطيق ، ولا أن نستخدم اسلوب التشكيك السهل ، والنفي الكيفي للروايات .. ولكننا بمضينا خطوات أخرى في البحث الذي بين ايدينا فاننا سنقع على ما يشكل تناقضاً اساسياً مع العبارة آنفة الذكر حيث يقول الكاتب « يظهر من استقراء النصوص التي أوردها الطبري أن عمر بن الخطاب كان ميالاً للعهد بمنصب الخلافة إلى عبد الرحمن بن عوف ، دون غيره ، ولكن زهد عبد الرحمن في هذا المنصب ، على ما يظهر ، هو الذي جعل عمر يعهد إلى الستة بهذا الأمر ، ويوصي بترجيح الجانب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف في حالة الإنقسام» [٤٥] .

وها هنا يمكن للقارئ أن يضع يده على تناقض آخر لا يقل اهمية ، وهي أنه اذا كان ابن عوف على رأس المعارضين لترشيح عمر للخلافة ،

---

٤٥) أنظر : الطبري : تاريخ ٥/٣٧٢٤ – ٣٧٢٥ (طبعة بريل) .

لأنه كان يريدها لنفسه !! أما كان يتوجب على عمر أن يستبعده من ذهنه كلية ، كمرشح للخلافة من بعده ، بله أن يدرجه في الستة أهل الشورى مرجحًا اياه بشكل خاص ، بله أن يسعى – قبل هذا كله – إلى إقناعه بتولي المنصب الخطير ؟

ثم ، إذا ما تابعنا منطق الكاتب الذي يقود إلى أن أحد أسباب اختيار أبي بكر لعمر أن الأخير أعانه على الوصول إلى الخلافة ، فانه يتوجب – والحالة هذه – أن يكون ابن عوف آخر من يفكر عمر بترشيحهم لمنصب الخلافة .. هذا إذا سلمنا برواية الكاتب نفسه من أن ابن عوف كان على رأس المعارضة وأنه كان يريدها لنفسه ..

٣

في الحديث عن (مبايعة عثمان) ترد هذه المقولة « .. كان من أسباب تقدم بني أمية على بني هاشم تمرّسهم بشؤون الحكم والسياسة منذ الجاهلية ، اضافة إلى غناهم ونشاطهم في حقل التجارة مما ساعدهم على توثيق صلاتهم بالناس واحتلالهم مواقع مؤثرة في المجتمع . فلا غرابة أن وجدنا اغلبية المرشحين لمنصب الخلافة ينحازون إلى عثمان مرشح بني أمية للخلافة ، ويتخلون عن علي مرشح بني هاشم» ؛ ثم ما يلبث أن ينقل رواية الطبري عن تشكك علي في أن علاقات المصاهرة ستلعب دورها ضده .

ترى .. أكان انتخاب عثمان ثمرة محتومة للصراع بين الأمويين والهاشميين ، ولعلاقات المصاهرة بين اغلبية اهل الشورى ؟

إن عبد الرحمن بن عوف يقع ها هنا ، مرة اخرى ، ضحية للسيل المتناقض من الروايات .. ليس هذا فحسب ، بل يُضحَّى كذلك بالقيم الإسلامية والتقاليد العربية .. وكأن لم يكن لها وزن في عملية الانتخاب هذه .

ومرة اخرى ، لا نريد أن نسعى إلى ممارسة خطيئة النفي الكيفي للروايات ، ولكن طرح وجهات النظر المتباينة يعد (عملية) ضرورية في البحث التاريخي ، لئلا نقع في أسر نظرة أحادية الجانب للوقائع والأحداث .. مرة اخرى نجد أنفسنا ملزمين بأن ندور حول هذه الواقعة من زوايا اخرى لكي نقترب - أكثر - من الحقيقة .. ثم ان الاستسلام التقليدي للروايات القديمة يقودنا إلىٰ نفس الخطأ الذي يقودنا اليه طريق النقد الاعتباطي والنفي الكيفي .. إنها أزمة (منهجية) حقًا ، وعلينا أن نكون حذرين قدر الأمكان باتخاذ موقف أكثر شمولاً وتوازنًا ، ونظرة نقدية أكثر دقة .. من أجل الاّ نتحرك في ابحاثنا علىٰ حساب الحقيقة التاريخية نفسها ، ونحن نعتقد أننا نخدمها ونكشف عنها ..

ولنتمعن في هذه الرواية التي يقدمها الطبري نفسه «لما كانت الليلة الثالثة ، قال عبد الرحمن بن عوف : يا مسوّر . قلت : لبيك ، قال : إنك لنائم ، والله ما اكتحلت بغماض منذ ثلاث ، إذهب فادع لي عليًا وعثمان . قلت : يا خال ، بأيهما ابدأ ؟ قال : ايهما شئت . فخرجت فأتيت عليًا وكان هواي فيه ! ! فقلت : أجب خالي ... فدخلنا جميعًا على خالي (عبد الرحمن) وهو في القبلة قائم يصلّي فانصرف لما رآنا . ثم التفت إلى علي وعثمان وقال : اني قد سألت عنكما وعن غيركما فلم أجد الناس يعدلون بكما . هل أنت ياعلي مبايعي على كتاب الله وسنة نبيِّه وفعل ابي بكر وعمر؟ فقال : اللهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي . فالتفت إلى عثمان (بالسؤال نفسه) فقال : اللهم نعم . فاشار بيده إلىٰ كتفيه وقال : اذا شئتما . فنهضنا حتى دخلنا المسجد ، وصاح صائح : الصلاة جامعة . قال عثمان : فتأخرت والله حياء لما رأيت من إسراعه إلى علي فكنت في آخر المسجد . وخرج عبد الرحمن وعليه عمامته التي عمّه بها رسول الله ﷺ ، متقلدًا سيفه ، حتى ركب المنبر

فوقف وقوفًا طويلاً ثم دعا بما لم يسمعه الناس . ثم تكلم فقال : ايها الناس إني قد سألتكم سرًّا وجهرًا عن إمامكم فلم اجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين ، إما علي وإما عثمان ، (ثم عرض عليهما السؤال نفسه فأجاباه بنفس الجواب) فوضع يده بيد عثمان وقال : اللهم اسمع واشهد ، اللهم اني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان . وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عن المنبر »[٤٦] .

فعبد الرحمن – اذن – الذي اعطى رفاقه موثقًا من الله الاّ يألو جهدًا في اختيار الرجل الذي ترتضيه الأمة ، بذل جهدًا متواصلاً ثلاث أيام بلياليها لم يذق خلالها طعم النوم ، وراح يسأل الناس ، سرًا وجهرًا ، للاطلاع على وجهات نظرهم فيمن يحبون أن يلي خلافتهم . وتمركزت آراء الناس في اثنين منهم هما عثمان وعلي .. ولم يكن بمقدور عبد الرحمن حتى اللحظات الأخيرة للانتخاب أن يرجّح أحدهما على الأخر ، حتى أن ابن اخته وهو يسأله : بأيهما ابدأ فادعوه اليك ، يجيبه : أيهما شئت ، لأنه لم يكن في ذهنه أي تفضيل أو ترجيح مسبق .. بل اكثر من هذا ، إنه اذ يبدأ بعلي فيوجه اليه السؤال الحاسم يظن عثمان ان الاختيار وقع عليه فيتأخر حياء لما رأى من إسراعه إلى عليّ ، فيقبع في آخر المسجد . وبعد أن يتلقى عبد الرحمن جواب الرجلين يقوم بحركة اخرى تدل على حيرته فيشير بيده إلى كتفيه ويقول : اذا شئتما .. ويزدحم الناس في المسجد ، فالأمر مكشوف أمام جماهير الناس ، وهو ليس مؤامرة سرّية تدور في الخفاء أو من وراء الظهور .. وحاشا لعبد الرحمن ان ينكث عهده لله ولاخوانه فيتواطأ مع التيار الأقوى .. تيار بني أمية على حساب بني هاشم .. إن الرجل انتمى إلى الدعوة في أيام اضطهادها ومطاردتها وتغرّبها ، وكان متميزًا في قومه ، زعيمًا بينهم ، وكان بمقدوره يومها

---

٤٦) المصدر السابق ٢٣٨/٤ .

أن ينحاز إلىٰ التيار الأقوى لتطمين مصالحه والاتكاء علىٰ سند أكثر قوة ومكانةً لضمان مستقبله. وكان آخر ما يمكن حدوثه بالنسبة (لرجل المصالح) يومها، أن يضع يده بيد رسول الله ﷺ، الوحيد، المطارد، المضطهد، المتعرض واصحابه كل يوم للقتل والخوف والأذىٰ .. افيمكن لعبد الرحمن، وهو الذي رفض السلطة في أعلى قممها، ان يتحرك في اخريات أيامه لتحقيق مصالحه، وضمان مستقبله بالانحياز إلىٰ الجانب الأقوىٰ؟ وأن يضرب عرض الحائط العهد الذي اعلنه أمام الله وأمام رفاقه، عندما قال: «لكم علي ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه، ولا آلو المسلمين»؟!

ثم .. لو حدث وأن وقع هذا كله (فعلًا)، أَكان سائر المسلمين سيسكتون علىٰ هذا التحيز المكشوف؟ أكانوا سيزدحمون لمبايعة عثمان حتىٰ «يغشوه عن المنبر»، ويضطروه إلى الجلوس اضطرارًا؟ وهم الجيل الذي عايش خلافة عمر وتعلم كيف يقول لا في اللحظة المناسبة، لأن الخليفة السابق اعلمه ان لا خير فيه إن لم يقلها ولا خير في حكامه إن لم يسمعوها منه؟ ثم إن عليًا (رضي الله عنه) نفسه، كما يتضح من خلال الروايات التي يعتمدها الباحث نقلاً عن الطبري، يسأل عن اي الرجال يفضل لو تجاوزه الاختيار فيقول: عثمان .. ويقول المقداد في حوار مع عبد الرحمن، «.. أما والله لقد تركته – أي عليّ – من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال: يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين. قال: ان كنت أردت بذلك الله فاثابك الله ثواب المحْسنين»[47].

إن معطيات إخباريِّينا، واكثرهم معروف بضعفه، تميل لأن تقدم صورة أبعد عن روح العصر لأنها لم تتشكل في العصر نفسه، وانما بعد عشرات العصُور، في عصر المذهبيات والأهواء والطغيان .. صورة تبدو

---

٤٧) المصدر السابق ٤/٢٣٣.

فيها العملية الانتخابية كما لو كانت تآمرًا مكشوفًا حينًا ، مغطى حينًا آخر .. ذهب عليٌّ ضحيته ، لا لشيء الاّ لأنه ينتمي إلى بني هاشم خصوم بني امية الاقوياء .. وكأن لم يكن هناك بين جماهير الناس وقياداتهم غير بني أمية وبني هاشم .. من يكشف – على الأقل – أبعاد اللعبة الموهومة ..

إن الرجل الذي أخذ على عاتقه مهمة الاختيار يعتمد ، وفق اجتهاده بعد ان تعادلت كفتا الميزان ، مقياسًا للترجيح المحتوم حيث اشرفت الأيام الثلاثة المحددة على الانتهاء ، وحيث بدت تلوح في الافق القريب تحذيرات ابن الخطاب وتهديداته المتوعدة في الوقت نفسه وحيث الدولة الإسلامية الناشئة تتعرض للتو لأخطر المؤامرات التي يدبرها لها خصومها في بيزنطة وفارس . فيسأل المرشحيْن عن مدى التزامهما بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين من بعده .. فيعلن اولهما أنه سيلتزم كتاب الله وسنة رسوله ، ويجهد بعدهما رأيه ، وهو مصيب كرم الله وجهه ، ويعلن ثانيهما أنه سيلتزم سيرة الشيخين كذلك .. وهو مصيب – أيضًا – رضي الله عنه .. وجماهير المسلمين لم تنس بعد ماذا حققته لها سيرة الشيخين للتحديات الحضارية التي فرضت نفسها فرضًا .. وان عبد الرحمن يجد – وفق هذا المنظور – أن الكفة قد رجحت لعثمان وأن المحنة الصعبة قد بدأت تنفرج ، فيقرر اختيار عثمان ، رغم أن عليًا في موقفه ذاك لم يكن يقل اخلاصًا لتراث الإسلام الذي صنعه الشيخان ، إن لم يفق عثمان في ذلك ، لأنه كان من ابرز صنّاعه .. ولكنها ضرورات الاجتهاد .. والمسألة – بعد – ليست موازنة أو تفضيلاً بين الرجلين رضي الله عنهما .

«وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه عثمان – وكان غائبًا – فقيل له : بايع عثمان ، فقال : اكلّ قريش راضٍ به ؟ قال : نعم . فأتى عثمان فقال له عثمان : أنت على رأس أمرك ، إن أبيت رددتها !!

قال : اتردّها ؟ قال : نعم . قال : اكل الناس بايعوك ؟ قال : نعم . قال : قد رضيت ، لا أرغب عما قد اجمعوا عليه !! وبايعه »[٤٨].

وفي هذه الرواية ذات الدلالة ، والتي يوردها الباحث نقلاً عن الطبري ، تأكيد آخر على الروح الشورية والاجماع اللذين سادا عملية الانتخاب بعيداً عن أجواء التآمر والتحيزّ وضرورات القربى والمصاهرات !!

وقضية القربى والمصاهرة هذه مسألة عجيبة حقًا .. إتكأ عليها من اتكأ من مؤرخينا المعاصرين ، واتكأ عليها رواة الطبري نفسه وهم يفسّرون اسباب قفزة عثمان إلى السلطة !! وتحوّل تجربة الشورى إلى «صهري وحماي»[٤٩].

لو كان لصلات القربى والمصاهرة ثقل كبير في مسألة الانتخاب ، أما كان يجدر بعمر أن يعهد بالخلافة لحميّه علي ، ومن من المسلمين سيعترض وقد عرفوا اخلاص الرجلين وتفانيهما في خدمة العقيدة الجديدة : الصهر والحميّ ؟! لقد كانت أم كلثوم ابنة علي زوجًا لعمر وولدت له زيدا ورقية ، وبعد مقتل عمر تزوجها – كما هو معروف – ابن عمها محمد بن جعفر .. وعلى ذكر صلات القربى هذه فان كتب الأنساب والطبقات كانساب الأشراف للبلاذري والطبقات الكبرى لابن سعد ، تتضمن الكثير من نماذج الالتحام هذه بين الصحابة وابنائهم ، بغض النظر عن البطون التي ينتمي اليها المتصاهرون ، ودون أن يكون لذلك تأثير يذكر في مجرى الأحداث العامة .. ليس هذا فحسب ، بل اننا نجد الصحابة وابناءهم يتيمّنون بتسمية ابنائهم باسماء رفاقهم في العقيدة ، اولئك الذين قال عنهم الإخباريون أنهم كانوا يتآمرون بعضهم ضد بعض ويأكل بعضهم بعضًا !!

---

٤٨) المصدر السابق ٥/٣٧٨٧ (طبعة بريل).

٤٩) أنظر رواية الطبري التي يعتمدها الباحث في هذا الصدد ٥/٣٧٨٠ (طبعة بريل).

عبد الله بن جعفر بن ابي طالب سمى احد بنيه باسم أبي بكر ، وعمر بن علي بن ابي طالب كان من نسله عيسى ابن عبد الله الذي اشتهر باسم المبارك العلوي وكان يكنى ابا بكر ، والحسن بن علي بن ابي طالب سمى احد بنيه باسم ابي بكر والآخر عمر والثالث طلحة ، وزين العابدين علي بن الحسين سمى احد بنيه باسم عمر ، ولعمر هذا ذرية كثيرة منهم العلماء والشعراء ولما توفيت فاطمة (رضي الله عنها) تزوج علي بعدها امامة بنت ابي العاص بن عبد شمس .. وعليّ نفسه سمى أبناءه الثلاثة بعد الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، باسماء رفاقه السابقين : ابي بكر وعمر وعثمان ... الخ .. الخ ..[٥٠] ، فاين هذا مما قيل عن صراع لا يرحم بين البطون والافخاذ ، امتدت ناره لكي تلتهم قدسية الخلافة وشرف الانتخاب ؟!

إن الخلفاء الأربع انتخبوا دون أن يسعى احدهم –كما رأينا– لاستغلال السلطة من اجل مدّها إلى اقربائه واصهاره .. إنه خط متميز يغطي جلّ عصر الراشدين ، ولا يمكن للصحابة الكبار الذين توفي الرسول وهو عنهم راضٍ أن يبيعوا رضى الرسول ويتنازلوا عن ماضيهم الحافل بالمتاعب من اجل هوى صهر أو قريب .. وإن عبد الرحمن بن عوف ، بعد أن يتنازل عن حقه في الخلافة يأخذ على نفسه ميثاق الله ألا يخص ذا رحم لرحمه ولا يألو المسلمين .. وكان عمر من قبل –كما أشار الباحث– قد تمنى أن تكون الخلافة لعبد الرحمن نفسه لولا أن الاخير كان زاهدًا فيها .. وما كان لفراسة عمر أن تخيب في صدق الرجال !!

والتقاليد العربية الأصيلة ، التي اشار اليها الباحث في أكثر من موضع ، ألا يجوز أن تكون قد لعبت دورها هنا في تهافت الناس على انتخاب عثمان الأكثر تقدمًا في العمر ، والذي لم تكن تعوزه التجارب ، بعيدًا

٥٠) أنظر بالتفصيل : محب الدين الخطيب : حملة رسالة الإسلام الأولون صفحة ٩ – ١٠

عن مؤشرات القربى .. فليس الناس كلهم – كما قلنا – بني أمية أو بني العاص ..

وثمة اشارة صغيرة نلتقي بها في الرواية التي اوردناها قبل قليل ، لكنها تحمل دلالتها ولا ريب في هذا المجال .. إن عبد الرحمن بن عوف يطلب من ابن اخته المسوّر بن مخرمة أن يدعو له عليًا وعثمان ، فيسأله : يا خال ، بأيهما أبدأ ؟ فيجيبه : أيهما شئت . يقول المسوّر : فخرجت فأتيت عليًا ، وكان هواي فيه !!

وكان احرى به ، وفق منطق اولئك الاخباريين ، ان يكون هواه في عثمان لأن خاله صهره ، ولأنه يقوم بمهمة تمسّ عملية الانتخاب من قريب !!

٤

تحت موضوع (مقتل عثمان ومبايعة علي بالخلافة) نقرأ هذه الرواية ، نقلاً عن البلاذري[٥١] «لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة اميرًا ، فمكث ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئًا ، وإنه لأحب الى قريش من عمر ، لشدة عمر ولين عثمان لهم ورفقه بهم . ثم توانى في أمرهم واستعمل اقاربه وأهل بيته في الست الأواخر وأهملهم ، وكتب لمروان بن الحكم بخمس أفريقية وأعطى لأقاربه المال وتأوّل في ذلك الصلة التي أمر الله بها . واتخذ الأموال واستسلف من بيت المال مالاً ..» .

ويفهم القارئ بالمقابل أن معظم العمال الذين عينهم عثمان كانوا من اقربائه الأمويين .. فلنرجع اذن إلى القائمة الادارية التي يقدمها الطبري عن عمال عثمان في سنة ٣٥ هـ ، أي في السنة التي قتل فيها ، وهي سنة تحمل دلالتها لأنها تشير إلى رغبة عثمان في التغيير الاداري

٥١) أنساب الأشراف ٥/٢٥ (طبعة القدس) .

وكسر الاحتكار الأموي أو الإصرار عليه .. والجواب يكمن في القائمة نفسها ..

«على مكة عبد الله بن الحضرمي ، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي وعلى صنعاء يعلى بن منبه وعلى الجند عبد الله بن ربيعة وعلى البصرة عبد الله بن عامر بن كريز ، خرج منها فلم يول عليها عثمان احدًا ، وعلى الكوفة سعيد بن العاص ، اخرج منها فلم يترك يدخلها ، وعلى مصر عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، قدم على عثمان وغلب محمد بن ابي حذيفة عليها ، وكان عبد الله بن سعد استخلف على مصر السائب بن هشام بن عمرو العامري فاخرجه محمد بن ابي حذيفة ، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان وعامل معاوية على حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة ، وعلى الاردن أبو الأعور بن سفيان ، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني ، وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاري ، وعلى القضاء ابو الدرداء ، وعلى صلاة الكوفة ابو موسى (الأشعري) وعلى خراج السواد جابر بن فلان المزني وسماك الأنصاري ، وعلى حرب الكوفة القعقاع بن عمرو ، وعلى قرقيسياء جرير بن عبد الله ، وعلى اذربيجان الأشعث بن قيس وعلى حلوان عتيبة بن النهاس وعلى ماه مالك بن حبيب وعلى همذان النسير وعلى الري سعيد بن قيس وعلى اصبهان السائب بن الأقرع وعلى ماسبذان حبيش وعلى بيت المال عقبة ابن عمرو ، وكان على قضاء عثمان يومئذٍ زيد بن ثابت»[٥٢] .

واقطاعات عثمان ، كما أنها شملت بني أمية وكبار زعماء قريش من الصحابة بما فيهم علي ، فانها امتدت – كما يحدثنا أبو يوسف والطبري وغيرهما – لكي تشمل رجالًا آخرين كخبّاب بن الأرتّ وعبد الله بن

---

٥٢) الطبري : ٣٠٥٧/٦ – ٣٠٥٨ (طبعة بريل) .

مسعـود وعمار بن ياسر وسعـد بن مالك وابن هيمـار وسويد بن غفلة وغيرهم [٥٣] .

وما يقال عن هذا يمكن أن يقال عن قضية خمس الأموال التي منحها عثمان لمروان بن الحكم في أعقاب غزوه أفريقيه .. ان عثمان نفسه يجيبنا على ذلك في لقاء له مع جمهور من مسلمي المدينة يدافع فيه عن سياساته ويرد على التهم التي وجهت ضده .. يقول « .. وقالوا اني اعطيت ابن ابي سرح ما افاء الله عليه، وإني انما نفلته خمس ما افاء الله عليه من الخمس ، فكان مائة الف ، وقد انفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر (رضي الله عنه) ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرددته عليهم ، وليس ذاك لهم ، اكذاك؟ قالوا : نعم » [٥٤] .

عثمان – اذن – استجاب للمعارضة وردّ المبلغ وحسم الموقف ، فليس لنا أن نعيده الى ما كان عليه قبل الحسم ! !

ثم نقرأ العبارة التالية « نلاحظ أنه حين توجه الثائرون على عثمان من المصريين والذين كان عددهم في حدود ألـ ٥٠٠ شخصاً مع من يؤازرهم من أهل الكوفة والبصرة إلى المدينة ، لم يلقوا مقاومة تذكر ، حتى تم لهم قتل عثمان والسيطرة على المدينة . وربما كان من الغريب أن نشير إلى أن الدولـة التي قضت على الامبراطـوريـة الساسانيـة ودمرّت الامبراطورية البيزنطية ، لم يكن لرئيسها حرس خاص يتولى حمايته والدفاع عنه وقت الملمات .. » .

ومسألة ذهاب عثمان بن عفان لمصرعه دون أن تكون هناك قوة تقف الى جانبه أو حرس يدافع عنه ضد الثائرين ، من الاخطاء العديدة

٥٣) فتحي عثمان : أضواء على تجربة صفحة ٢٠٦ .
٥٤) الطبري : تاريخ ٤/٣٤٧ – ٣٤٨ .

التي شاعت على ألسنة المؤرخين المعاصرين ، وهي توحي – في الوقت نفسه – أن اهل المدينة نفسها وطلائعها من المهاجرين والانصار قد انضموا بصمت الى صفوف الثوار ، أو أنهم على أحسن الأحوال وقفوا ساكتين يشاهدون مأساة خليفتهم وهو يلاقي الموت .

الا ان الواقع شيء غير هذا تمامًا .. لقد وقف زعماء المدينة وطلائعها من المهاجرين والأنصار وأبناؤهم إلى جانب الخليفة طيلة أيام محنته ، وأرادوا مرارًا أن يشهروا السلاح بوجه المحاصرين ويخرجونهم من المدينة اخراجًا . وثمة عروض اخرى للدفاع جاءته من الأقاليم ولكنه (رضي الله عنه) رفضها جميعًا ، ذلك أنه ما كان مستعدًا أن تسفك قطرة من دماء المسلمين . إن القطرة التي سيأمر باراقتها تحمل دلالاتها السلبية على المستويين الانساني والتاريخي والتي حذر الخليفة منها أكثر من مرة .. على المستوى الأول لا يريد الخليفة أن يكون قاتلاً ، فقد تكون وجهة نظر قادة الثائرين أو قواعدهم مصيبة !! وعلى المستوى الثاني لا يريد أن يكون أول من خالف عن أمر رسول الله ﷺ بسفك دماء امته .

فلماذا لم يتنازل الخليفة – اذن – عن منصبه ويتجاوز وضع نفسه في هذه المعادلة الصعبة ؟

لقد طرح عليه هذا الموقف اكثر من مرة وكان جوابه دائمًا أنه ليس مستعدًا أن يعطي الاشارة الاولى لكل من يريد أن يطيح بالخليفة المنتخب لهوىً يهواه أو وجهة نظر يرتئيها في مجتمع لا تزال تيارات القبلية ومناوأة السلطة المركزية تعمل عملها فيه ، ولا تزال القوى المضادة في الخارج تتحفز للانقضاض عليه .. وهو من ثم في أمسّ الحاجة إلى استقرار السلطة وديمومتها لا إلىٰ قلقها وتغيرّها .. ولعل هذا هو الذي يفسرّ لنا لماذا كان الخلفاء الراشدون ينتخبون مدى الحياة ، رغم انه لا توجد في كتاب

الله وسنة رسوله اية اشارة إلى المدى الزمني الذي يتوجب على الخليفة أن يمارس السلطة في إطاره .

وما دام عثمان قد اعلن عن استعداده للحوار ، كما يروي لنا الطبري وغير الطبري في أكثر من موضع ، ما دام قد قالها لجماهير الثائرين بصراحة «إن رأيتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في قيود فضعوهما» . وما دام قد أجرى (فعلًا) الكثير من التغييرات التي أرادها الثائرون وكان قد هيأ نفسه لتنفيذ المزيد منها (كما يبدو على سبيل المثال من القائمة الادارية التي عرضنا لها أنفاً) فليس ثمة داعٍ للعنف من قبل أي من الطرفين المتخاصمين : الحاكم والمحكوم .. إن صراع الآراء هو الذي يجب أن يحتل الساحة لا صراع الخناجر والسكاكين .

وما دام الخليفة قد وضع نفسه – اذن – ازاء هذه المعادلة الصعبة : لن اتنازل عن الخلافة ولن اسفك قطرة دم .. فان النتيجة ستكون معروفة سلفاً ، وقاطعة كالسكين : إن الرجل سيقتل ، ما في ذلك شك !!

ولنرجع إلى مسألة الدفاع عن عثمان .. لقد ثبت – كما يقول ابن العربي – أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان : «إنا معك في الدار عصابة مستبصرة ينصر الله بأقل منهم ، فائذن لنا . فقال : أذكر الله رجلًا أراق لي دمه» [55] .

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة : كنت مع عثمان في الدار فقال : اعزم على كل من رأى أن لي عليه سمعًا وطاعةً الاّ كف يده وسلاحه فان افضلكم غناء من كف يده وسلاحه . ثم قال : قم يا ابن عمر – وعلى ابن عمر سيفه متقلدا – فاخبر به الناس ، فخرج ابن عمر والحسن ابن علي .. » [56] .

---

٥٥) العواصم من القواصم صفحة ١٤٠ .
٥٦) المصدر السابق صفحة ١٣٢ – ١٣٣ ، ١٤١ .

وثبت أن الحسن والحسين وابن الزبير وابن عمر.. دخلوا دار عثمان وهم شاكي السلاح فقال عثمان: اعزم عليكم لما رجعتم فوضعتم اسلحتكم ولزمتم بيوتكم [٥٧].

وقبل أن تبلغ الأمور مبلغها عرض عليه معاوية أن يرسل اليه قوة من جند الشام تكون رهن اشارته فأبى أن يضيّق على أهل دار الهجرة بجند يساكنهم [٥٨]. وذكر ابن كثير أن عثمان قال للذين عنده في الدار من المهاجرين والانصار، وكانوا قريبًا من سبعمائة، ولو تركهم لمنعوه: «اقسم على من لي عليه حق أن يكف يده وأن ينطلق إلى منزله» [٥٩]. وقال لرقيقه: «من اغمد سيفه فهو حرّ فبرد القتال من داخل وحمي من خارج» [٦٠]. وجاء زيد بن ثابت الانصاري فقال له: «هؤلاء الانصار بالباب يقولون: إن شئت كنا انصارًا لله مرتين. قال عثمان: لا حاجة لي في ذلك، كفّوا» [٦١]. ويروي البلاذري كيف أن بني عمرو بن عوف – اول كتل الانصار إسلامًا واشدهم قوة – عرضوا على الخليفة المساعدة وأنه وافق – اخيرًا – على معاونتهم ولكن دونما دفعهم لقتال [٦٢].. وقال سليط بن سليط الأنصاري «نهانا عثمان عن قتالهم، فلو اذن لنا لضربناهم حتى نخرجهم عن اقطارها (أي المدينة)..» [٦٣].

---

٥٧) المصدر السابق صفحة ١٣٤، ١٤١.
٥٨) المصدر السابق. صفحة ١٣٢ هامش ١.
٥٩) البداية والنهاية ٧/١٨١.
٦٠) ابن العربي: العواصم من القواصم صفحة ١٤١ هامش ٢.
٦١) المصدر السابق صفحة ١٣٤.
٦٢) أنساب الأشراف ٥/٧٣.
٦٣) ابن العربي: العواصم من القواصم صفحة ١٤٠.

ولو أراد عثمان ، يقول ابن العربي ، « لكان مستنصرًا بالصحابة ولنصروه في لحظة ، وانما جاء القوم مستجيرين متظلمين فوعظهم فاستشاطوا فأراد الصحابة ألّهم (أي دفعهم بالسلاح) فأوعز اليهم عثمان الاّ يقاتل احد بسببه ابدًا ، فاستسلم فأسلموه برضاه » ، ويتساءل ابن العربي « هي مسألة من الفقه كبيرة : هل يجوز للرجل أن يستسلم أم يجب عليه أن يدافع عن نفسه ؟ واذا استسلم وحرم على احد أن يدافع عنه ، بالقتل ، هل يجوز لغيره أن يدافع عنه ولا يلتفت إلى رضاه ؟ » ويجيب على السؤال بكلمات « اختلف العلماء فيها » [٦٤] ... ذلك أن الرجل يكتب تاريخًا ولا يدوّن فقهًا ! !

* * *

ومرة اخرى فان معاينة الحدث التاريخي من زوايا نظر متعددة ، وعرض التيارات المتضادة من الروايات في تحليل الواقعة التاريخية ، لا يلغي تركيبها ويمسّه بإشارة سحرية فيطيّر مكوناته ومساحاته ، وانما يحدث – إذا صحّ التعبير – تخفيفًا في اللون ، أو يمنح القارئ درجات (تونات) لونية أكثر موضوعية وشبهًا بالوقائع نفسها .

---

٦٤) المصدر السابق صفحة ٦٠ .

مَوقف إزاء التراث

١

في تاريخنا المعاصر ، ومن خلال اصطراع المذاهب والافكار والمعتقدات ، برز (التراث) كمصطلح يدور حوله الصراع. وتتخذ ازاءه المواقف سلباً وإيجابًا ... وما هذه الصفحات سوى محاولة لالقاء مزيد من الاضواء على الموضوع .

التراث هو جذور الامة ، ومكونات شخصيتها ، ومسارها الحيوي عبر الزمان والمكان .. وهو القاعدة والمنطلق وحجر الزاوية .. وهو قدر الامة ونسيج وجودها الذي لا يمكن لانسان أن ينكره الاّ على مستوى الجدل النظري الذي لا رصيد له في عالم التجربة الحية والواقع المعاش .

إن أي انسان لا يستطيع أن يتنكر لماضيه ، بيئة ووراثة ، ولمكوناته الاولى على هذين المستويين .. إن هذا يعني أن يعود الانسان (الفرد) إلى نقطة (الصفر) ، ويبدأ من جديد متجاوزاً وجوده المادي والروحي والفكري على السواء ، رافضًا تركيب عينيه وشكل جمجمته ونشاط أعضائه الوظيفي وتشابك أنسجته وافراز غدده وبصمات أصابعه .. متجاهلاً ماضيه وذكرياته وايحاءات الزمن وتأثيراته العميقة في وجوده .. منكرًا أباه وأمه واخوانه ، والمحلة التي نشأ فيها والبلد الذي درج في أحضانه والأمة التي عايشها طفلاً وصبيًا وشابًا وكهلاً .. وهذا لا يمكن الاّ في حالتين شاذتين – في بداهات علم النفس – إنفصام الشخصية أو الجنون ! !

إن الانسان المتعب المريض ، اذا ما اراد أن يتحقق بالصحة والعافية ، أحال نفسه إلى طبيب أو مجموعة أطباء ، وكشف لهم عن كل مميزاته سلباً وإيجابًا .. وبدون هذا الارتداد إلى الماضي لتفحص مكوناته الاساسية والعوامل التي أثرت فيها وصاغتها ، لن يتمكن طبيب من أداء مهمته والوصول بالشخص إلى حالة التوازن والنشاط .. وهذا شأن الأمم ، وليس تراثها سوى مجموعة تجاربها ومعطياتها ومكونات حياتها الشاملة وعوامل التأثير والصياغة في هذه الحياة .

ومن ثم يغدو الالتزام العلمي الواعي بهذا التراث ، وتفحصه ودراسته ، خطوة أساسية لفهم حاضرنا وتحديد الخرائط الدقيقة لمستقبلنا في عالم يسوده صراع (حضاري) شامل خابت فيه أمة قطعت صلاتها ووشائجها بماضيها وتراثها ، وطفت على السطح كالزبد الذي يذهب جفاء .. إذ لا يبقى – عبر متطلبات الصراع الحضاري – إلاّ ما يمكث في الأرض .

إن شخصية كل أمة تجيء وليدة حشد كبير متداخل متشعب من النشاطات والفاعليات والمعطيات والافكار والممارسات .. وهي خلال مسيرتها عبر الزمان ، تحمل معها ، أكثر فأكثر ، كل ما يتمخض عن علائقها المستمرة بالعالم الذي تنشط فيه ، ومن ثم تجيء ملامحها وسماتها وطبيعتها (النفسية) – إذا صح التعبير – نتيجة ولا ريب للبصمات التي يتركها التفاعل المحتوم بين مجموع الناس وبين عناصر الزمان والمكان .. وهي بصمات عميقة موغلة في التكوين النفسي والاخلاقي والفكري والاجتماعي للامة .. بحيث أن أي تجاوز أو إغفال أو محاولة للقطع والبتر لا تؤدي إلاّ إلى تشويه شخصية الامة ، إن لم نقل قتلها وتمزيقها ..

إن عاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا وسلوكنا اليومي ، في أصغر جزئياته وأكبرها على السواء ، ما هي في نهاية الأمر الا حصيلة تراث شامل وبعيد في مجرى الزمن ، يضم في حناياه كل العوامل والمؤثرات التي صنعت

وصاغت هذه العادات والتقاليد والاعراف .. وليس لأشد الناس (رفضًا) للانتماء لهذا التراث الا أن يخضع – في حياته العملية وسلوكه الواقعي على الاقل – لمنطق هذا التراث ومسيرته الزمنية ، ولأحكامه التي لا ترد .. وهل لانسان – ما – أن يتملص من ملامح أبويه اللذين وهباه الحياة – بإرادة الله – ومن تأثيرات (البيئة) التي غذته ونمته وفجرت فيه الدم ونسجت خلاياه واحدة واحدة ؟ ! .

٢

هذا – بإيجاز تام – ما يخص المستوى العام لمسألة (التراث) .. فإذا ما انتقلنا الى تراثنا نحن و (مواقفنا) المعاصرة إزاء هذا التراث ، فاننا سنلحظ – أول مانلحظ – هذا الالتحام الوثيق في تراثنا بين قيم الاسلام والعروبة ، إلتحامًا أبديًا أقامت جسوره تجربتنا التاريخية ، وشدت أواصره ممارساتنا الحضارية ابتداء من عنصري الجغرافية والبيئة وانتهاء بالنظرة الشاملة للكون والحياة والانسان ، مرورًا باللغة والاخلاق والاذواق والعلاقات الدائمة بالعالم : سياسية واجتماعية وحضارية .. والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ونحن اذا ما تصفحنا كتاب الله ، فسوف نلتقي بحشد من الآيات هذا بعضها : ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾[١] ، ﴿هذا لسان عربي مبين﴾[٢] ، ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيًا لعلكم تعقلون﴾[٣] ، ﴿وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًا﴾[٤] ، ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيًا وصرفنا فيه من الوعيد﴾[٥] ، ﴿قرآنًا عربيًا غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾[٦] ، ﴿كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم

---

١) الشعراء ٩٥ .
٢) النحل ١٠٣ .
٣) يوسف ٢ .
٤) الرعد ٣٧ .
٥) طـه ١١٣ .
٦) الزمر ٢٨ .

يعلمون﴾ [٧] ، ﴿وكذلك اوحينا اليك قرآنًا عربيًا﴾ [٨] ، ﴿انا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون﴾ [٩] ، ﴿وهذا كتاب مصدق لسانًا عربيًا لينذر الذين ظلموا﴾ [١٠] ...

ومن ثم يبدو أن أية محاولة ترى في (التراث) مجموع ممارسات (علمانية) لا علاقة لها بالإسلام ، أو حشدًا من الخبرات والتجارب الإسلامية لا علاقة لها بالعروبة ، وتسعى للفصل بين الاثنين واقامة الحواجز في دروبهما ، انما هي محاولة انفصالية غير علمية ، جزئية غير كلية ، موقوتة غير دائمة ، طارئة غير أصيلة .. ولن تكون نتيجتها سوى الفشل المحتوم امام المواقف المتعقلة التي تنطلق في تعاملها مع تراثنا من مواقع العلم والشمول والديمومة والاصالة ..

ثم إن محاولة خاطئة كهذه تبدو مستحيلة لأَنها تطلب الحياة والبقاء في تجربة متكاملة بعد أن تعمل فيها بمشرطها تمزيقًا وتجريحًا واستبعادًا لبعض المكونات الاساسية في التجربة من أجل استبقاء عناصر اخرى تراها – وفق نظرتها الموقوتة – ملائمة ومقبولة .. ان هذا لا يمكن ان يكون انتقاء أو إعادة صياغة ، ولكنه قتل وانتحار ! !

وثمة من يتجاوز هذا الموقف (النصفي) لكي يقف متطرفًا في أقصى نقطة ، داعيًا إلى إلغاء التراث إلغاء ، والبدء من نقطة الصفر ، لا لشيء إلاّ لأن مكونات هذا التراث وعناصره الاساسية (تاريخية وحضارية) تصطدم اصطدامًا مريعًا مع (النظرية المادية) التي يتشبث بها هؤلاء في دعوتهم

---

٧) فصلت ٣ .

٨) الشورى ٧ .

٩) الزخرف ٣ .

١٠) الاحقاف ١٢ .

لإلغاء التراث .. وهي نظرية جاء تصميمها النهائي في ظروف اخرى غير ظروفنا ، وفي مناخ غير مناخنا ، وفي بيئة غير بيئتنا ، ومن ثم فإن محاولة تنفيذها في ظروفنا ومناخنا و بيئتنا سوف يعرضها لاكثر من هزة ، وسوف يصيب أطروحاتها ومعطياتها بكسور ليس الى جبرها من سبيل .

وخلال هذا الصراع بين النظرية والواقع الذي يتأتى عن تحديداتها الخارجية ، وأقيستها الصارمة ، خلال ذلك يقف (التراث) ، حصيلة ضخمة من التجارب والممارسات ، بمواجهة هذا القسر ، ويقدم اطروحات عميقة الجذور في تربتنا ، شديدة التلاؤم مع مناخنا ، كثيرة الارتباط ببيئتنا ، الامر الذي يزعزع مواقف هؤلاء ويدفعهم اكثر فاكثر إلى الرفض الكلي والبدء من نقطة الصفر . وهي بداية – كما سبق وأن بينا – غير علمية ولا مأمونة العواقب ولا تعدو أن تكون – هي الاخرى – قتلاً وانتحارًا حضاريًا .. ولكنه الانتحار الذي ان جاء في المحاولة السالفة تحت ستار من الانتقاء والاستبعاد ، فانه يجيء – وفق هذا الموقف – فاضحًا مكشوفًا ليس إلىٰ نكرانه من سبيل .

٣ لقد أكدت تجاربنا التاريخية المعاصرة ان الاستعمار ، بشتى اشكاله القديمة والجديدة ، والصهيونية ، بمختلف نشاطاتها المحلية والعالمية ، يسعيان إلى تشكيك أمتنا ، وبخاصة شبيبتها الناشئة ، بتراثها ، ويدعوانها بأكثر من اسلوب ، مباشر أو غير مباشر ، إلى أن تتخلى عنه ، وأن تبدأ مسيرتها من جديد ، من مواقع مرسومة لها ، ليس في أمدائها أي ظل من تجربة ماضية ، أو ممارسة تاريخية ، أو تراث أصيل ... والنتيجة معروفة بطبيعة الحال ، والا لما الحت مؤسسات الاستعمار والصهيونية هذا الالحاح الدائم علىٰ دفعنا إلى التخلي عن تراثنا .. النتيجة هي أن نقطع الجذور التي تشدنا إلى أعماق أرضنا وتاريخنا وحضارتنا

وشخصيتنا ، من اجل ان نغدو – وقد قطعنا هذه الجذور – أخف وزنًا في ميدان الصراع الحضاري .. ومن ثم تجيء الارادات الاثقل وزنا فتكنسنا كما تشاء ، وترسم خرائطنا كما تريد ، وتسوقنا إلى المصائر التي تريدها هي ولا نريدها نحن ، والتي لم نكن لنتخيل يومًا اننا سنذهب اليها لكي ننتحر عند اعتابها ! !

وفي مقابـل ذلك تسعى اسرائيل بمؤسساتها وسلوكياتها الفردية والجماعية ، إلى تعزيز علائقها الفكرية والمذهبية والاخلاقية بتاريخها وتراثها ، من أجل ان تكون لها بمثابة القاعدة التي تنطلق منها في صراعها الدائم معنا ، فكرة وحضارة وأرضًا ووجودًا .

يحدثنا (توينبي) في بحثه الضخم (دراسة في التاريخ) كيف ان الحضارات البشرية تنشأ وتتطور في أعقاب استجابتها لسلسلة من التحديات البيئية أو البشرية (المناسبة) وتغلبها عليها ، وكيف أنها ، وهي تجابه هذه التحديات ، تشحذ كل طاقاتها الحضارية ومكوناتها التاريخية ، وعناصر القوة في تراثها ، من أجل ان تصوغ الابداع الخاص المناسب لمجابهة التحدي الجديد .. ومن ثم فإن أي أنفصال يحدث بين واقع حضارة ما وبين جذورها التاريخية ووحدتها العضوية ، سيؤول بها حتمًا إلى الضعف والسكون والعجز عن استجاشة طاقاتها الخلاقة لمجابهة التحديات المتزايدة وهكذا تجد نفسها – وقد اصابها الشلل – تنساق نحو التدهور والسقوط .

ويستعرض توينبي في بحثه ذاك عددًا من الحضارات التي سقطت وعفا عليها الزمان ، وكيف انه لم يتبق في عصرنا الراهن هذا سوى سبع حضارات فحسب ، ستة منها تعاني النزع الاخير ، بما فيها الإسلامية ، وتدور – سرعة وابطاء – في تلك الحضارة الكبرى (الغربية) التي تهدد سائر الحضارات الاخرى بالابتلاع .

ولن يكون أمامنا – اذن – وفق هذا التحليل الحضاري الذي يطرحه توينبي ، إلا أن نشحذ كل طاقاتنا الفكرية والعقيدية والتاريخية ، ونستجيش كل عناصر القوة والثقل في تراثنا العريق ، من أجل تعزيز مواقفنا في الصراع الراهن ، وحماية قيمنا الحضارية الاصيلة من التفتت والذوبان .. فاذا ما خرجنا منتصرين في معركتنا الدفاعية هذه كان لنا أن نخطو الخطوة الاخرى في مواجهة العالم الراهن ، وهي خطوة تقوم على الهجوم والتقدم وتعتمد هي الاخرى على نقاط ثقل وارتكاز يمكن للتراث أن يمدنا بالكثير الكثير منها ..

٤ ولكن .. هل التشبث بالتراث للاستهداء بمعطياته وحمايته من التمزيق أو (الرفض) يقودنا إلى الجمود ويقعدنا عن التقدم والحركة ، في (عصر) نحن بأمس الحاجة فيه إلى أن نوسع مدى خطواتنا ، ونسارع في السير لكي نلحق اولئك الذين سبقونا ؟ والجواب العادل هو : نعم ولا ! !

نعم .. اذا ما أتحنا لهذا التشبث أن ينقلب إلى نوع من (الاندماج) في الماضي والذوبان فيه .. إلى (هروب) من الحاضر المليء بالتحديات ، للارتماء بكسل في امجاد الماضي واضوائه الرومانتيكية الهادئة .. إلى رفض الانتماء إلى (العصر) والعودة الراجعة إلى الوراء لكي يحتوينا بسلبياته وايجابياته على السواء .. إلى موقف غير علمي ، لاينقد ولا ينتقي ولا يرفض ، بل يستسلم كلية لنداءات الماضي ويغيب عن العيان .. ان التشبث بالتراث ، اذا ما جاوز حده المنطقي الهادئ ، تحول إلى سلاح خطير نشهره ضد أنفسنا في حلبة الصراع الرهيب ضد اعدائنا ومهاجمينا .

ولقد انتبه أعداؤنا أنفسهم إلى هذا الجانب المدمر في الموقف من التراث فأرادوا أن يستخدموه على مستوى الفكر لكي يغيبونا عن الحاضر ،

فتخلو لهم الساحات . «وهكذا أصبح الفكر الإسلامي – يقول مالك بن نبي – على أثر الصدمة الثقافية التي اجتاحته ، وما تسبب عنها من مركب نقص ، ينحاز إلى معسكرين : احدهما يدعو لتمثل الفنون والعلوم والاشياء الغربية – حتى اللباس – والاخر يحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس» ويمضي مالك إلى القول بأن التيار الثاني «وجد منحدره الطبيعي في أدب الفخر والتمجيد الذي نشأ منذ القرن التاسع عشر على أثر ما نشره علماء مستشرقين أمثال (دوزي) عن الحضارة الإسلامية . ولا يمكننا – على اية حال – أن نجعل بين التيارين فاصلاً قاطعًا ، لان الثاني منهما لا يكون مدرسة مستقلة عن الاول ، بل يخامر الفكر الإسلامي على العموم ، ويتخلل اتجاهه العام كفكر يبحث عن اعتزاز للتغلب على المهانة التي أصابته من الثقافة الغربية المنتصرة ، كما يبحث المدمن عن حقنة المخدر التي يستطيع بها مؤقتًا اشباع حاجته المرضية . وهذا لا يجعلنا ننفي لهذا التيار ، ولنوع الادب الذي نتج عنه ، كل أثر حسن في مصير المجتمع الإسلامي لانه كان له نصيب لا يزهد فيه في الحفاظ على شخصيته ! ! » .

ثم يضرب الكاتب الجزائري مثلاً على ذلك فيقول «أننا عندما نتحدث إلى فقير لا يجد ما يسد به الرمق اليوم ، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده ، إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل فكره مؤقتًا وضميره عن الشعور بها ، اننا قطعاً لا نشفيها . فكذلك لا نشفي امراض مجتمع بذكر امجاد ماضيه . ولا شك ان أولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للاجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصة الف ليلة وليلة ، وتركوا بذلك ، أثر كل سحر ، نشوة تخامر مستمعيهم حتى يناموا فتنغلق أجفانهم على صورة ساحرة لماضٍ مترف ، ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير في الغد فتنفتح ابصارهم من جديد على مشهد

الواقع القاسي الذي يحيط بها في وضعها الذي لا تغبط عليه اليوم ، فالادب الذي ينشد (عصور الانوار) للحضارة الإسلامية يؤدي أولاً هذين الدورين : إنه أتاح في مرحلة معينة الجواب اللائق للتحدي الثقافي وحافظ هكذا ، مع عوامل أخرى ، على الشخصية الإسلامية ، ولكنه من ناحية أخرى ، صب في هذه الشخصية الاعجاب بالشيء الغريب ولم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية والميكانيك»[11] .

ولكن ومن أجل ألا يحتوينا هذا الموقف الخاطىء ازاء التعامل مع التراث ، علينا أن نتحول إلى موقع أكثر علمية وايجابية وانفتاحًا ، موقع نتحمل فيه مسؤولية الرؤية الشاملة لمواضع الخطأ والصواب ، والنقد البعيد للحدود الدقيقة الفاصلة بين الأسود والأبيض ، والانتقاء الواعي لكل ما من شأنه أن يشعل الاضواء في طريقنا صوب المستقبل ، ويقدح شرارة الايمان والثقة في نفوسنا من أجل أن نتحول من حالة (السكون) التي نعانيها إلى حالة (حركية) لا تدع الزمن والتراب وسائر المكونات الحضارية تفلت من بين ايدينا .

٥

وليس (التراث) ، كما قد يتصور البعض ، مسألة (متحفيَّة) ، أو مجالًا للبحث الاكاديمي فحسب ، يتم التعامل معها وفق نفس الطرائق التي ينقب فيها عن قبر من قبور الاراميين ، أو جدث من أجداث الفراعنة ، أو ريازة قبة من قباب العصر المملوكي ! !

كما انه – من جهة اخرى – ليس متعة ترجى للناس في أوقات فراغهم باحياء تراثهم الشعبي (الفولكلور) رقصًا وعزفًا وغناء وأزياء وتمثيلاً ووسائل استعمال يومية .. أو حقلاً (انتاجيًا) يستقطب اهتمام

---

١١) انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث صفحة ١١ – ١٤ .

السائحين واعجابهم الرومانتيكي ويدر على الدولة دخلاً موفورًا ! !

إن هذا كله لا يعدو أن يكون جزءًا من طرائق تعاملنا مع التراث ، ومساحة فحسب من مساحات هذه العلاقة المتبادلة بين الحاضر والماضي .. ذلك ان التراث – بما انه ليس مجرد آثار عمرانية مادية ورقصات وأغان وأزياء وحاجيات يومية – وانما هو اللغة والافكار والعادات والتقاليد والاذواق والاداب والعلوم والفنون والعلاقات الاجتماعية والمواقف النفسية والرؤى الذهنية للكون والعالم والحياة .. وهو الآمال والمطامح والمتاعب والآلام .. إلىٰ آخره .. بما أنه هذا كله فانه يند عن نطاق السكون (ستاتيك) والشيئية لكي ما يلبث أن يتحول إلى حركة (ديناميك) وحياة .. وشتان بين التعامل مع (الاشياء) المحددة الساكنة والتعامل مع (الحياة) المتحركة المتمخضة التي لا تكف عن التدفق والنمو والتجدد والابداع .

اننا في الحالة الاولى نبحث ونكتشف ونحمي ونصون ونستمتع ، وأما في الحالة الثانية فنتحرك ونتفاعل ونبدع ونتجدد ونستمر ونمضي قدمًا في حوار متناغم هادف بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ..

ان كل واحد منا ، وكل جماعة من جماعاتنا ، تحمل في فكرها وروحها ودمها وأعصابها ووجدانها ، رصيدًا متفاوتًا من تأثيرات هذه المعطيات التي نسميها (تراثًا) على وجودنا .. وهذه التأثيرات تتجاوز المواقف المحددة التي تتمثل بمشاهدة منارة أو مطالعة مخطوط قديم ، أو التأمل في شريط من الخطوط الكوفية ، أو الاستماع إلىٰ معزوفة موسيقية شرقية أو حضور حفل فلكلوري بهيج .. تتجاوزها جميعًا – علىٰ أهميتها النسبية – إلىٰ مساحة أكبر واوسع تقوم علىٰ علاقة تبادل تأثيري بنائي شامل بين التراث وبين الانسان ! !

٦

ان هذا ينقلنا إلى مسألة اخرى غاية في الاهمية ، وخطأ فاضح شاع بين الناس ، ذلك هو أن (الإسلام) نفسه لا يعدو أن يكون جزءًا من تراث أمتنا ، ومساحة من مساحاته الممتدة في الزمان والمكان .. أو هو – على احسن الاحوال – تراث هذه الأمة الذي يتحتم علينا حمايته وصيانته تمامًا كما نحمي ونصون مكتبة موقوفة ، أو مصحفًا خطيًا جميلاً ، أو منارة مائلة تهددها الأيام بالسقوط !! أو مقامًا عراقيًا اصيلاً كاد يأتي عليه نغم الحجاز !!

ومن ثم ، فان أقصى ما يطمح اليه أنسان هو ألاّ يتجاوز تعاملنا المعاصر مع الإسلام حدود العلاقة بين أمة ما وبين تراثها (الماضي) : بحثًا وتنقيبًا ودراسة وحماية وصيانة واعجابًا وتقييمًا .. ومن ثم – كذلك – نقع في الشرك الذي نصبه لنا الفكر الاستعماري بجناحيه (الامبريالي والصهيوني) والذي يقودنا – عن علم أو بدون علم – إلى الزاوية الضيقة التي نقطع فيها كل علاقاتنا العضوية ، الحيوية ، مع الإسلام ، ونجمد كل اتصالاتنا الحركية بقيمه ومبادئه ، ونوقف سائر التزاماتنا بشعائره وأخلاقياته وآدابه ، اللهم الا اذا كان تنفيذ الاخلاقيات والآداب وأداء الشعائر نفسها تراثًا من التراث !!

ومن اجل الا ننساق وراء هذا الموقف الخاطىء ، أو تلك المؤامرة الخطيرة ، في تصور أن الإسلام ومبادئه وقيمه مسائل تراثية ، وأن علاقتنا به لا تتجاوز حدود العلاقة بين جماعة من الناس وبين تراثهم العريق ، علينا أن ندرك حقيقتين اساسيتين في هذا المجال أولاهما ، واكثرهما أهمية : هي أن تراث أمتنا ليس الإسلام أو أن الإسلام ليس تراث أمتنا بالشكل الرياضي الصارم كتطابق مثلثين تناظرت زواياهما . إنما يجيء التراث نتاج تفاعل ، بالسلب والايجاب ، مع الإسلام بالدرجة الاولى ، ومع عدد آخر من المبادئ والاديان والمذاهب بالدرجة الثانية ، فهو اذن

– أي التراث – حشد من المعطيات تتمخض عن طبيعة التجربة التي أحدثتها مواقف أبائنا وأجدادنا من الإسلام .. معطيات شتى فيها الخطأ والصواب ، والاسود والابيض ، والمنعرج والمستقيم ، والظالم والعادل .

وهذا التنوع يجيُ لان الناس في تعاملهم مع الإسلام ليسوا سواء ، والقرآن الكريم نفسه عبر عن هذه الحقيقة النفسية الاجتماعية بقوله (قل : كل يعمل علىٰ شاكلته) ، ومن ثم يبدو بينًا هذا الفارق الواضح بين الإسلام كفكرة وعقيدة ومنهاج وممارسات أخلاقية وشعائرية ، وبين تراث أمة أثر هذا الإسلام في سلوكها وعطائها بدرجة أو أخرى تأثيرًا متغيرًا كمًا ونوعًا ، كما يبدو بينًا خطأ أولئك الذين تصوروا الإسلام تراثًا ، أو عكسوا المقولة نفسها فتصوروا التراث إسلامًا ! !

وثانية تلك الحقائق : أن الإسلام عقيدة ومنهاج صاغتهما يد الله الحكيمة القديرة المريدة العالمة ، ومنحتهما الصفة الدائمة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان وأطروحاتهما الموقوتة الزائلة المتغيرة النسبية ، لكي تكون بمثابة استشراف كامل ، مرن ، يتسع لكل حالة ، ويحتوي كل تجربة ، بغض النظر عن موقعها في الزمان والمكان .

أما التراث فهو عطاء موقوت ، وهو رغم تأثيراته الدائمة الممتدة في مسارب الزمان والمكان ، الا انه لن يصل بحال مرحلة الخلود المطلق ، وتجاوز نسبيات الزمان والمكان ، كما أنه – باعتباره حصيلة لقاء عملي واقعي بين الانسان وبين العقيدة – يجيء متأرجحًا بين النقص والكمال ، بين الفجاجة والصرامة والتعصب والبدائية ، وبين النضج والمرونة والانفتاح والتوافق .. وما أكثر ما قاد هذا التأرجح في التعبير كثيرًا من الناس إلى أن يجانفوا روح الإسلام وبداهاته وهم يحسبون أنهم انما يعبرون عن ضرورات هذا الدين .

إن الإسلام ، بما انه الدين القيم الذي ارتضاه الله تعالى لامتنا لكي تتحرك به إلى العالم كله ، يبقى دومًا : عقيدة وشريعة ومنهاج حركة للانسان في كل زمان ومكان .. وما تفجر عن ذلك اللقاء المتغير المتنوع النسبي ، بين آبائنا وأجدادنا وبين دينهم القيم من معطيات ، كان هو التراث الذي ضم في حناياه تجاربهم المضنية ، وجهودهم الخلاقة ، وابداعهم الدائب ، ونتاجهم الدائم ، وكان بمثابة المؤشر لما اكتمل في نفوسهم من مشاعر وعواطف وأحاسيس ، ولما انتاب أذهانهم من رؤى وأحلام وأفكار وتصورات .. وهي جميعًا – من ألفها إلى يائها – مسائل تحتمل الخطأ والصواب ، والنور والظلمة ، والحق والباطل .

وفرق وأي فرق بين هذا الذي يصنعه الانسان الذي حدثنا عنه رسولنا ﷺ بقوله : إن كل بني آدم خطَّاء وأن خير الخطائين التوابون ، وبين تلك العقيدة التي جاءت من ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ والذي ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ .

٧

وتبقى بعد هذا وذاك مسألة غدا الحديث عنها من البداهات ، ولكنها بالنسبة لأمة تريد ان تحدد موقفًا ايجابيًا مسؤولاً من تراثها ، تغدو أكثر من ملحة ، تلك هي ضرورة وضع الخطط العملية المحددة ، والبرامج العلمية المدروسة ، وبعث روح النشاط الصابر الدؤوب ، للعمل المنسَّق في ميادين الكشف والبحث والتنقيب ، فيما أبقاه لنا الزمن من تراثنا : وثائق ومخطوطات وعمائر وخطوط ونقوش ومسكوكات ..

صحيح أن جهودًا ضخمة قد بذلت في هذه الميادين طيلة القرنين الاخيرين ، في الغرب والشرق على السواء ، الاّ أن ما تم انجازه لا يزال أقل مما لم ينجز بعد ، وحتى هذا الذي كُشف وحقق ودرس فانه بحاجة إلى اعادة درس وتحقيق ، على ضوء الحقائق الجديدة المتمخضة دومًا ،

والمناهج العلمية التي تزداد يومًا بعد يوم دقة وموضوعية .

أن عقدة الذنب ، بسبب ضياع معظم تراثنا ، والبدء بدرسه وتحقيقه على يد مؤرخين مستشرقين غرباء عنا ، يجب أن تدفعنا – في حدودها المعقولة – إلى مضاعفة الجهود وبذل كل ما يمكن بذله للكشف عن الاسس الغابرة في تراثنا ، مما يعد ضرورة لازمة لدراسة هذا التراث وتحليله وتخمين أبعاده الحقيقية .

أن اليد التي تتحرك باخلاص لتحقيق مخطوط وبعثه من الظلمات .. والعين التي تدور بحرص لقراءة لوحة خطية قبل ان يطمس عليها ، والمعاول التي تنزل برفق في اعماق الأرض للكشف عن أسس عمارة قبل أن تستحيل ترابًا من التراب ، لهي الايدي والاعين والمعاول التي ندين لها بالكثير الكثير ، ونحن نقرأ هذه الحقائق المحزنة عن تراثنا الذي ضاع «ان تاريخنا – يقول جلال كشك – قد دمر على يد الغزاة ، وبفعل عناصر التخلف والانهيار .. ان ذلك التراث الذي ألقاه التتار في دجلة ، لا شك أن مداده الأسود قد حمل معه إلى الخليج جانبًا من المعرفة ، وجانبًا من تراثنا ضاع والى الابد .. وتلك المكتبات التي احرقها الغزو الصليبي لمدن الشام في طرابلس والمعرة والقدس وغزة وعسقلان ، حتى قدر بعض المؤرخين أن الصليبيين أحرقوا في مدينة طرابلس وحدها ثلاثة ملايين مجلد .. لا شك أن نسبة خطيرة منها تضمنت حقائق من تراثنا ما يمكننا القول بأنه قد ضاع والى الابد .. وفي الاندلس ، أحرق في يوم واحد في ميدان غرناطة ، ما يقدره بعض المؤرخين بمليون كتاب . ولم يقتصر التدمير على الغزو الخارجي ، بل ان عوامل الانهيار كما قلنا قد سلطت الاحقاد على تراث الاسلاف العظام .. في احدى الفتن الداخلية نهب الثائرون مكتبة القاهرة ، فمزقوا الكتب واستخدموا جلودها نعالاً لهم ، وألقي عدد منها في النيل ، وحمل بعضها إلى شتى الاقطار ، وما بقي

منها سفت عليه الرياح وتراكمت عليه الرمال ، فتحول إلى تلال عرفت - كما يقول الدكتور مصطفى السباعي - باسم تلال الكتب . فنحن لا نذهب بعيدًا إن قلنا إنه قد ضاع وسط هذه النكبات والمحن الكثير من حقائق حضارتنا ومنجزاتها .. إنها - كما وصفها فردريك أنكلز في كتابه (جدلية الطبيعة) - «مبعثرة وضاع معظمها» .. ويمضي كشك إلى القول : «.. ثم كانت المرحلة الثانية مرحلة نهب التراث الإسلامي ، ونقله إلى مكتبات أوربا . إن النسخة الاصلية للعديد من كتب تراثنا الإسلامي توجد الآن في مكتبات الفاتيكان والاديرة ، أو المتاحف والمكتبات العامة في أوربا وأمريكا .. في ليل الانهيار والتخلف انقطعت الصلة بين الاسلاف العظام والحفدة العجزة ، فجهل هؤلاء قيمة ما تركه لهم أسلافهم .. ونظروا إلى مخطوطات ابن سينا وابن رشد ككتب للسحر والهرطقة ، أو قل انهم عجزوا عن الانتفاع بها ، فتركت نهبًا مشاعًا لرسل الغرب .. وليس إلا أخيرًا ، وعندما استقر الامر للحضارة الغربية وتأكد انتصارها على العالم الإسلامي ، عندئذ بدأ المستشرقون يعيدون نشر كتب تراثنا ويقومون بتحقيقها ، واصبحنا نتعرف على تاريخ أسلافنا من كتابات هؤلاء المستشرقين ، على تعصبهم وعجزهم عن فهم روح حضارتنا» [١٢] .

ويحدثنا محمد عبد الله عنان عن بعض ما شهدته الاندلس من تدمير لتراثنا فيقول : «أنه لم تمض أعوام قلائل على سقوط غرناطة (١٤٩٢) حتى ارتكبت اسبانيا النصرانية جريمتها الشائنة بتدمير تراث التفكير الإسلامي . في سنة ١٤٩٩ امر الكردينال خمنيس ، مطران طليطلة ، بجمع جميع الكتب والآثار العربية من سكان غرناطة وارباضها ، وتنظيمها

١٢) طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية صفحة ٦ - ٨ وأنظر د . مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ، فصل المكتبات : الخاصة والعامة) .

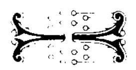
اكداسًا في ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف وآلاف مؤلفة من كتب الآداب والعلوم ، واحتفل باحراقها (بعمل من أعمال الايمان) ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب وهبت لجامعة الكالا (القلعة) . وهلك في تلك المحنة معظم تراث الأندلس الفكري . وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة ، فقدرها بعضهم بأكثر من مليون ، ولكن كوندي قدرها بثمانين ألفًا ، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول ، لان المكتبة الأموية الشهيرة في قرطبة لم تزد – طبقًا لأصح الروايات – على ستمائة ألف مجلد ، وقد بُددت هذه المجموعة الكبيرة ايام ثورات البربر ، ولم يجتمع في غرناطة مجموعة بهذه الضخامة .. ولكنها كانت وهي عاصمة الإسلام في الاندلس تحتوي أنفس الاثار العربية الاندلسية» .

ويمضي عنان إلى القول : «بأن المجموعة العربية في الاسكوريال – قريبًا من مدريد – بلغت في أوائل القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد ، ولبثت هذه الآلاف العشرة من المخطوطات الاندلسية والمغربية في قصر الاسكوريال زهاء نصف قرن ، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها في اسبانيا . ولكن محنة جديدة اصابت هذه البقية الباقية من تراث الاندلس الفكري . ففي سنة ١٦٧١ شبت النار في الاسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه أكثر من الفين هي التي تثوي اليوم في أقبية الاسكوريال»[١٣] .

التعويض !! ذلك هو الشعار الذي يجب أن يتشبث به مثقفونا ومؤسساتنا في ميادين احياء التراث وحمايته وتحقيقه ونشره .. ولن يكون ذلك بالعمل الفردي وحده ، ولكن بتضافر الجهود وتكامل الطاقات

١٣) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام . ط ٤ صفحة ٣٢٦ – ٣٢٩ .

والامكانيات والخبرات . إنه عصر التخصص والاحصاء والبرمجة والتخطيط والعقل الالكتروني ، وقد آن لنا أن نفيد من معطياته في نشاطاتنا العلمية ومناهج بحثنا .



دراسة مقارنة
في سياسات يزيد بن عبد الملك
(١٠٢ - ١٠٥ هـ)



١

ان القيام بمقارنة تاريخية بين رجلين كعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك تبدو على درجة من الأهمية لأكثر من سبب ؛ فهناك الارتباط الزمني حيث اعقب احدهما الآخر ، وهناك ذلك القدر الكبير من الافعال وردود الافعال المتبادلة بين الرجلين .. التغاير العميق في تركيب الشخصيتين ، وتناقض رؤاهما ومواقفهما بالتالي .. الامر الذي يبلغ اقصى حدته في العبارة التي اوردها ابن الاثير : «عمد يزيد الى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه»[١] ، والتي يجيُ هذا البحث لكي (يختبر) مدى صحتها ..

وهناك ايضًا قرب عصر الرجلين من مرحلة سقوط الدولة الاموية ، والتكهنات المتناقضة التي حملها المؤرخون المعاصرون في الشرق والغرب هذا الخليفة أو ذاك ، باعتبار سياساته احدى عوامل ضعف الدولة ودمارها .

وفضلاً عن هذا وذاك فان الدراسة التي حللتُ بها اجراءات عمر تحت عنوان (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) ، والتي تضمنت قدرًا من النقد والتقييم لسياسات الخلفاء الذين سبقوه ، تقودني بالضرورة الى تفحص اعمال سياسات الرجل الذي أعقبه في قيادة الدولة الاموية : يزيد بن عبد الملك .

---

١) الكامل في التاريخ ٦٧/٥ (دار صادر- بيروت ١٩٦٥) .

هل ادرك يزيد أبعاد مهمته التاريخية في أعقاب ذلك التغيير الشامل الذي احدثه سلفه عمر ، والذي تبيّن باستقراء الوقائع التاريخية ، كم هو ضروري ليس فقط لتنفيذ عقائديات الإسلام في واقع الحياة ، وتحويل مجراها على هدى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وانما الديمومة واستمرار التجربة الأموية نفسها ؟ هل كان يزيد يملك رؤية عمل شاملة (إستراتيجية) ، تنبثق عن فهم كلي عميق للموقف التاريخي ومقتضياته ؟ هل ادرك ان مهمتة المركزية كانت تحتم عليه حماية التغييرات التي احدثها سلفه . وتعميقها وتوسيعها من أجل تمكين الدولة الأموية من مواصلة طريقها ؟

كلا .. ذلك ما تقودنا اليه الوقائع ، ليس لأن يزيد كان يحمل رغبة عشوائية ، بل حتى مرسومة ومبرمجة . لوقف اجراءات عمر أو هدمها ، كما قد توحي به عبارة ابن الاثير التي تتضمن قدرًا من المبالغة وتقود إلى نوعٍ من سوء الفهم .. انما لأن يزيد – باختصار – ما كان يملك استشرافًا عقائديًا تاريخيًا .. استراتيجية عمل شامل تنبثق عن متطلبات العصر وتعمل على هدى عقيدة بعيدة الاغوار ممتدة الآفاق .

فيزيد . كما سنرى ، كان يطمح احيانًا للتشبه بعمر ، وكان احيانًا اخرى يدفع بجيوشه في البر والبحر ، لتحقيق مزيد من الانتصارات للدولة الاموية ، وكان احيانًا ثالثة يلوي رأسه للمعارضة ويحترمها ، ويستجيب لبعض مطالبها . ولكنه . جنبًا الى جنب مع هذا . كان يّهدم في اجراءات عمر ، ويبحر باتجاه مضاد حتى ليكاد يبلغ الطرف النقيض الاخر ، ليس كرهًا لسلفه . ولا رغبة في الاتيان على معطياته ومحو دوره التاريخي . ولكن لأن يزيد كان يعاني من تسطّح ايمانه وضعفه ، ومن قصور الرؤية العقائدية – اذا صح التعبير – وتجزؤها .. كان – باختصار – في منزلة ادنى بكثير مما كان يتطلبه عصره ! !

فنحن نجد ان الرجال الكبار الذين لعبوا دورًا تاريخيًا واسعًا ، كان يعقبهم – حينًا – رجال على مستواهم في الرؤية وفي القدرة على التنفيذ التاريخي . فيواصلون الطريق ، ويمكنون التجربة ، ليس فقط من ان تضرب بجذورها في الأرض ، وانما من ان تزداد عطاءً واتساعًا وإثمارًا .. وكان يعقبهم – حينًا آخر – رجال دون المستوى المطلوب رؤية وقدرة على التنفيذ ، فتتعرض التجربة للانتكاس ، وربما للدمار . وليس شرطًا ان يكون هؤلاء الذين هم اصغر من متطلبات العصر ، ممن يمارسون هدم معطيات أسلافهم ، يكفيهم ان يجمِّدوا تدفق الحركة العملاقة التي أحدثها اسلافهم في التاريخ .. يكفيهم ان يعاملوها بنوع من التسيب والتفلت والاهمال واللاإكتراث ، لكي ما تلبث ان تتعرض للانتكاس .

ومن ثم فان رجلاً كيزيد كان سيعرض تجربة عمر الانقلابية للانتكاس حتى ولو لم يمارس ازاءها ذلك التخريب الواسع .. فيكفي انه اصغر حجمًا من عمر بكثير ، وانه يمارس نوعًا من اللاإكتراث ازاء معطياته .. لكي تتحقق النتيجة نفسها ..

ويبدو أن ابن الاثير ، وغيره كثيرون ، اصيبوا بخيبة امل من جراء ما آلت اليه التجربة الكبيرة التي نفذها عمر بن عبد العزيز فطرح مقولته تلك من ان يزيد عمد إلى كل ما صنعه عمر ، مما لم يوافق هواه ، فردّه .. بينما سنجد ان يزيد لم يعمد إلى رد كل ما صنعه عمر ، مما لم يوافق هواه ، وانما إلى بعضه فحسب .. والذي قاد إلى الانتكاس ليس مجرد هدم هذا الجانب أو ذاك ، وانما هو فقدان الرؤية وضياع الاستراتيجية .. ولكن لما كانت النتيجة هي الانتكاس ، توهم ابن الاثير ومن تابعه فتصوروا ان يزيدًا عمد إلى كل ما صنعه عمر فرده .. وليس ذاك ! !

* * *

٢

لنبدأ بسياساته الداخلية والخارجية ازاء القوىٰ والجماعات التي كانت تتواجد داخل الدولة أو علىٰ حدودها .

كان عمر بن عبد العزيز ، في الداخل ، يسعى إلى تجميع الطاقات ووقف نزيف الدم المسلم وكسب قوى المعارضة باعتماد الحوار السلمي بدلاً من القمع المسلح ، وتوجيه موارد الدولة للاعمار والانماء ، وتنفيذ برامج الضمان الاجتماعي بدلاً من اهدارها في ملاحقة الثورات الداخلية المسلحة ، أو الاعمال العسكرية الاستعراضية في الخارج . وكان يتحرك علىٰ ضوء ضرورة تكوين قاعدة بشرية موحدة تسند الدولة وترفدها وتحميها ؛ ويرفض بالتالي أي تمزق قد تتعرض له هذه القاعدة سواء باسم العصبية القبلية أو الحزبية أو أي اسم آخر .

في الخارج سعىٰ عمر إلىٰ كسب الشعوب المجاورة واستمالة حكامها بفتح باب الكلمة والاقناع ، وبتقديم اغراءات مالية ، وبوقف الاستفزازات الحربية التي قد تكون نتائجها – بحساب الخسائر والارباح – ليست في مصلحة الدولة ، فكيف بحساب العقائد والافكار؟ وهو الذي طرح شعار : «ان الله بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً» ؟

وليس هذا – بطبيعة الحال – مجال استعراض سياسات عمر في الداخل والخارج لأن هذا يقودنا إلى تكرار ما سبق وان عرضنا له بالتفصيل في كتاب (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) ، ويكفي – لغرض المقارنة فحسب – ان نطرح بايجاز بالغ الخطوط العريضة لهذه السياسات .

ما الذي فعله يزيد ؟

ما من ريب في أكثر اجراءاته تضاداً مع سياسة سلفه عمر ، تلك التي تتعلق بموقفه من أزمة الامويين المستعصية : العصبية القبلية .

لعل من سوء حظه ان تنفجر – لاول عهده بالخلافة – ثورة يزيد ابن المهلب (اليمانية) في العراق ، وان تدفعه عبر ايام الصراع القاسي الطويل ، وبعده ، إلى سلسلة من ردود الافعال تنتهي به إلى ان يعلن وقوفه صراحة الى جانب القيسيين ، ويمنحهم مقدرات الدولة سلماً وحربًا ، رغم ان اليمانية كانوا اغلب سكان الشام قاعدة الامويين ، وبهذا تعود القاعدة العربية ، التي سهر عمر على حماية وحدتها ، الى التمزق ثانية بين عرب شمال وعرب جنوب ، وتعود القيادة الاموية الى تعميق الانشقاق بمحاباة هذه الكتلة أو تلك .. ليس هذا فحسب ، بل ان يزيدًا اتخذ اجراءً خطيرًا بهذا الصدد وذلك بإنقاصه عطاء اليمانية وجعله نصف عطاء المضرية مما ادى الى حدوث اضطراب في الشام نفسه[٢] .

ومما زاد من قوة ميل يزيد الى القيسية وبغضه اليمانية ، علاقات المصاهرة التي ربطته أكثر بقيس ، تلك العلاقات التي كان لها ابلغ الأثر في انتماءات العديد من الخلفاء والقادة الامويين الذين سبقوا يزيدًا أو أعقبوه .. وها هو ذا يواصل السير على نفس الطريق .

فلقد كانت ليزيد صلات وثيقة بالحجاج (رجل قيس) ، وهو تزوج ابنة محمد بن يوسف أخو الحجاج نفسه فانجبت له في حياة الحجاج ابنه الوليد الذي صار خليفة فيما بعد ، وقد اسمت ابنها الاول الذي توفي ، على اسم خاله : الحجاج . ومن جراء ذلك كان يزيد بن عبد الملك يبغض يزيد بن المهلب منذ عهد ما قبل خلافته ، وكان هذا واليًا على العراق ، وقد عذب آل الحجاج ، وكان من المستظلين بظل سليمان ، فلما تولى يزيد الخلافة لم يتوقع ابن المهلب منه خيرًا[٣] .

---

٢) انظر : عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة ٢٧٢/٢ – ٢٧٣ ، الطبعة الثالثة (مكتبة الجامعة العربية ، بيروت – ١٩٦٦)

٣) يوليوس فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، صفحة ٣٠٢ ، ترجمة محمد عبد الهادي ابي ريدة (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة – ١٩٦٨) .

وليس هنا مجال الحديث عن ثورة ابن المهلب فلقد اشبعها القدماء والمحدثون بحثاً [٤] ، وانما بصدد الاشارة إلى ابعادها القبلية وردود الافعال التي رافقتها . يشير ابن الاثير إلى ان الخليفة لدى سماعه بهرب يزيد بن المهلب أمر عامله على البصرة ، عدي بن ارطأة ، ان يأخذ من بالبصرة من آل المهلب ، فأخذهم وحبسهم . وسرعان ما اتضحت الابعاد القبلية للثورة ، اذ وقفت تميم وقيس واهل الشام إلى جانب عدي ، ولكن ابن المهلب تمكن ، في البداية ، من تحقيق عدة انتصارات ضدهم . والقى عبد الحميد بن عبد الرحمن ، عامل الكوفة ، القبض على خالد بن يزيد بن المهلب وحمال بن زهر ، رغم انهما لم يكونا في شيء من الامر ، واوثقهما وسيرهما إلى الشام فحبسهما الخليفة وظلا في السجن حتى هلكا فيه [٥] . واستمر التشنج يحكم تصرفات الخليفة حتى بعد فشل الثورة ، فكتب الى أحد قادته في العراق يأمره بضرب رقاب الاسرى ، فكان المسؤول عن شرطته يخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين ، إلى ان جاءه كتاب مسلمة بن عبد الملك يأمره بترك قتل الاسرى [٦] ، ولكنه - من جهة اخرى - بعث يطاردهم شرقاً حتى كاد ان يأتي عليهم [٧] ، وحمل بقية الاسرى إلى يزيد وكانوا ثلاثة عشر رجلاً فأمر بقتلهم [٨] .

ويذكر خليفة بن خياط ان اسرى المهالبة لما دخلوا على يزيد قام

---

٤) وبخاصة الطبري وابن الاثير وفلهاوزن .

٥) محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٨٥/٦ . تحقيق ابي الفضل ابراهيم ، (دار المعارف . القاهرة - ١٩٦٤ - ١٩٦٦) . ابن الاثير : الكامل ٧١/٥ - ٧٥ .

٦) الطبري : تاريخ ٥٩٨/٦ - ٥٩٩ . ابن الأثير : الكامل ٨٤/٥ - ٨٥ .

٧) الطبري : تاريخ ٦٠٠/٦ - ٦٠٢ . ابن الاثير : الكامل ٨٦/٥ . علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . ٢٠٠/٣ - ٢٠١ (دار الاندلس - بيروت) .

٨) الطبري : تاريخ ٦٠٢/٦ - ٦٠٣ . ابن الأثير : الكامل ٨٧/٥ .

الشاعر المعروف كثير عزة فالقى ابياتًا طلب فيها العفو من يزيد :

فعفوًا امير المؤمنين وحسبة فما تحتسب من صالح لك يكتب ... الخ

فما كان جواب يزيد الاّ ان قال : لا كانت بك الرحم ، لا سبيل إلى ذلك . والتفت إلى اصحابه قائلاً : من كانت له ، قبل ، إلى المهلب دم فليقم . ودفعهم اليهم حتى قتل نحوًا من ثمانية[9] . حتى نساء المهالبة لم ينجين من العقاب فقد سيق إلى دمشق خمسون منهن حبسن هناك[10] .

وفي الطرف الآخر حاول يزيد بن المهلب – عبثًا – ان يتجاوز مواقع العصبية . وان يجعل الهدف الديني – الاجتماعي – الشامل منطلقاً لثورته ومطمحًا لها في الوقت نفسه . «دخل رجل من الازد ، جمع جموعًا ، فبايعه ، فكانت بيعة يزيد : تبايعون على كتاب، الله وسنة نبيه ﷺ ، وعلى الآتطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا . ولا يعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج . فمن بايعنا على ذلك قبلنا منه ، ومن ابى جاهدناه»[11] . ويروى ان ابن المهلب خلع الخليفة ودعا الى الرضا من بني هاشم أو الشورى في اختيار الخليفة ، فكانت بيعته على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[12] . ونقرأ في الطبري ، وابن الاثير . هذا الحوار الذي سبق الاشتباك والذي دار بين ابن المهلب وأحد كبار مؤيديه ... قال السميدع لابن المهلب : إنا قد دعوناهم الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وقد زعموا انهم قبلوا هذا منا فليس لنا أن نمكر ولا أن نغدر حتى يردوا علينا ما زعموا انهم قابلوه منا .. فقال

---

٩) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ١/٣٣٤ . تحقيق اكرم ضياء العمري (مطبعة الاداب . النجف الاشرف – ١٩٦٧) .

١٠) أحمد بن ابي يعقوب اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٣/٥٥ (المكتبة الحيدرية . النجف – ١٩٦٤) .

١١) الطبري : تاريخ ٦/٥٩٢ .

١٢) التاريخ السياسي ٢/٢٧٥ .

يزيد : ويحكم !! أتصدقون بني أمية انهم يعملون بالكتاب والسنة وقد ضيعوا ذلك منذ كانوا؟ يخادعونكم ليمكروا بكم فلا يسبقوكم اليه .. قالوا : لا نفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا انهم قابلوه منا [١٣] .

ونستطيع من خلال الحوار ، ان نخمن ، كيف ان ابن المهلب لم يكن مخلصاً كل الاخلاص لهدفه الديني ، وانما اراد من اطروحاته في هذا الصدد ان يكسب مزيدًا من الانصار وان يغطي على الوجه القبلي الصارم لثورته . وقد كسب بذلك الاتباع فعلاً ، والحوار نفسه يبين لنا كيف ان هؤلاء الاتباع كانوا مخلصين الى حد كبير في التشبث بالهدف الديني الاجتماعي للثورة التي انتموا اليها .

وهذا يقودنا الى ذلك (الصوت) الديني الذي انطلق من حنجرة كبير زعماء الفكر الإسلامي في البصرة يومذاك : الحسن البصري .. منددًا بهذه الثورة ، داعيًا الى ارفضاض الناس عنها ووقف تأييدها ، كاشفًا عن ابعادها الحقيقية . ونحن نشير هنا الى واحد فحسب من مواقف الحسن البصري ازاء ثورة ابن المهلب :

جمع المهلب اهل البصرة وقام خطيبًا فيهم وأخبرهم انه يدعوهم الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وحثهم على الجهاد ، وزعم ان جهاد اهل الشام اعظم ثوابًا من جهاد الترك والديلم (الوثنية) . وكان الحسن البصري يسمع فرفع صوته قائلاً : والله لقد رأيناك واليًا ومولى عليك ، فما ينبغي لك ذلك . فما كان من اصحاب ابن المهلب الاّ ان وثبوا عليه وارغموه على السكوت .. ولدى مغادرته المكان مر بحشود من الناس نصبوا الرايات وراحوا ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون : تدعونا الى سنة العمرَين . فقال الحسن : كان يزيد (ابن المهلب) بالامس يضرب

---

١٣) الطبري : تاريخ ٥٩٣/٦ ، ابن الاثير : الكامل ٨٠/٥ .

اعناق هؤلاء الذين ترون ، ثم يرسلها إلى بني مروان يريد رضاهم ، فلما غضب قال : إني قد خالفتهم فخالفوهم .. ان من سنة العمرين ان يوضع في رجله قيد ثم يرد الى محبسه . فقال قوم من اصحابه : لكأنك راضٍ عن اهل الشام؟ أجاب : قبحّهم الله ، اليس هم الذين احلوا حرم رسول الله ﷺ .. لا ينتهون عن انتهاك حرمة ، ثم خرجوا الى بيت الله الحرام فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين احجارها واستارها [١٤] .

فها هو موقف الحسن البصري ، الذي يتميز بالشجاعة والصراحة والموضوعية ، يلقي مزيدًا من الضوء على الدوافع الحقيقية لثورة ابن المهلب ، ذلك الزعيم القبلي الذي حبسه عمر بن عبد العزيز ، ونفاه ، لتلاعبه باموال الدولة .. انها العصبية والرغبة في الانتقام ، وليست دعوته الى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام وسيرة الشيخين رضي الله عنهما الاّ محاولة ذكية منه لكسب شعبية أكبر والتغطية على الدوافع الحقيقية لحركته .

ومهما يكن من امر فان ردود الافعال القبلية استمرت ، زمنًا ، بعد سحق ثورة ابن المهلب ، وامتدت في المكان ايضًا حتى بلغت خراسان شرقًا . ذلك ان الخليفة يزيد ، بعد ان استدعى اليه مسلمة بن عبد الملك ، امير الامويين على العراق وولايات المشرق ، عين مكانه عمر بن هبيرة الفزاري الذي كان في عهد عمر بن عبد العزيز واليًا على الجزيرة ، وكان قيسيًا من أنقى دم في قيس ، وكانت ادارته متمشية مع ذلك . ولقد لقيت قبائل الازد واليمن بوجه عام ، خصوصًا في خراسان على يديه عنتًا ، فأُبعدوا وأهينوا ، وعذب الموالون للمهالبة أو المتهمون بذلك وأخذت

---

١٤) الطبري : تاريخ ٥٨٧/٦ – ٥٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ٧٥/٥ – ٧٦ وانظر عن البعد الديني لحركة ابن المهلب : فلهاوزن : الدولة العربية صفحة ٣٠٥ – ٣٠٦ وهوامشها .

اموالهم . ولكن كانت قيس هي التي انتصرت واستطاعت ان تشعر بانها هي السيدة في المشرق كله ، وهي وان كانت متنازعة فيما بينها فإنها اخلصت في الاتحاد امام القبائل الاخرى . لقد بلغ الامر من الانكشاف ان اصبح معلقاً على ألسنة الشعراء .. وها هو الفرزدق يقول متهكماً ، بعد ان عين ابن هبيرة الفزاري على العراق والمشرق :

ولقد علمتَ لئن فزارة أمّرت ان سوف تطمع في الامارة اشجع !!

وكانت فزارة هي رأس غطفان قيس وعرب الشمال وكانت اشجع ذنبهم[15] . وفي عهد عمر ما كان بمقدور الفرزدق ، ولا غيره ، ان يترنم بابيات كهذه .

قد يقال بان يزيد بن عبد الملك كان مضطرًا ازاء عنف الثورة التي قادها المهالبة اليمانيو الاصل الى ان يرمي بثقله على القوى القيسية ، وان يزداد مركز الاخيرة . بسبب جلبها الانصار للامويين . مع ملاحظة ان قضاعة اليمانية لعبت دورًا أساسيًا في الانتصار على المهالبة وان الكلبيين هم الذين طاردوا هؤلاء واستأصلوا شأفتهم .

ولكن بالتمعن في الامر يبدو ان المسألة ليست بهذه الصيغة المقفلة ، وليس الارتماء في احضان كتلة قبلية من اجل مجابهة كتلة اخرى ، طريقًا مسدودًا ليس الى الخروج منه من سبيل .. ابدًا ، فمن جهة ، ضرب لنا عمر بن عبد العزيز مثلاً على الارتفاع فوق مستوى الصراعات القبلية ، وتحييد الجهاز الحكومي ، وتفتيت مراكز القوى القبلية . وهو وان كان قد امتص كل ما من شأنه ان يقود المعارضة الى حركة مسلحة واسعة النطاق ، فانه — حتى ولو افترضنا وقوع حادثة كهذه - فيقينًا ما كان الخليفة ليتراجع امامها ويميل بثقله صوب الكتلة المعارضة قبليًا . كان

---

١٥) ڤلهاوزن : الدولة العربية صفحة ٣١٠ والهامش رقم ٣ من الصفحة نفسها .

قد جعل الجيش ، اداة الدولة الضاربة ، قوة متماسكة موحدة ، تمارس مهماتها الفنية الصرفة بعيدًا عن التحزبات القبلية التي رفضها الخليفة كلية . ومن خلال هذه الاداة المجردة عن الهوى البعيدة عن الميل ، كان بمقدور عمر ، أو أي خليفة يمكن ان يتابع سياسته ، ان يضرب معارضيه دون ان يميل الى هذه الكتلة أو تلك ، ودون ان يعطيها الاشارة لكي تستغل انتصارها وتمد نفوذها . وتشكل مركز قوة يهدد وحدة الدولة ووحدة قواعدها العربية . كما حدث في كثير من الفترات التي نكب فيها التاريخ الاموي بضياع هذه الوحدة من جراء عدم قدرة بعض الخلفاء على تحييد اجهزة الدولة وبخاصة الجيش .

وحتى ولو افترضنا بان خليفة كعمر وجد نفسه مضطرًا ازاء ثورة يمانية ، كتلك التي قادها المهالبة ، للاعتماد بالمقابل على القيسيين ، وانتصر في نهاية الامر بأذرع هؤلاء . فانه كان يعرف كيف يقف في اعقاب الانتصار عند نقطة التوازن . ويفطم القيسيين المنتصرين عن قطف ثمار انتصارهم لانفسهم لا للدولة وأمنها ووحدتها ، وسيعرف كذلك كيف يكبح جماح الغضب . وهو الخليفة الاب ذو الصدر الواسع والقلب الرحيم . فلا يصب جام نقمته على المنهزمين قتلاً وأسرًا وتشريدًا ومحاولة لبيع الذراري في الأسواق . كما حدث في العراق والمشرق ازاء المهالبة حيث صُفّوا تصفية جسدية رهيبة : رجالاً وشيوخًا وصبيانًا . وحيث اقسم مسلمة ان يبيع ذراريهم مخالفاً بذلك اداب الإسلام – كما يشير فلهاوزن – لولا ان الجراح الحكمي انقذ ما تقضي به هذه الآداب واقنعه بالعدول عن هذا الاسلوب . فاكتفى مسلمة بارسال تسعة فتية احداث إلى يزيد لكي يضرب اعناقهم .

ان الخليفة الذي يمثل قمة الدولة وارادتها النافذة يجب الا يمضي مع عواطفه كشخص ، أو حتى قائد أو والٍ منتصر .. انه يجب ان يرتفع

فوق هذا كله ، وانه مـا دام قد انتصر وابعد عـن دولته شبح الهزيمة والانكسار ، فان له ان يمسح بيده على جراح المنهزمين ما دامت قواهم قد تفتتت وما داموا قد اصبحوا في حال لا يشكلون معها ايما خطر أو تهديد حقيقي للوجود الأموي .. الم نر كيف ان الخليفة عبد الملك بن مروان بذل محاولات دائبة لمصالحة القيسيين والمسح على جروحهم التي اثخنهم بها اليمانيون في معركة مرج راهط زمن ابيه مروان بن الحكم ، وكيف انه بمصالحة هؤلاء تمكن من حماية ظهره والتحرك لمجابهة مشاكله في العراق وهو مطمئن الى عرب الشمال : قيسيهم ويمانيهم ؟

ليس اذن رد الفعل القبلي هذا حتمية مقفلة وطريقاً مسدوداً ، لكن يزيداً اختار ان يمارس سياسات بعض اسلافه وبعض اخلافه ففتحوا على انفسهم الثغرة التي منها الخراب فجعل عاليها سافلها . ونظرة سريعة إلى ما شهدته الساحة الخراسانية ايام اطل العباسيون برؤوسهم من ارض خراسان نفسها ، ترينا حجم النتائج التي يمكن ان تتمخض عن هذه السياسة أو تلك تجاه المسألة القبلية .

يقول فلهاوزن بصدد تعليقه على سياسات يزيد القبلية : «كان تخوفه وارتيابه من مطامحهم في المشرق لها ما يبررهـا ، وكانت ثورتهم سبباً في انفجار بغضه القديم لهم ، وكان افناء جميع افراد ذلك البيت القوي النابه ، وهي فعلة لم يُسمع بمثلها في طول تاريخ الدولة الاموية ، كان بمثابة إعلان حالة الحرب على قبائل اليمن . وكانت نتيجة ذلك ان حكومة بني أمية انقلبت حزباً يحكم باسم قيس . وكان الخليفة هو الذي يحمل الوزر في ذلك ، وقد عين ابن هبيرة اميراً على العراق وتركه في ميدان إمرته الواسع يفعل ما يشاء ، ولم يكن من شيء قد بعثه على ذلك الاّ مجرد الرغبة في الانتقام ، وكان بعيداً عن ان يكون رجلاً سياسيًا يدرك

مصالح الدولة ، ولم يكن يدرك مدى النتائج السياسية لاعماله»[16] .

لقد كان عمر بن عبد العزيز يكره ، هو الآخر ، يزيد بن المهلب ، وقال عنه انه ينتمي الى اسرة جبابرة لذا فهو يبغضه ، وكأنه يشير بذلك جبروت هذه الاسرة واحتمالات تشكيلها مركز ثقل يهدد وحدة الدولة الاموية وارادة سلطتها العليا . لكنه لم يتعامل مع رأس هذا المركز باعتباره يمثل كتلة قبلية من أزد اليمن ، ولم يخطر له هذا على بال ، وانما تعامل معه باعتباره سارقًا لاموال الدولة وقوت شعبها ، وتجاوز – بقوة شخصيته والتفاف ابناء امته حوله – كل رد فعل قد يتمخض عن الضغط على ابن المهلب وارغامه على تسليم الاموال ، رغم اعتقاله ونفيه فيما بعد ، وهو في كل اجراءاته تلك يتابع تنفيذ المعادلة بشكلها الصحيح : الحكومة التي يتوجب عليها ان تحمي اموال الامة من سارقي اموالها .. وليس في المسألة بعد هذا أي بعد عصبي ، ولو أطلّت العصبية من خلاله ، من حيث لا يريد الخليفة ان تطل ، لعرف كيف يسحقها ! !

٣ وماذا عن القوى الاخرى في المجتمع ؟

في اعقاب وفاة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ احب عبد الحميد بن عبد الرحمن ، امير الكوفة ، ان ينال الحظوة لدى الخليفة ، يزيد ، فكتب الى محمد بن جرير يأمره بقتال شوذب ، الزعيم الخارجي المسمى بسطام ، قبل ان يرجع رسولاه الى عمر حيث كان قد استدعاهما لفتح باب الحوار السلمي معهما وصولاً إلى الحق والتزامًا به ، بعيدًا عن رفع السلاح وسفك الدماء ، وقبل ان يعلم الخوارج – كذلك – بوفاة عمر .. فلما رأوا القائد الاموي يستعد للحرب ارسل اليه شوذب يقول :

---

١٦) الدولة العربية صفحة ٣١٢ .

ما اعجلكم قبل انقضاء المدة ؟ اليس قد تواعدنا إلى ان يرجع الرسولان ؟ فارسل القائد الاموي محمد بن جرير : انه لا يسعنا ترككم على هذه الحال . فقال الخوارج : ما فعل هؤلاء هذا الاّ وقد مات الرجل الصالح . وبدأ القتال الذي ما كان اشتعاله ضربة لازب على الاطلاق ، واصيب نفر من الخوارج وقتل الكثير من اهل الكوفة ، وانتهى الامر بهزيمتهم وجرح قائدهم ابن جرير ، وتبعهم الخوارج حتى مشارف الكوفة ، ثم آثروا الانسحاب الى اماكنهم في الجزيرة . واقام شوذب ينتظر صاحبيه فقدما عليه واخبراه بموت عمر . وبعد ايام وصلهم قائد اموي آخر على رأس الفين من الرجال واخبرهم ان الخليفة الجديد لا يفارقهم على ما فارقهم عليه عمر ، فلعنوه ولعنوا يزيدًا معه وشنوا عليه هجومًا انتهى بقتله وعدد من اصحابه بينما تراجع الاخرون باتجاه الكوفة ، فوجه يزيد جيشًا ثالثاً ورابعًا لم يكن مصيرهما بأحسن من مصير الجيشين اللذين سبقاهما .. واقام الخوارج بمكامنهم حتى دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة ، فشكا اليه اهلها مكانة شوذب وخوفوه منه فارسل اليه مسلمة سعيد بن الحرشي ، وكان فارسًا مقاتلاً ، على رأس عشرة الاف مقاتل ، فلما رأى شوذب واصحابه ما لا قبل لهم به قالوا : من كان يريد الشهادة فقد جاءته ومن كان يريد الدنيا فقد ذهب ، فكسروا أغماد سيوفهم وحملوا على خصمهم فكشفوه واصحابه مرارًا ، حتى خاف القائد الاموي الفضيحة فوبخ اصحابه وقال : أمن هذه الشرذمة لا أب لكم تفرون ؟ يا أهل الشام يومًا كأيامكم . فحملوا عليهم . فطحنوهم طحنًا وقتلوا شوذبًا وعددًا كبيرًا من اصحابه ، فصفيت بذلك ثورتهم [١٧] .

وثمة ثورات مسلحة اخرى قادها الخوارج في اماكن مختلفة من الدولة ، وبخاصة في اليمامة والبحرين المطلتين على الخليج العربي حيث

١٧) الطبري : تاريخ ٥٧٥/٦ – ٥٧٧ ، ابن الاثير : الكامل ٦٨/٥ – ٧٠ .

قاد الخوارج هناك رجل يدعى مسعود العبدي ، كان قد غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة ، فتصدى له العامل الاموي وتمكن من قتله ، فقام بالامر من بعده هلال بن مدلج ، وبعد صدام عنيف بين الطرفين انتهى الامر بتصفية حركة الخوارج هناك[١٨] .

وفي الجزيرة اشتعلت ثورة خارجية اخرى عام ١٠٥ هـ قادها حروري يدعى عقفان لكنها لم توفق إلى كسب قدر كافٍ من الانصار ، فاراد الخليفة ان يوجه اليه جندًا لقتاله فقيل له : إنه إنْ قتل بهذه البلاد اتخذها الخوارج من بعده دار هجرة ، والرأي ان تبعث إلى كل رجل من اصحابه رجلاً من قومه يكلمه ويرده ، ففعل ذلك ، فما كان من اهليهم الاّ ان قالوا لهم : انا نخاف ان نؤخذ بكم !! وانتهى الامر بطلب الأمان ، وبقي عقفان وحده فبعث اليه يزيد اخاه الذي تمكن من استعطافه وردّه [١٩] . وهكذا انتهت هذه الثورة (المحدودة) دون ان تراق قطرة دم واحدة .

وكان بمقدور يزيد ان يتأسى بسياسات سلفه ازاء هذه الكتلة من المواطنين وان يعتمد معها الحوار السلمي المفتوح الذي يعتمد الكلمة والبرهان بدلاً من العنف واراقة الدماء ، ولكنه اختار الطريق التقليدي الثاني رغم ما يجره على الدولة ، من وراء الانتصارات التي يحققها ، من خسائر في الارواح والاموال ، ومما هو أكبر من ذلك .. تفتت وحدة المجتمع وتغلغل مشاعر الحقد والبغضاء في النفوس حيث تزيدها الهزائم عمقًا وانتشارًا .. وها هي اربعة جيوش اموية تهزم ويقتل عدد كبير من قادتها وجندها لا لشيء إلاّ لأن يزيدًا استجاب لرغبة والٍ له في العراق

---

١٨) ابن الاثير : الكامل ١١٨/٥ – ١١٩ .

١٩) المصدر السابق ١١٨/٥ . وانظر صفحة ١١٩ – ١٢٠ من المصدر نفسه حيث يشير ابن الاثير إلى ثورة خارجية أخرى ربما تكون تصفيتها قد تمت في عهد هشام بن عبد الملك .

احب ان يتقرب اليه بشن الحرب على اصحاب شوذب قبل ان يعرفوا مصير محادثاتهم مع الخليفة السابق عمر بن عبد العزيز.

ومهما يكن من أمر فان يزيدًا قد جرّب هو الاخر، مع تلك الثورة الصغيرة التي قادها عقفان، اسلوب الاقناع السلمي، والمرونة السياسية، وانتهى الامر بتصفية هذه الثورة دون اراقة قطرة من الدم. فليست اساليب عمر في هذا المجال هي وحدها التي لقيت نجاحًا.

والحق ان يزيد ما كان يركب رأسه دومًا ويمضي على الطريق المعوج الى غايته، فنحن نجده بين الحين والحين يعرب عن رغبة عميقة واستعداد مفتوح لتصحيح الخطأ وتداركه قبل فوات الاوان واحيانًا يتحرك - في الوقت المناسب - لإطفاء النار قبل اشتعالها، لكن مواقفه هذه لا تعدو ان تكون استثناء لقاعدة اوسع هي التي وصمتْ سياساته جميعًا.

في المدينة المنورة تلقى عامل يزيد، عبد الرحمن بن الضحاك، امرًا بعزله بعد ولاية دامت ثلاث سنين بسبب من محاولة هذا العامل ارغام فاطمة بنت الحسين بن علي على التزوج به ورفضها تهديداته، وارسالها الى الخليفة من يرفع شكواها اليه.

غضب يزيد غضبًا شديدًا، وجعل يضرب بخيزرانة في يده ويقول: لقد اجترأ ابن الضحاك. هل من رجل يسمعني صوته في العذاب؟! قيل له: عبد الواحد النضري. فكتب بيده اليه: قد وليتك المدينة فاهبط اليها واعزل عنها ابن الضحاك وغرّمه اربعين الف دينار، وعذبه حتى اسمع صوته وانا على فراشي!! فلما علم ابن الضحاك بذلك استجار بمسلمة بن عبد الملك فاجتمع هذا بالخليفة وتوسط لديه، ولكن يزيدًا أجاب: كل حاجة فهي لك الا ابن الضحاك، فوالله لا اعفيه ابدًا. وردّه الى المدينة حيث استلمه النضري فعذبه عذابًا شديدًا، وانتهى الامر

بالوالي السابق الى ان يلبس جبة من صوف ، يسأل الناس . وكان ابن الضحاك قد آذى الانصار جميعًا فهجاه الشعراء وذمّه الصالحون . فلما ولي النضري احسن السيرة فأحبوه ، وكان رجلًا خيرًا ، لا يقدم على فعل الاّ بعد استشارة كبار رجالات المدينة وبخاصة القاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر[20] .

فها هو ذا الخليفة يمتص باجرائه الحاسم هذا غضب العلويين والانصار ويوفر على الدولة جهدًا كبيرًا ، وعلى وحدة المجتمع شرخًا محتملاً .. وقريب من هذا ما حدث في المغرب ازاء كتلة اخرى من المسلمين : البربر ، فها هنا ايضًا نجد الخليفة يمتلك القدرة على ضرب فرامله في الأرض ووقف الخطأ قبل ان يتدحرج بماكنة الدولة الادارية هناك إلى نقرةٍ عميقة فيصيبها بالاذى .

كان الخليفة الجديد قد استعمل على افريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وصاحب شرطته على المغرب ، وهو رجل دميم قصير اشتهر بقسوته ، وكان سليمان قد عزله عن العراق كما ان عمر بن عبد العزيز حبسه . فسار يزيد في اهالي افريقية ، يقول ابن الاثير (سيرة الحجاج في أهل الإسلام الذين سكنوا الامصار ممن كان اصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق ، فانه ردهم الى قراهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفّار ..» فخالف بذلك عن سياسات عمر بن عبد العزيز وزاد على ذلك بان يرسم اسم حرسه على ايدي البربر كما تصنع الملوك من غير المسلمين ، وفرض على احد ابناء موسى بن نصير ان يعطي ارزاق الجند من ماله الخاص مدة خمس سنين ، فلما اعلمه

---

٢٠) الطبري : تاريخ ١٢/٧ – ١٤ ، ابن الاثير : الكامل ١١٣/٥ – ١١٤ ، اليعقوبي : تاريخ ٥٦/٣ .

بعدم قدرته على ذلك حبسه ، واخذ موالي موسىٰ بن نصير فوسم ايديهم وردهم إلى الرق . فما كان من البربر الا ان اجتمع رأيهم على قتله فثاروا به وقتلوه وولوا على انفسهم الرجل الذي كان عليهم قبل يزيد بن ابي مسلم وهو محمد بن يزيد وكتبوا الى الخليفة : انا لم نخلع ايدينا من طاعة ولكن يزيد بن ابي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك . فما كان من الخليفة الا ان اجابهم بما تقضيه الحكمة : اني لم أرضَ بما صنع يزيد ، وأعلمهم انه أقَّر محمد بن يزيد على عمله ، لكنه سرعان ما تراجع عن خطوته هذه واستبدل ابن يزيد ببشر بن صفوان الذي اعتمد – الى حد ما – سياسة معاوية للبربر وواصل تعذيب آل موسىٰ بن نصير[21] .

ولا نستطيع ، بعد هذا كله ، ان نبين ليزيد بن عبد الملك سياسة داخلية واضحة ، مستقلة الشخصية ثابتة الاركان بعيدة عن الاهتزازات الوقتية السريعة للافعال وردودها . وكان في علاقاته مع كتل مواطنيه ، بوجه عام ، اقرب إلى سياسات الكثيرين من خلفاء بني أمية ، وبخاصة المتأخرين منهم ، منها إلى سياسات عمر بن عبد العزيز . وسواء تعمد هذا أم لم يتعمده ، فان الذي حدث هو أنه مارس الى حد كبير نقضًا سيئًا للاجراءات التي حققها عمر على هذا الطريق ، وانتهىٰ الامر – كما يبدو – إلىٰ تفتت أصاب المجتمع الإسلامي ، وشروخ اخذت تزداد – فيما بعد – عمقًا على الايام .

---

٢١) الطبري : تاريخ ٦١٧/٦ ، ابن الاثير : الكامل ١٠١/٥ ، اليعقوبي : تاريخ ٥٦/٣ – ٥٧ . خليفة بن خياط : تاريخ ٣٣٣/١ ، البلاذري : فتوح البلدان صفحة ٢٣١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٤١١/٢ – ٤١٢ .

٤

وما كانت سياسات يزيد في الخارج لتقل ارتجالاً وفوضى وتناقضًا عما كانت عليه في الداخل .. ومشكلة الرجل ها هنا يمكن ان تتبلور بكلمة واحدة : انه لم يكن يملك استراتيجية واضحة الابعاد ازاء العالم الخارجي شعوبًا وحكامًا .. لا استراتيجية حرب لفتح العالم ومد رقعة الأرض كما فعل اخوه الوليد ، ولا استراتيجية علاقات سلمية تعتمد قوة الفكر وعمق العقيدة لفتح قلوب الامم والشعوب للدين الجديد ومدّ الإسلام الى المشرق والمغرب ، كما فعل عمر بن عبد العزيز .

على العكس ، انه يمارس ها هنا ايضًا نقضًا للمكاسب الكبيرة التي حققها سلفه بسياساته السلمية المفتوحة ، فأعاد فرض الجزية على جماعات من سكان ما وراء النهر كان عمر قد اسقطها عنهم بعد ان اعلنوا إسلامهم[٢٢] ، واعتمد عماله هناك العنف والقسوة ازاءهم ، الامر الذي جرّ إلى نقض اغلب ممالك المنطقة حلفها مع المسلمين مثل الصغد وفرغانة : وكش و نسف ، بل ان كثيرًا من الاهالي ارتدوا عن الإسلام الذي كانوا قد اقبلوا عليه في عهد عمر . وشغل العرب بمنازعاتهم القبلية فلم يهتموا باخماد ثورة الاهالي حتى وسموا بالجبن . واستفحلت الفتنة بحيث انه لما ارسل مسلمة من العراق عاملاً اسمه سعيد سموه سعيد خذينة لضعفه ولينه ، وهزموه هزيمة منكرة . فلما تولى عمر بن هبيرة العراق عزل خذينة وارسل بدله قائدًا اسمه ابن عمرو الحرشي حقق عددًا من الانتصارات وصالح كثيرًا من بلاد ما وراء النهر الثائرة ، لكن ابن هبيرة ما لبث ان عزله في السنة الاخيرة من خلافة يزيد وتولاها مسلم بن سعيد الذي لم يفعل شيئًا مما اضعف سيطرة العرب في هذه النواحي[٢٣] .

---

٢٢) قلهاوزن : الدولة العربية صفحة ٣١٢ .

٢٣) ماجد : التاريخ السياسي ٢٧٨/٢ وأنظر : الطبري : تاريخ ٦٠٥/٦ – ٦٠٧ وابن الاثير : الكامل ٩٢/٥ .

وشهدت الجبهات الخارجية : ما وراء النهر ، ارمينية واذربيجان ، البحر المتوسط ، ما وراء البرينه .. هجمات عسكرية وحروبًا ولكن الحصيلة النهائية بحساب الخسائر والارباح لم تجلب للدولة مكسبًا كبيرًا ، ذلك انها كانت على العموم حروبًا (تكتيكية) اذا صح التعبير ، لم تأت بنتائج حاسمة ، ولم تستبدل خرائط الدولة باخرى جديدة كما حدث في عصر الوليد . والحروب الجانبية ، أو التكتيكية ، ما لم تعمل ضمن تصور ستراتيجي واضح بعيد ، وتخدم هذا التصور ، فانها لا تأتي بشيء .. انها اشبه بمحاولات صغيرة لا تملك ثقلاً كافيًا لتغيير ابعاد الوقائع التاريخية وصياغة ابعاد اخرى جديدة . ولنتابع بعضًا من هذه المعارك ، كما يرويها لنا المؤرخون القدامى ، لكي نتبين الحجم الحقيقي للنتائج التي تمخضت عنها .

في سنة ١٠٢ هـ عبر سعيد بن عمرو الحرشي ، والي خراسان ، النهر وغزا الصغد وكانوا – كما مر بنا – قد نقضوا العهد وارتدوا واعانوا الترك الوثنيين على المسلمين ، فسألوه الصلح على ان يرجعوا الى بلادهم ويؤدوا الجزية . لكن سعيدًا أصرّ على قتالهم فهزمهم وحلفاءهم الاتراك وقتل منهم عددًا كبيرًا وسبى ذراريهم [٢٤] . وبعد اقل من سنتين اعاد الحرشي الكرَّة وقتل عدة الاف من الصغد وغنم اموالهم وسبى ذراريهم ، ثم سار إلى كش فصالحه اهلها على عشرة الاف رأس من الاغنام . ورغم ان ملكها (سبغرى) قد حظي بالامان الا ان الحرشي ما لبث ان صلبه [٢٥] . وفي عام ١٠٥ هـ قام مسلم بن سعيد بغزو مناطق الترك فيما وراء النهر فلم يفتح شيئًا وما لبث ان قفل عائدًا ، وقام بعد قليل بغزو احدى مدائن

---

٢) الطبري : تاريخ ٦١٢/٦ – ٦١٤ ، ابن الاثير : الكامل ٩٥/٥ – ٩٦ ، خليفة بن خياط : تاريخ ٣٣٥/١ – ٣٣٦ .

٢٥) الطبري : تاريخ ٧/٧ – ١٢ ، ابن الاثير : الكامل ١٠٧/٥ – ١١٠ .

الصغد هناك ، واسفر الهجوم عن مصالحة ملك المدينة واهلها [٢٦] .

وشهدت الجبهة الشمالية في ارمينية والخزر عددًا آخر من الهجمات ، كانت احداها عام ١٠٢ هـ قادها عمر بن هبيرة ، يوم كان واليًا على الجزيرة ، ضد المواقع البيزنطية باتجاه ارمينية فهزمهم وأسر منهم خلقًا كثيرًا قيل انهم بلغوا سبعمائة اسير[٢٧] . وفي نفس السنة قام العباس بن الوليد بهجوم ضد احد المواقع البيزنطية هناك وفتحه [٢٨] . وشهدت المنطقة بعد أقل من سنتين اعنف المعارك عندما اجتاز جيش للمسلمين بلاد الخزر من ارمينية فتصدى لهم هؤلاء في جمع كبير انضم اليه عدد من حلفائهم الاتراك وجرى قتال شديد استشهد فيه عدد كبير من المسلمين وسيطر العدو على معسكرهم وغنموا جميع ما فيه ، ففر المنهزمون إلى الشام وتلقوا من الخليفة توبيخًا وتعنيفًا [٢٩] .

وطمع الخزر وسعوا إلى استغلال انتصارهم هذا فحشدوا حشودًا كبيرة ، فما كان من الخليفة الا ان استعمل على ارمينية الجرَّاح بن عبد الله الحكمي وأمدّه بجيش كثيف وأمره بغزوهم ، فتحرك الجراح على رأس قواته وانتهى به الامر إلى باب الابواب فلم ير الخزر ، فدخل البلد وبث سراياه للاغارة على المناطق المجاورة ، وحينذاك تقدم اليه الخزر بقيادة ابن ملكهم ، وانتهت المعركة بهزيمة الخزر وقتل عدد كبير منهم وغنمت اموالهم . وما لبث الحكمي ان هاجم (بلنجر) احد اشهر حصونهم هناك ، وتمكن من اقتحامه بعد قتال مرير ضد الخزر وغنم جميع ما فيه ، وصالحه حصن آخر : (الوبندر) على مال يؤدونه اليه ، وكان هذا الحصن يضم

---

٢٦) الطبري : تاريخ ٢١/٧ .
٢٧) الطبري : تاريخ ٦١٦/٦ ، ابن الاثير : الكامل ١٠١/٥ ، اليعقوبي : تاريخ ٥٨/٣ .
٢٨) الطبري : تاريخ ٦١٦/٦ ، ابن الاثير : الكامل ١٠١/٥ .
٢٩) ابن الاثير : الكامل ١١٠/٥ – ١١١ .

عددًا كبيرًا من الاتراك . وقد استفزت هذه الانتصارات سكان المنطقة فتجمعوا واخذوا الطرق على المسلمين . فكتب صاحب بلنجر ، الذي كان الجرّاح قد ردّ اليه امواله واهله وحصنه ، وجعله عينًا له ، يعلمه بذلك . فعاد مجدّدًا ، لكن الشتاء ادركه فأوقف تحركاته وكتب إلى يزيد يعلمه بما فتح الله عليه وبما اجتمع من الكفار ، ويسأله المدد ، فوعده الخليفة بانفاذ مزيد من العساكر اليه ، لكنه توفي قبل تنفيذ ذلك[٣٠] .

وفي البحر المتوسط قام والي افريقية ، يزيد بن ابي مسلم ، عام ١٠٢ هـ ، بتوجيه احد قادته لمهاجمة صقلية «فغنم وسلم» ، وفي السنة التالية تعرضت سردانية هي الاخرى لهجوم شنه عليها أحد رجالات بشر بن صفوان ، والي افريقية الجديد ، فعاد هو الآخر غانمًا سالمًا .

ويبدو ان أكثر الحملات الحربية أهمية في عهد يزيد ، تلك التي قادها والياه على الاندلس السمح بن مالك الخولاني (١٠٠ – ١٠٢ هـ) وعنبسة الكلبي (١٠٢ – ١٠٧ هـ) في جنوب غربي فرنسا (بلاد الغال) . فقد حاول السمح فتح امارة سبتمانيا (أي المدن السبع) المحاذية لحدود اسبانيا من جهة الشمال الشرقي ، وذلك لتأمين حدوده الشمالية ، لا سيما وان هذه الامارة كانت جزءًا من الدولة القوطية التي قضى عليها الفاتحون في اسبانيا ، فحاصر عاصمتها أربونة واستولى عليها ، ثم اتجه شمالاً نحو نهر الجارون واستولى على مدينة طولوشة (تولوز) وتوغل في دوقية اكيتانيا المجاورة ، ولكن دوقها المسمى يودو التقى به سنة ١٠٢ هـ بالقرب من تولوز حيث دارت معركة كبيرة انتهت بهزيمة السمح واستشهاده وانسحاب

---

٣٠) الطبري : تاريخ ١٤/٧ – ١٥ . ابن الاثير : الكامل ١١١/٥ – ١١٣ ، اليعقوبي : تاريخ ٥٦/٣ – ٥٨ وانظر خليفة بن خياط : تاريخ ٣٣٦/١ – ٣٣٩ .

٣١) خليفة بن خياط : تاريخ ٣٣٣/١ .

٣٢) المصدر السابق ٣٣٦/١ .

فلول جيشه بقيادة عبد الرحمن الغافقي الى مدينة اربونة التي اصبحت قاعدة عربية لغزو ما وراء جبال البرتات [٣٣] .

وقد خلف السمح والٍ آخر اسمه عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٢–١٠٧ هـ) تابع حركة الفتح في تلك النواحي فأتم فتح اقليم سبتمانيا ثم اتجه شرقًا حتى بلغ نهر الرون وفتح اقليم بروڤانس في الجنوب ثم صعد مع النهر شمالاً حتى بلغ مدينة ليون واحتلها ثم توغل في الاقليم المعروف باسم برغونة (برجانديا) حتى بلغ مدينة اوتون في اعالي الرون ، ولكن اهالي البلاد قطعوا عليه خط رجعته وانتهى الامر باستشهاده هو الآخر سنة ١٠٧ هـ [٣٤] . وقد جاءت اغلب انتصارات عنبسة في فرنسا بعد وفاة يزيد ، في عهد هشام بن عبد الملك . كما انه يمكن التخمين بان محاولات كل من الرجلين ، السمح وعنبسة ، جاءت بعيدًا عن الاشراف والاوامر المباشرة للخليفة الاموي البعيد في دمشق ، لا سيما وان الاندلس كانت قد اصبحت يومذاك ولاية شبه مستقلة ، فما شهدته هذه الجبهة من هزائم وانتصارات لا يمكن ان نربطه مباشرة بسياسات يزيد وخططه الحربية ، على خلاف ما كان عليه الحال في ارمينية على وجه الخصوص .

---

٣٣) أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي صفحة ٢٩٣ (دار النهضة ، بيروت – ١٩٧١) وأنظر كذلك : المقري : نفح الطيب ١٣٨/٢ ، تحقيق أحمد مزيد رفاعي (القاهرة – ١٩٢٦) .

٣٤) العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي صفحة ٢٩٣ ، المقري : نفح الطيب ١٣٨/٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب صفحة ٢٧ ، تحقيق ليڤي بروڤنسال (ليدن ١٩٤٨–١٩٥١)

٥

وفي ميداني التنظيم الاداري والاقتصادي نلمح الشيء نفسه .. الفوضى والارتجال ، وفقدان الستراتيجية ، فها هنا - ايضًا - نجد نقيض ما خبرناه في عصر عمر بن عبد العزيز.

كانت الادارة في عهد عمر اداة لتنفيذ البرنامج العقائدي للدولة ، ومن ثم فانه ما إن تسلم الحكم حتى قام بسلسة شاملة من التغييرات لجعل هذه الادارة قديرة مع اداء دورها ذاك ، فصفى معظم الكوادر الإدارية القديمة وأحَلّ - بدلاً منها - عناصر جديدة ممن تقدر على تحمل المسؤولية ومواصلة طريق التغيير حتى نهايته ، واكد على فكرة التجانس الوظيفي من اجل ان يكون كافة موظفي الدولة مؤمنين بالبرامج الجديدة قديرين على هضمها وتمثلها وتنفيذها ، بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية والسياسية أو المذهبية ، وفتح الطريق واسعًا امام كل الناس للوصول الى اعلى سلطة في الدولة لعرض مشاكلهم وظلاماتهم من اجل السعي لحلها . ووضع كافة موظفيه تحت رقابة مركزية دائمة لكي لا يشذوا أو ينحرف بهم طريق ، واكد عليهم مرارًا ان الادارة الناجحة هي تلك التي تعرف كيف تربط الفكر بالعمل ، وتحيل النظريات إلى وقائع تحيا وتتنفس .. ودفعهم إلى بذل طاقاتهم كافة من اجل جعل صيغ الحياة في الدولة الاموية تتلاءم وتنسجم مع اطروحات كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام .. وسدّ على اداريه كافة المنافذ التي قد يتسلل منها الهواء الفاسد فيدفعهم الى الاستغلال والابتزاز .. الى الاخذ بدلاً من العطاء ؛ ودفعهم في مقابل ذلك إلى ان يحيلوا اجهزة الدولة إلى اداة هدفها العطاء الدائم .. وكان هو نفسه اداريًا من طراز أول ، تميزت شخصيته الادارية بالسمات الاساسية التي مكنته من تحقيق تلك الانجازات الكبيرة في ميدان الادارة : الايجابية

الواقعية ، المرونة والذكاء[35] .

اما يزيد فكان على النقيض من ذلك ، انه كما قال عنه ڤلهاوزن : «لم يقدم على احداث تغيير منظم وشامل .. وكان لا يمنع ولاته اذا ما تجاوزوا ما أمرهم به ، وكان ضعيفاً قليل الاهتمام والاكتراث بامور الحكم»[36] . ويبدو أن احد رجالات بني أمية البارزين وهو يزيد بن سعيد ابن عمرو قد نفذ من خلال ضعفه وغلب عليه[37] .

ولو تتبعنا الاجراءات الادارية التي اتخذها عبر سنوات حكمه الاربع فاننا سوف نجدها لا تعدو ان تكون سلسلة من الاقالات والتعيينات التي لم تَسْتَهِدِ في كثير من الاحيان ببرنامج عمل واضح أو خطة ثابتة ، لأن هؤلاء الاداريين – على تغييرهم – لم يفعلوا شيئًا ذا بال ، حسبما يتضح من الروايات التي تقدمها المصادر ، الامر الذي جعل اجهزة الدولة الادارية تعاني من قلق مستمر وعدم استقرار ، هذا فضلاً عن ان اختياره للرجال لم يتوخ دائمًا البحث عن الكفاءة والاخلاص ، بل كانت عوامل الاختيار غير الموضوعية ، وبخاصة مسألة الانتماء القبلي ، تلعب دورها الحاسم . ومما زاد الامر سوءًا ان أي موظف كبير يتم تعيينه ، يبدأ مهمته باقالة كافة الموظفين السابقين الذين اعتمدهم سلفه واستبدالهم بجماعة من الانصار والمقربين بعيدًا عن مشيئة الخليفة واختياره . وهنالك رواية ذات دلالة يوردها الطبري وابن الاثير وغيرهما ، تقول : لما ولي يزيد نزع ابا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن المدينة واستعمل عبدالرحمن ابن الضحاك الفهري عليها ، واراد هذا معارضة ابن حزم فلم يجد عليه

---

٣٥) انظر : عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فصل (الادارة والتخطيط) (الدار العلمية . بيروت – ١٩٧٠) .

٣٦) الدولة العربية صفحة ٣١٢ .

٣٧) اليعقوبي : تاريخ ٣/٥٨ .

سبيلاً حتى تقدم احد الرجال وشكى ابن حزم مدعيًا انه ضربه حدّين وطلب ان يقيد منه ، فلما اعلم يزيد بذلك كتب إلى ابن الضحاك : اما بعد فانظر فيما ضرب ابن حزم (الرجل المذكور) ، فان كان ضربه في امرٍ بيّن أو أمر يختلف فيه فلا تلتفت اليه . فارسل ابن الضحاك فاحضر ابن حزم وضربه حدين في مقام واحد ولم يسأله عن شيء[٣٨] . فها هنا نجد العقاب ينفذ لغرض العقاب ، ولا شيء وراء ذلك .. ولا محاولة جادة لتفحص البينات ..

ونستطيع ان نتلمس هذا كله بمجرد القاء نظرة على قوائم عماله على البلدان والاقاليم الرئيسية في الدولة .. في المدينة مثلاً .. عزل الخليفة ابا بكر بن حزم وولاها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري سنة ١٠١ هـ ، ثم عزله وولى عبد الواحد بن عبد الله سنة ١٠٤ هـ ؛ وفي مكة عزل عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وضمها مع الطائف وولى عليهما عبد الرحمن بن الضحاك سنة ١٠٣ هـ ، ثم عزله واستبدله بعبد الواحد النضري سنة ١٠٤ هـ . وعلى اليمن أقر الخليفة عروة بن محمد ، العامل السابق ، وعلى اليمامة سفيان بن عمرو العقيلي . اما في البصرة فقد ولى عبد الملك بن بشر بن مروان ، ثم سعيد بن عمرو الحرشي ثم حسان بن عبد الرحمن بن مسعود الفزاري من أهل دمشق ثم فراس بن سميّ الفزاري وهو زوج ام عمر بن هبيرة الفزاري والي الجزيرة . وفي الكوفة اقر يزيد عبد الحميد بن عبد الرحمن ، ثم عزله مسلمة بن عبد الملك لما ولاه يزيد بلاد العراق والمشرق بعد انتصاره على المهالبة وولاها محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ، فلما حل ابن هبيرة محل مسلمة ، وهو قيسي صميم ، عزله سنة ١٠٣ هـ وولى بدلاً منه الصعر بن عبد الله من مرّة غطفان . اما في خراسان فقد عين سعيد بن عبد العزيز بن ابي

٣٨) الطبري : ٥٧٤/٦ – ٥٧٥ ، ابن الاثير : الكامل ٦٧/٥ .

العاص ، وكان يسمى سعيد خذينة ، وقد لقب بذلك لانه كان رجلاً لينًا متنعمًا ، وخذينة هي الدهقانة ربة البيت . وكان سعيد قد تزوج ابنة مسلمة فلهذا استعمله على خراسان . وقد بدأ ولايته بان القى القبض على كافة عمال عبد الرحمن بن عبد الله الذين ولوا ايام عمر وحبسهم ، ولكنه ما لبث ان اطلقهم[39] . وقد تعرض سعيد للعزل على يد ابن هبيرة حيث ولى مكانه سعيد بن عمرو الحرشي سنة ١٠٤ هـ ، ثم عزله في العام نفسه وعين مكانه مسلم بن سعيد بن اسلم بن زرعة الكلابي ، بسبب ما عرف عن الحرشي من استخفاف بابن هبيرة . وفي سجستان ولى الخليفة القعقاع بن سويد من بني منقر من أهل الكوفة فعزله ابن هبيرة وولى السيال بن المنذر بن عوف بن النعمان . وفي السند ولي هلال بن احوز من قبل مسلمة سنة ١٠٢ هـ فعزله ابن هبيرة – خليفة مسلمة في العراق والمشرق – وولاها سنة ١٠٣ هـ عبيد الله بن علي السلمي ، ثم عزله وولاها عبد الحميد بن عبد الرحمن من غطفان . وفي البحرين واليمامة عين ابراهيم بن عربي ، وفي ارمينية معلق البهراني من اهل حمص ، ثم عزله الخليفة سنة ١٠٤ وولاها الجراح الحكمي . وفي الجزيرة تعاقب على الولاية عمر بن هبيرة وفايد بن محمد الكندي والعرس بن قيس الكندي . وفي افريقية عزل اسماعيل بن عبيد الله وعين يزيد بن ابي مسلم واعقبه بشر بن صفوان الكلبي الذي كان قبل ذاك عاملاً على مصر[40] .

ولا بد من الاشارة هنا إلى ان اكبر رجليْ ادارة في عهد يزيد كانا ولا ريب : مسلمة بن عبد الملك وعمر بن هبيرة ، عاملاه على العراق

---

٣٩) الطبري : تاريخ ٦/٦٠٥ – ٦٠٦ ، ابن الاثير : الكامل ٥/٩٠ .

٤٠) خليفة بن خياط : تاريخ ١/٣٤٠ – ٣٤٢ ، الطبري : تاريخ ٦/٦١٨ – ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٧/١٥ – ١٧ ، ابن الاثير : الكامل ٥/١٠١ – ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٥ – ١١٦ ، ١١٩ – ١٢٠ .

والمشرق ، اما مسلمة فقد كان اخاه ، رغم انه يجب ألا ننتقص من امكانات الرجل ودوره الكبير في الانتصار على ثورة المهالبة ، وفي اقرار الامور في العراق . لكن مسلمة كان رجل حرب وليس رجل ادارة ، وبعد انتصاره على ابن المهلب كان يمكن ان يفيد الخليفة منه في ساحات القتال في في الداخل والخارج ، لا ان يضعه في مكان ليس مكانه الحقيقي . وهكذا يبدو أن مسلمة لم يحقق النجاح الاداري المطلوب ، ولم يدفع من خراج ولايته شيئًا للحكومة المركزية[٤١] ، واضطر الخليفة اخيرًا إلى استدعائه إلى دمشق واستبداله بعمر بن هبيرة الفزاري .

وفي رواية للطبري وابن الاثير ان بعض ولد عبد الملك بن مروان كان قد تزوج بنتًا للحجاج فكان ابن هبيرة يقدم لها الهدايا ويبرها وييسّر عليها ، فكتبت إلى ابيها تثني عليه ، فعظم شأنه في الشام ، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز استعمله على الجزيرة ، وحين ولي يزيد ، ورأى ابن هبيرة تحكم المغنية حبّابة به تابع هداياه اليها والى الخليفة نفسه ، فسعت له في ولاية العراق ، فولاه يزيد إياه[٤٢] .

وهكذا كان اختيار هذين الرجلين لاخطر منصب اداري في الدولة لم يتم على ما يبدو وفق شروط الانتقاء الموضوعية التي تعامل معها عمر بصرامة والتي تتضح بمجرد الاطلاع على قوائم ادارييه ، وانما كانت هناك عوامل (خاصة) كان لها ثقلها في ذلك هذا فضلاً عن تأثيرات السياسة القبلية التي اعتمدها يزيد .

والمهم اننا بتتبع القوائم الادارية في عهد يزيد يتبين لنا انه أتى على عمال عمر جميعًا ؛ واليعقوبي يشير إلى ذلك بوضوح بقوله : «عزل يزيد

٤١) الطبري : تاريخ ٦/٦١٥ – ٦١٦ ، ابن الاثير : الكامل ٥/٩٧ – ٩٩ .
٤٢) الطبري : تاريخ ٦/٦١٥ – ٦١٦ ، ابن الاثير : الكامل ٥/٩٧ – ٩٩ .

عمال عمر جميعًا»[43] . ولقد كان هذا الاجراء بحد ذاته بعيدًا عن الحكمة كل البعد ، فليس المهم في ميدان الادارة هو استبدال الرجال بآخرين ، وكأن هذا الاستبدال هو هدف بحد ذاته ، وانما المهم هو اعتماد أكثر الرجال صلاحية كل في المكان المناسب . ولما كان رجال عمر قد تم اختيارهم وفق اشد الصيغ الموضوعية صرامة ، ولما كانوا قد عركوا ميدان الادارة وخبروه عبر سنيّ عملهم تحت اشراف عمر ورقابته المركزة ، ولما كان معظمهم قد عرف كيف (يتطهر من كل دنس قد يشدّه إلى أسفل ويحيل منصبه إلىٰ اداة كسب شخصي على حساب الامة والدولة على السواء ، فان لنا ان نخمّن حجم الخسارة التي منيت بها الادارة الاموية من جراء إقدام الخليفة الجديد على عزل جل عمال سلفه .

٦

والروايات عن اجراءات يزيد الاقتصادية تشح حتىٰ تكاد تنعدم ، وليس ثمة سوىٰ اشارات متفرقة ، ان دلت على شيء فانما تدل على انه ها هنا ايضًا أبحر ضد التيار المنظم الكبير الذي صاغه عمر وسهر عليه وبذل من اجله زهرة سني حكمه من اجل حل المشكلة الاجتماعية والمالية حلاً عادلاً يكفل ايجاد المجتمع المتوازن المتكافل ، كما اراد له الله ورسوله ان يكون .

لقد رأينا كيف ان الرجل بدأ انقلابه الاجتماعي من مركز الثقل الحقيقي : الخليفة نفسه والحزب الاموي الحاكم والجهاز الوظيفي ، من اجل كفهم عن الاخذ ودفعهم إلى التجرد والعطاء . ومضىٰ في الجهة الاخرىٰ ، وعلى خط متوازٍ ، يقدم لجماهير امته اوسع الخدمات والعطاءات والضمانات الاجتماعية : تقليصًا للضرائب ، واتباعًا للاساليب العادلة في الجباية ، وتوسيعًا عجيبًا لفكرة الضمان الاجتماعي ، واعتمادًا لكافة

---

٤٣) تاريخ ٣/٥٤ .

الصيغ والسياسات لتنفيذ هذه الفكرة على اوسع نطاق. كما رأينا كيف انه نظم سياسات الموازنة المالية فلم تعانِ دولته طيلة سني حكمه عجزاً ماليًا من جراء الانفتاح المدهش على جماهير امته ، فكان فتحُ باب التجارة الحرة ، والتأكيد على الزكاة ، واعتماد سياسة زراعية سليمة ، والحد من استنزاف اموال الدولة في الصراعات الداخلية ، ووقف اعمال الابتزاز والاستغلال التي كان الموظفون يمارسونها في مختلف العهود.. كان لهذه الاجراءات وغيرها الدور الكبير في تحقيق الموازنة المالية وتمكين الدولة من المضي في تنفيذ برامجها الاجتماعية حتى نهاية الطريق[٤٤].

ما الذي فعله يزيد في هذا المجال ؟

ليس ثمة قدر كافٍ من الروايات ، ولكن الاشارات القليلة ربما تمنحنا ما يلقي ضوءًا على الموضوع ويوضح الاتجاه العام للسياسات الاجتماعية والمالية في عهده .. «فمن ذلك – يقول ابن الاثير – ان محمدًا ابن يوسف ، أخو الحجاج ، كان على اليمن ، فجعل عليها خراجًا محددًا ، فلما ولي عمر كتب إلى عامله يأمره بالاقتصار على العشر ونصف العشر وترك ما حدده محمد بن يوسف ، وقال : لئن يأتيني من اليمن حفنة ذرة أحب اليّ من تقرير هذه الوضيعة ! ! فلما ولي يزيد بعد عمر أمر بردّها وقال لعامله : خذها منهم ولو صاروا حرضا»[٤٥].

عمر يبعث إلى عامله على اليمن ويقول له : لئن لم ترفع اليّ من جميع اليمن الاّ حفنة من كتم فقد علم الله اني بها مسرور اذا كانت موافقة للحق[٤٦]. ويقول في رسالة اخرى «فوالله لو لم يأتني من قبلك الاّ كفاً لرأيته

---

٤٤) انظر : عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فصل (المال والاقتصاد).

٤٥) الكامل ٥/٦٧ – ٦٨.

٤٦) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز صفحة ١٢٣.

من الله قسمًا عظيمًا» [47] . ويزيد بن عبد الملك ينادي عامله هناك «خذها منهم ولو صاروا حرضا» ! !

فها هنا نجد (التضاد) الكامل في السياسة الاقتصادية بين رجل يريد ان يجعل دولته دولة خدمات وضمان اجتماعي وبين رجل يريد ان يجعلها دولة اخذ واحتراف سياسي ، ولو جاء هذا على حساب الفلاحين الذين يشكلون عمود الامة الانتاجي ومصدر رزقها وبركتها .. وانتهى اخيرًا إلى نتيجة معاكسة تمامًا لما كان يزيد يريده : وهو تنمية مالية الدولة ! !

وثمة رواية اخرى في نفس الاتجاه .. رسالة بعث بها يزيد الى عمر ابن هبيرة عامله على العراق يأمره ان يمسح السواد فمسحهُ سنة ١٠٥ هـ وزاد الضرائب على النخل والشجر ، والحق اضرارًا بالمزارعين ، واعاد اعمال السخرة التي اوقفها عمر بن عبد العزيز ، كما احيا تقاليد تقديم الهدايا وضرائب النيروز والمهرجان التي الغاها عمر [48] .

هذا في العراق ، واما في المغرب فقد اعاد واليه يزيد بن ابي مسلم العمل مع البربر بسياسات الحجاج المالية التي تقضي بوقف هجرة المزارعين ممن أسلموا حديثًا إلى المدن ، وارغامهم على العودة إلى مزارعهم وفرض الجزية عليهم رغم اعتناقهم الدين الجديد الامر الذي انتهى – كما رأينا – بثورتهم عليه وقتلهم اياه [49] .

واذ كان عمر بن عبد العزيز يفرض على نفسه وموظفيه تقشفًا صارمًا في التعامل مع اموال الدولة العامة كيلا تنفق في غير اماكنها الحقيقية ويكتب إلى عامله على المدينة يؤنبه على اسرافه في استخدام الورق والشمع ،

---

٤٧) المصدر السابق صفحة ٦٥ – ٦٦ .

٤٨) اليعقوبي : تاريخ ٥٧/٣ .

٤٩) الطبري : تاريخ ٦١٧/٦ ، ابن الاثير : الكامل ١٠١/٥ .

ويتهكم به ، وقد طلب الاخير مخصصاته من الورق والشمع قائلاً : «لعمري لقد عهدتك يا ابن ام حزم وانت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح»[50] ، ويكتب الى عامله على اليمن ، وقد ابلغه انه ضيع دنانير من دخل اليمن : «.. اني لست اتهم دينك ، ولكني اتهم تضييعك وتفريطك ، وانا حجيج المسلمين في مالهم»[51] ، واذ يرفض عمر بن عبد العزيز استلام سلّة من تمر اهديت اليه لانها نقلت على دواب البريد ، ويطفىء الشمعة وهو يقرأ رسالة شخصية خاصة به ، لانه لا يريد استغلال اموال الدولة .. إذ كان عمر يمارس هذا وذاك وغيره كثير مما وقفنا عنده طويلًا في كتاب (الملامح) ، نجد يزيد بن عبد الملك لا يتردد في دفع ثلاثة الاف دينار – على سبيل المثال – ثمنًا لجارية اعجب بها ، ويبعث[52] إلى عامله على مكة أن يدفع لاحد المغنين الف دينار نفقة لطريقه «ويحمله على ما شاء من دواب البريد» !! لانه احب ان يستمع إلى ابيات من الشعر كان الرجل قد لحنها[53] .

وفي مقابل هذا كله ، لا نجد في عهد يزيد أي اهتمام جاد بمسألة توزيع الثروة وتنفيذ برامج الضمان الاجتماعي التي قطع فيها عمر خطوات واسعة ، كما لا نجد اهتمامًا كافيًا بمسألة الإعمار والاصلاح الاقتصادي التي هي قاعدة كل جباية .. واغلب الظن ان طرائق الاثراء غير المشروع لافراد الحزب الحاكم وكبار موظفي الدولة قد عاد سيرته الاولى ، هذا فضلاً عن ان اعتماد السلاح لمجابهة حركات المعارضة في الداخل استنزف ولا ريب الشيء الكثير من امكانات الدولة المالية .

---

٥٠) ابن عبد الحكم : سيرة عمر صفحة ٦٤ – ٦٥ .

٥١) المصدر السابق صفحة ٦٩ .

٥٢) المسعودي : مروج ١٩٦/٣ – ١٩٧ .

٥٣) المصدر السابق ١٩٧/٣ – ١٩٨ .

وخلاصة الامر ان يزيد ، ها هنا ، كما هو الحال في القطاعات الاخرى ، كان يفتقد الرؤية الواضحة والستراتيجية المرسومة ، والالتزام الجاد ، ومن ثم فلا نتوقع منه ان يواصل الطريق الذي شقه عمر بن عبد العزيز.. على العكس ، فان فوضى كهذه تحكم السياسات الاجتماعية والاقتصادية والمالية ، لابد وان تقود إلى تدمير نسبي أو شامل للكثير من انجازات عمر سواء تعمدّ الخليفة الجديد ذلك ام لم يتعمده ، فالنقد التاريخي ينصب على ما يقع فعلاً ويتشكل في الزمان والمكان ، لا على ما يدور في النيات ..

ومن خلال هذه الفوضى والاضطراب اللذين اخذت الدولة تعاني منهما في سياساتها تلك ، نشطت الدعوة العباسية السرية وانتشرت خلاياها في الاقاليم البعيدة ، وليس كما يظن بعض المؤرخين المعاصرين من ان سماحة عمر هي التي فتحت الطريق امام دعاة بني العباس .. ذلك انه مالم توجد خميرة الثورة وتتجمع اسبابها الحقيقية فليس بمقدور قوة في الارض ان تسوقها الى النمو والنجاح .

يقول الدينوري : ان دعاة العباسيين كانوا يسيرون في أرض خراسان منذ سنة ١٠١ هـ في عهد يزيد ويدعون الناس إلى بيعة محمد بن علي العباسي ويزهدونهم في سلطان بني أمية لخبث سيرتهم وعظيم جورهم ، فاستجاب لهم بخراسان اناس كثير ، وفشا بعض أمرهم فبلغ سعيداً واليها فأرسل اليهم وسألهم : من انتم؟ قالوا : قوم من التجار . قال : فما هذا الذي يذكر عنكم ؟ قالوا : ما هو؟ قال : اخبرنا انكم جئتم دعاة لبني العباس . أجابوا : ايها الامير ان لنا في انفسنا وتجارتنا شغل عن مثل هذا ، فاطلقهم . فخرجوا من عنده يدورون كور خراسان ورساتيقها في عداد التجار فيدعون الناس الى الامام محمد بن علي ، فمكثوا على ذلك عامين . ثم قدموا على الامام بارض الشام فاخبروه بانهم قد غرسوا

بخراسان غرساً يرجون ان يثمر في اوانه . ويتحدث الدينوري بعد ذلك عن اتساع نشاط الدعوة في العراق وخراسان طيلة السنين التالية في عهد يزيد واخيه هشام الذي اعقبه حيث صلب اثنان من كبار الدعاة في خراسان [٥٤] .

٧

ولا نتوقع ان تسود سياسات الدولة ومؤسساتها تقاليد وممارسات ثقافية ايجابية كما كان الحال في عهد عمر بن عبد العزيز ، ذلك المثقف الجاد والعالم المثابر والمربي الذكي .. الخليفة الذي لقب بمعلم العلماء [٥٥] ، والذي قال فيه مجاهد : «اتينا لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه» [٥٦] ، والذي «كانت العلماء معه تلامذة !!» ، والذي قال فيه احد عماله : «ما التمسنا علم شيء إلا وجدنا عمر اعلم الناس باصله وفرعه» [٥٧] .. واما على مستوى التجربة الروحية والالتزام الفكري العقائدي فلا يتسع المجال هاهنا حتى لمجرد الاشارة المقتضبة اليه [٥٨] .

ونتذكر ، ونحن نتحدث عن تأثير التقاليد الثقافية - التربوية للحكام ، رواية الطبري التي يقول فيها «كان الوليد بن عبد الملك صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلتقون في زمانه فانما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع . فولي سليمان بن عبد الملك فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك

---

٥٤) الدينوري : الاخبار الطوال صفحة ٣٣٤ ، وانظر : اليعقوبي : تاريخ ٥٦/٣ .

٥٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٧١/٥ .

٥٦) الذهبي : تذكرة الحفاظ صفحة ١٠٦ .

٥٧) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٤/٩ .

٥٨) يمكن للقارئ ان يرجع إلى كتاب (ملامح الانقلاب ...) للاطلاع على مزيد من التفاصيل .

الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتىٰ تختم ؟ ومتىٰ ختمت ؟ وما تصوم من الشهر ؟» [59] .

اما يزيد فقد غرق حتىٰ شحمة أذنيه في حب الغناء وعشق المغنيات .. لم يكن يملك ابعد من ذلك أيما رؤية ثقافية أو تربوية .. لم يُعرف عنه انه تحرك يومًا صوب آفاق تند عن حدود الطرب واللهو والشرب والهيام .. ليس ثمة لقاءات فكرية أو ندوات علمية أو حوار عقيدي .. لم نعثر له على رسالة واحدة يوجه فيها عماله وموظفيه وأبناء أمته الى هذا الهدف الفكري أو التربوي .. أو ذاك .. والنتيجة المحتومة ان تصاب أجهزة الدولة ومؤسساتها بشلل كبير يعيقها عن أداء أية مهمة ثقافية أو تربوية .. وأن تنتشر – في مقابل ذلك – تقاليد اللهو والترف والعبث .. على الاقل على مستوىٰ الطبقة الحاكمة .. لان الامم والشعوب كثيرًا ما تجد نفسها محصنة بالعقيدة التي تنتمي اليها ضد تيارات الهدم والفساد .. ولكن الثغرات لا بد وان تنفتح يومًا في جسدها لكي يتسرب الهواء الفاسد .. والمسألة مسألة زمن فحسب .

ومن خلال شهادات عدد من المؤرخين نستطيع ان نضع أيدينا على جوانب من الصورة التي كان يزيد يتشكل بها ..

كان الغالب على يزيد حب جارية يقال لها (سلاّمة القسّ) وكانت لسهيل بن عبد الرحمن الزهري فاشتراها يزيد بثلاثة الاف دينار فاعجب بها وغلبت على أمره فاحتالت ام سعيد العثمانية ، في شراء جارية يقال لها حبابة ، قد كان في نفس يزيد – قديمًا – فيها شيء ، فغلبت عليه ووهبت سلامة لأم سعيد . وكان هشام ينتقص يزيدًا ويتمنىٰ موته ويعيب عليه لهوه بالقينات ، واما أخوه الآخر مسلمة فقد عزله بسبب ما عمّ

---

٥٩) تاريخ ٤٩٧/٦ .

الناس من الظلم والجور باحتجابه واقباله على الشرب واللهو ، وقال له : انما مات عمر امس وقد كان له من عدله ما قد علمت فينبغي ان تظهر للناس العدل وترفض هذا اللهو فقد اقتدىٰ بك عمالك في سائر افعالك وسيرتك . فارتدع عما كان عليه واظهر الاقلاع والندم واقام على ذلك مدة مديدة ، فغلظ ذلك على حبَّابة فبعثت إلى الاحوص الشاعر ومعبد المغني تقول : انظرا ما انتما صانعان . فقال الاحوص بعض ابيات له وغناها معبد واخذتها حبابة . فلما دخل عليها يزيد قالت : يا أمير المؤمنين ، اسمع مني صوتًا واحدًا ثم افعل ما بدا لك ، وغنته ، فلما فرغت منه جعل يردد قولها :

فما العيش الا ما تلذ وتشتهي   وان لام فيه ذو الشقاق وفنّدا

وعاد بعد ذلك إلىٰ لهوه وقصفه ورفض ما كان عليه[60] .

وذكر يزيد يومًا ابياتًا لشاعر قديم جاء فيها :

صفحنا عن بني ذهل   وقلنا القوم اخوان

فقال لحبابة : غني به بحياتي !! فقالت : يا امير المؤمنين هذا شعرٌ لا اعرف احدًا يغني به الاّ (الاحول المكي) . فقال : نعم ، قد كنت سمعت ابن عائشة يعمل فيه ويترك قالت : انما اخذه عن فلان ابن ابي لهب وكان حسن الاداء . فوجه يزيد إلى صاحب مكة : اذا اتاك كتابي هذا فادفع إلى فلان بن ابي لهب الف دينار لنفقة طريقه واحمله على ما شاء من دواب البريد . فلما قدم عليه غناه فأجاد وأحسن ، وقال : أعده ، فأعاده واجاد واحسن وأطرب يزيدًا .. فوصله وكساه وردّه إلى بلده مكرمًا[61] .

٦٠) المسعودي : مروج ١٩٦/٣ – ١٩٧ ، ٢٠٢ ، وانظر : الطبري : تاريخ ٢٢/٧ – ٢٤ وابن الاثير : الكامل ١٢١/٥ – ١٢٢ .

٦١) المسعودي : مروج ١٩٧/٣ – ١٩٨ .

قال يومًا وقد طرب وعنده حبابة وسلاّمة القسّ : دعوني أطير ! ! قالت حبابة : على من تدع الامة ؟ قال : عليك ! !

وغنته يومًا :

بين التراقي واللهاة مرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبردا

فاهوىٰ ليطير ! ! فقالت : يا امير المؤمنين إن لنا فيك حاجة ، فقال : والله لأطيرن ، فقالت : على من تخلف الامة والملك؟ قال : عليك والله . وقبل يدها . فخرج بعض خدمه وهو يقول : سخنت عينك فما أسخفك ! !

وخرجت معه إلى ناحية الاردن يتنزهان فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت ، فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها حتىٰ انتنت وهو يشمّها ويقّبلها وينظر اليها ويبكي . فقيل له ان الناس يتحدثون بجزعك وان الخلافة تجلّ عن ذلك ، فاذن بدفنها مكرهًا وخرج لتشييع جنازتها ومعه اخوه مسلمة يسليه ويعزيه فلم يجبه يزيد بكلمة ، ولشدة جزعه لم يطق الركوب ، وخانته قدماه فعجز عن المشي وقفل عائدًا قبل استكمال مراسم التشييع ، ولربما اقنعه مسلمة بذلك لئلا يرىٰ الناس منه ما يعيبونه عليه . وعاد إلى قصره كئيبًا حزينًا . وسمع جارية لها تتمثل بعدها :

كفىٰ حزنًا بالهائم الصبّ أن يرىٰ منازل من يهوىٰ معطلة قفرا

فبكىٰ ، وبقي بعدها اسابيع قليلة لا يظهر للناس ، اشار عليه مسلمة بذلك وخاف ان يظهر منه ما يسفهه عندهم ، وما لبث ان توفي [٣٢] .

---

٦٢) الطبري : تاريخ ٢٢/٧ - ٢٤ ، ابن الاثير : الكامل ١٢٠/٥ ، ١٢١ - ١٢٢ ، المسعودي : مروج ١٩٨/٣ - ١٩٩ . وثمة الكثير من التفاصيل عن هذا الجانب من حياة يزيد يمكن ان يجدها القارئ في كتاب (الاغاني) لابي الفرج الاصفهاني في اكثر من موضع من الجزء الثالث عشر .

ويشير ابن الاثير إلى انه كان مريضًا بالسل [٦٣] ، ويبدو ان انغماره بالملذات استنزفه استنزافًا ، فجاء جزعه العنيف على حبابة فقضى عليه .

ويبدو ان يزيدًا عرف عنه تبذله وميله إلى اللهو قبل خلافته لان عمر لم يكن يرغب في توليته عهده ، وكانت الخوارج تحرضه على عزله [٦٤] . وقد رأينا كيف انه قام بمحاولة جادة لتنحيته عن ولاية العهد وانه ربما يكون قد ذهب ضحية محاولته تلك [٦٥] .

وينقل ماجد [٦٦] عن المؤرخ الفرنسي Denys de Teell [٦٧] قوله : ان يزيد ظهرت له تصرفات غريبة اخذها عليه المؤرخون مثل أمره بقتل كل ما هو ابيض من كلاب وحمام وديوك ورجال شقر ، وقطع ذراع السارق وليس يده .. واغلب الظن ان اشارة المؤرخ المذكور تتضمن قدرًا كبيرًا من المبالغة ، وان كانت تستمد مقولاتها من تهافت شخصية يزيد وضعفها وجنوحها العاطفي الذي يبدو بالنسبة للرجل ، اذا استخدمنا مصطلحات علم النفس ، تسلطاً قهريًا أو وسواسًا مرضيًا ..

ان احد الخطوط الفاصلة في تكوين شخصيتي عمر بن عبد العزيز وخلفه يزيد بن عبد الملك ، أن الاول كان يتميز بما يمكن تسميته (الحضور التاريخي) الذي ينبثق عن قوة الشخصية وحرصها العميق ، وعن وضوح الرؤية العقائدية وقوة التزامها ، ومن ثم نجد شخصية كهذه تتواجد في قلب الواقعة التاريخية بكثافة مدهشة ، وتمتد ارادتها ورؤيتها باختزال زمني فذ إلى امداء التاريخ : مكانه وزمانه .

---

٦٣) الكامل ٥/١٢٠ .

٦٤) ماجد : التاريخ السياسي ٢/٢٧١ .

٦٥) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب صفحة ٩٦ – ٩٧ ، ١٩٦ – ١٩٧ .

٦٦) التاريخ السياسي ٢/٢٧٢ .

٦٧) م م : ١٧ ، ١٨

ما من صغيرة وكبيرة الا والخليفة يشاهدها ويدلي فيها بدلوه ، ما من خط أو مساحة في تكوين العصر وصيرورته الدائمة الاّ وبصمات الرجل مطبوعة عليها .. إنه – اذا استخدمنا تعبير احد الشعراء المعاصرين – الكف التي تقف بمواجهة العصر .

على مدىٰ السنتين والنصف التي ساس فيها عمر دولته الكبيرة كان (حاضرًا) في كل واقعة وكل حدث .. وقبل هذا وذاك ، كان قد فرض حضوره العفوي المحبوب المنبثق عن تجرده والتزامه وحرصه وعمق رؤيته وشفافيتها ، في قلب كل مسلم لا بل في قلب كل مواطن أيًا كان دينه ، لا بل في قلوب اعدائه ومعارضيه في الداخل والخارج حكامًا في السلطة وناسًا عاديين في الشوارع والازقة والحارات .. ماغاب عمر يومًا – وهو يصل ليله بنهاره عملاً وكدحًا ، ويتخلى عن الملذات المباحة والحاجات الضرورية لتأدية المهمة بأمانة – ما غاب عن وعي المواطنين ولا عن حبكة الفعل التاريخي لحمة وسدىٰ ، ومكوكه يروح ويجيء لكي ينسج مساحة العصر الذي اراد له عمر ان يكون عصرًا اسلاميًا بمعنىٰ الكلمة .

ومسألة الحديث عن الحضور التاريخي هذه تقودنا بالضرورة إلى مسألة الدكتاتورية ؛ إن الدكتاتور ، ذلك الطاغوت الذي لا يعرف الاّ نفسه ، ولا يتحرك الاّ في اطار ذاته ، يريد أن يمارس هو الآخر نوعًا من الحضور التاريخي في قلوب مواطنيه ووعيهم ، وفي أمداء الحركة التاريخية ، لكنه يفتقد قوة الشخصية الحقيقية وعفويتها وحرصها ورؤيتها العقائدية الموضوعية وتفانيها ، وعشقها للحق والخير والجمال ، ولا ينطلق الا من زاوية ذاته المتضخمة مرضيًا كالسرطان ، بتشنج بالغ متوتر ، وانانية مشبوبة ، وكراهية متأصلة للحق والخير والجمال ، لا يستطيع بحال ان يحل المعادلة المطلوبة ، فيلجأ إلى العنف والقسر والارهاب . واذا كان له ان يحضر على مستوىٰ الفعل التاريخي الخارجي ويتحرك على سطح

المكان والزمان ، فانه في اعماق الناس ، في مدى وعيهم وعواطفهم ووجدانهم ، غائب ، بل مرفوض .. وكلما ازداد احساسه بهذا التباعد ، هذا الانفصام ، هذا الغياب العميق عن قلوب مواطنيه ، كلما ازداد قهرًا وتسلطاً وارهابًا .

ولكن من قال : ان بمقدور قوة في العالم ان تفرض محبتها وحضورها في دائرة الوعي والوجدان اللذين لا يعرف تشكلهما وصيرورتهما الاّ الله سبحانه ؟ ان الحضور التاريخي للزعيم الناجح انما هو حضور حقيقي ، متدفق عفوي عميق .. وحضور الدكتاتور حضور مزيف ، متقطع متشنج ، يغطي السطح ، نعم ، لكنه لا ينفذ إلى الاعماق .. الاعماق التي يتشكل في مجاريها البعيدة ، المعقدة ، المتشابكة ، فعل التاريخ وتمخضه الدائم .

ومأساة يزيد بن عبد الملك انه لم يكن هذا ولا ذاك .. لم يستطع ان يفرض حضوره التاريخي طيلة السنوات الاربع التي تربع فيها على عرش دولة عظيمة تمتد من حدود الصين حتى جبال البيرنيه .. لا زعيمًا معشوقًا ولا دكتاتورًا مرهوبًا ، ورغم انه كان فخورًا متكبرًا ، كما يصفه المسعودي ، فانه ما كان يملك شخصية قوية يمارس من خلالها الحضور سواء في شكله الصحي ام المرضي .. وزاد من عمق هذه المأساة انه جاء في اعقاب عمر ابن عبد العزيز مباشرة : واحد من اكثر زعماء التاريخ نجاحًا في ملحمة الحضور التاريخي هذه .. فكأنه الاسود يقف إلى جوار الابيض والظل قريبًا من النور ، فيزداد عتمة وإظلامًا ..

لقد حدثت تغييرات ادارية واسعة النطاق في مناصب دولته العليا ، ودارت معارك وشُنّت حملات ، ولم يكن من وراء هذا التغيير رؤية واضحة ولا هدف مرسوم ، بل لم يكن من ورائه أي حضور لشخصية الخليفة الفاتح القابع في دمشق ، ينساق حينًا وراء ضعفه فيذوب وجدًا عند قدمي سلامة أو حبابة وهما تغنيان (ما العيش الا ما تلذ وتشتهي) ،

ويبلغ به الامر ان يقول لاحداهن يومًا : اريد ان اطير ! !

ويتمنىٰ – حينًا آخر – ان يرجع إلى الصواب ، ان يمتلك زمام نفسه لكي يكون اكثر وعيًا وحضورًا فيما يجري على ساحة دولته الواسعة ، بل انه كان يتشبه أحيانًا – كما رأينا – بعمر ، وهو حديث عهد به ويعرف ما الذي حققته شخصيته من انجازات وانتصارات .. ولكنه بتركيبه الخاص ، بنسيج شخصيته الهش الناعم ، بازدواج هذه الشخصية .. بالتسلط القهري لمتطلبات عواطفه الجانحة ، غير المتوازنة ، ما كان بقادر على ان يساوي شخصية كشخصية عمر بن عبد العزيز ، بل ان يبلغ كعبها ..

ان طبيعته – كما يقول فلهاوزن – «كانت تختلف كل الاختلاف عن طبيعة عمر ، ولم تكن الصفة الغالبة عليه تتمثل في التحرر من الاثم كما هو معروف عن عمر ، بل كانت تغلب عليه خفة الارستقراطيين. وهو قد كان نبيلاً فارسًا وفتىً سيدًا اكثر منه حاكماً ، فترك الولايات لامرائها ولم يهب وقته لأمور الدولة بل للهوىٰ والغناء والشراب ...»[68] .

* * *

68) الدولة العربية صفحة ٣١٢ – ٣١٣ .

مــلاحظات
في مصَادر الطبَري
عن صَدر الدّولة العَبّاسِيّة

ملاحظات عامة

يطلق على كتاب الطبري[1] اسم (تاريخ الامم والملوك)[2] أو (تاريخ الرسل والانبياء والملوك والخلفاء)[3] وفي هذا الاطار الذي يدل عليه كلا العنوانين وضع الطبري مؤلفه الضخم عن التاريخ مبتدأ بالفترة التاريخية الطويلة المدى التي سبقت ظهور الإسلام ، حيث نجد الطبري – بتناوله هذه الفترة – يعبر عن فكرة عالمية التاريخ ووحدته متمثلة بتوالي الرسالات ، ويعزز هذا ، العنوان الثاني لكتابه كما أورده ياقوت . وعندما ينتقل الطبري

---

١) تعد طبعة ليدن لكتاب الطبري الطبعة المعتمدة الأولى التي بدأت عام ١٨٧٩ ، واعقبتها طبعة (المطبعة الحسينية) بمصر حيث اخرج الكتاب عام ١٩٢٠ في أحد عشر جزءًا الحق بها جزءان احدهما (صلة تاريخ الطبري) لسعيد بن عريب القرطبي وثانيتهما (المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين) تأليف الطبري نفسه ، وهو عبارة عن مجموعة تراجم لمشاهير الصحابة والتابعين ، يلتزم الطبري في عرضها بالنظام الحولي – أيضًا – حيث يصنّف الوفيات على السنوات المتتالية ، كما انه يؤكد في هذا المؤلف على الاسناد بشكل واضح . وتلت (الحسينية) طبعة (دار الاستقامة) بمصر سنة ١٩٣٩ وفيها الكثير من الاخطاء . أما مطبعة دار المعارف بمصر والتي قام بتحقيقها أبو الفضل ابراهيم فهي أكثر طبعات الطبري دقة واتقانًا . (وقد اعتمدت في هذا البحث على طبعة الحسينية) .

٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٦٣/٢ ، حاجي خليفة : كشف الظنون صفحة ٢٩٧ .

٣) ياقوت : معجم الادباء ٦٨/١٨ .

إلى الفترة التي اعقبت ظهور الإسلام يحصر نطاق همته في الامة الإسلامية حيث يعبر عن اهمية خبراتها واتصالها عبر التاريخ [٤] . وقد تناول في هذا القسم حياة رسول الله ﷺ واخباره وغزواته ، ثم استعرض تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحاتهم والصراع بين علي ومعاوية ، والدولة الاموية ثم الدولة العباسية حتى عام **٣٠٢** هـ حيث ينتهي تاريخه .

اتبع الطبري في كتابه هذا نظام الحوليات ، أي تنظيم الحوادث على السنين ، فيما عدا الفترة التي سبقت الإسلام فانه عرض حوادثها في استطراد عام بسبب صعوبة تقسيمها على السنين لعدم وجود تقويم عالمي ثابت يؤرخ بموجبه للامم والدول وتوالي الحكام والاحداث . وقد اعتمد في تسلسله هناك على توالي الانبياء ، ثم الملوك الذين عاصروهم وما كان في عهدهم من احداث ، ثم استعرض الامم التي اعقبت الانبياء في الفترة التي تفصل بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ . اما في القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي فقد راعى ترتيب الحوادث ترتيبًا حوليًا ابتداء من سنة **١** هـ حتى سنة **٣٠٢** هـ ، حيث ذكر في كل سنة ما وقع فيها من حوادث مهمة ، واذا كانت الحادثة الواحدة تستغرق سنوات جزأها أو اشار اليها ثم عاد اليها بالتفصيل في موضعها الملائم [٥] . وطريقة الحوليات هذه من معطيات الفكر الإسلامي ، وهي توقيت الاحداث بالسنين والشهور والايام «فالتوقيت على هذا النحو لم يعرف في اوربا قبل عام **١٥٩٧** م» كما قال المؤرخ الانكليزي بسكل [٦] .

ولم يكن الطبري اول من جاء بهذه الطريقة ، اذ سبقه اليها بعض مؤرخي

---

٤) انظر عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، صفحة **٥٥** .

٥) جواد علي : موارد تاريخ الطبري ، مجلة المجمع العلمي العراقي ١٧٣/١ .

٦) عبد الحميد العبادي : علم التاريخ عند العرب صفحة ٦٧ (فصل ملحق بكتاب علم التاريخ لهيرنشو ، والذي ترجمه العبادي) .

المسلمين واخبارييهم مثل الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧ هـ) صاحب كتاب (التاريخ على السنين) والواقدي (ت ٢٠٧ هـ) مؤلف (كتاب التاريخ الكبير) على نظام السنوات . وقد سار بعد الطبري على طريقة الحوليات مجموعة من كبار المؤرخين مثل مسكويه وابن الاثير وابي الفدا ... الخ بينما خالفه مؤرخون آخرون كاليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن خلدون ، اذ ساروا على الطريقة (الموضوعية) أي كتابة الحادثة متكاملة وان استغرقت سنوات . ولا ريب ان لكل من الطريقتين مزاياها وعيوبها ؛ فالتاريخ على الحوليات يتخذ من السنين وتسلسلها الزمني عموداً فقرياً يبني عليه مادته مما يؤدي إلى وضوح التطور الزمني للاحداث في ذهن القارئ ، ولكنه يؤدي – من جهة اخرى – الى تقطع الحادثة الواحدة التي استغرقت اكثر من سنة والى تفريقها على عدة سنوات (وحدات) ، كما سنرى مثلاً عند بحث الطبري عن بناء مدينة بغداد (المدورة) . اما الطريقة الثانية للتنسيق فانها تحافظ على الوحدة الموضوعية للحدث التاريخي وتوضح ارتباط اسبابه بنتائجه ، وتظهره للقارئ كوحدة متماسكة واضحة الابعاد الا انها من جهة اخرى لا توضح معالم التسلسل الزمني الذي هو اساسي للبحث التاريخي كذلك .

اما الاخبار التي لا ترتبط بزمن معين كالسير مثلاً ، فقد كان الطبري يختم بها الحديث عن كل خليفة . فبعد ان يذكر الاحداث في عهده مرتبة على السنين ، يختتمها باستعراض سيرته دون التقيد بعامل الزمن . وسوف نرى – في نطاق بحثنا عن العصر العباسي الاول – كيف كان الطبري يسهب في هذه الناحية ويخصص الصفحات الطوال لذكر سير الخلفاء ، ويعتمد على عدد كبير من الرواة في هذا الباب .

يكثر الطبري في تاريخه من تسجيل النصوص التاريخية من شعر وخطابة ورسائل ومحاورات في مناسباتها التاريخية ، وهو في هذا يحاكي

سابقيه من الادباء والمؤرخين . ذلك ان رواة الاخبار القدماء كانوا يحرصون على تدوين الشعر المتصل بالموضوع الذي يؤرخونه كلفاً بالشعر من جهة ، ورغبة في توثيق الحادث أو الخبر والتشويق اليه من جهة اخرى . وكان رواة الادب يعتمدون على التاريخ في تفسير وتحليل كثير من القصائد ، ومن هنا امتزج الادب بالتاريخ وصار من المألوف ان يكون المؤرخ راوية للادب وان يكون راوية الادب مؤرخاً[٧] .

ويسير الطبري في نقده على طريق المحدّثين فيصب تمحيصه وتأكيده على الاسناد أي سلسلة الرواة ، ويقول في مقدمة تاريخه : «وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما احضرت ذكره فيه انما هو على ما رويت من الاخبار التي انا ذاكرها فيه والاثار التي انا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أُدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس .. الا القليل اليسير منه . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما ينكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من اجل انه لم يعرف له وجهاً في الصحّة ، ولا معنىً في الحقيقة ، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه الينا ، وانّا انما ادينا ذلك على نحو ما أُدِّي الينا» وهكذا نجد الطبري لا يوجه اهتمامه لنقد المتن ، أي للنقد الداخلي للرواية وانما للنقد الخارجي أي الرواة . وقد ادى هذا الاتجاه إلى ايراده عدة روايات عن الحادث الواحد ونتج عنه عدم اعطاء صورة متسلسلة للاحداث ، كما نجد في بعض الكتب التاريخية الاخرى كاليعقوبي الذي يكتفي بذكر مصادره في مقدمة كتابه فحسب ، ثم يورد الاحداث متسلسلة دون ان يضطر إلى ايراد عدة روايات عن الحدث الواحد .

ان قيمة الروايات في نظر الطبري – كما يقول الدوري – تعتمد على

---

٧) انظر : جواد علي ، المصدر السابق ١٤٩/١ .

سانيدها وكلما كان بدء السند اقرب إلى الحادثة كان افضل . وهكذا
صلتنا عن طريقه كتابات وروايات تاريخية مبكرة لم تحفظ الا في تاريخه .
الروايات قد تتأثر بعوامل مختلفة مثل الذاكرة والميول والرغبات وغير
ذلك ، ولا يمكن الجزم بدقتها وسلامتها بصورة قاطعة ، حتى بعد نقدها
تمحيصها . وهذا ما يجعل (الرأي) أوالحكم الفردي غير مأمون وقد يكون
ربكاً ، لذا فيكفي نقل الروايات ممن يوثق بهم من الرواة والمؤرخين
العهدة في صحتها عليهم [٨] .

واذا ما نقل الطبري من كتاب ما فانه يذكر اسم مؤلفه مثل : قال
بن الكلبي ، أو قال محمد بن اسحق أو ذكر الواحدي ، وقلما كان
ذكر اسم الكتاب . واذا ما سمع من انسان ما مشافهة قال : حدثني
لان ، فاذا اشترك معه في السماع اخرون قال : حدثنا فلان وسلسل
لسند إلى مصدره الاصلي . وكان يعتمد احياناً على المراسلات فيقول
ثلاً : كتب اليّ السدّي عن فلان عن فلان ...الخ . وقد حرص الطبري
ائمًا على السند والرواية المتصلة الا في بعض مواضع يظهر انه اعتمد
يها على النقل عن الكتب أو الاجازة منها ، فاهمل اسم المحدث كقوله :
حدثت عن فلان ، أو ذكر عن فلان انه قال . ونجد في الاجزاء الاخيرة
ن الكتاب صيغاً تدل على تساهل من السند كقوله : ذكر لي بعض
صحابي ، وذكر لي جماعة من اصحابنا أو حدثني جماعة من اهل
كذا . وربما كان مبعث التساهل هنا خوفه على محدثيه الاحياء من غضب
لساسة لأن في رواياتهم ما يعرض لغضب السلطان . على ان السند يقل
ي الاجزاء الاخيرة من الكتاب حتى ليندر في صفحات متواليات ،
بما لان الطبري اعتمد فيها على معلوماته الشخصية .

---

٨) عبد العزيز الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب ، صفحة ٥٥ — ٥٦ .

كان الطبري يضع عناوين لاحداثه وخاصة المهمة منها ، اما الاحداث الصغيرة التي لا تتجاوز بضعة اسطر فانه يذكرها متعاقبة دونما عناوين ، في بداية كلامه عن بدء كل سنة تحت عنوان عام هو (ذكر الخبر عما كان فيها من الاحداث) أو (ذكر الاحداث التي كانت فيها) . وهو يقدم عناوينه عادة بمقدمة عن الحادث المعين مؤكدًا على كلمة : سبب . مثل (ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة : ذكر الخبر عما كان فيها من الاحداث . فما كان فيها من ذلك قتل الرشيد جعفر بن يحيي واتباعه بالبرامكة : ذكر الخبر عن سبب قتله اياه وكيف كان قتله وما فعل به وبأهل بيته) وفي احيان اخرى يورد الطبري الخبر مستقلاً مثل (ذكر الخبر عن كذا ...) .

مَوَارِدُ الطَبَري عَن صَدْرِ الدّولة العبَّاسِيّة

جاء الطبري بمادته التاريخية عن صدر الدولة العباسية من مصادر وموارد متعددة يمكن تقسيمها – بصورة عامة – إلى قسمين احدهما مصادر شخصية كالرواة والاخباريين والمؤرخين وشهود العيان ، والآخر مصادر مكتوبة كالمؤلفات والوثائق والشعر واهم ما يجب ان نلاحظه على هذه الفترة – قبل البدء بتحليل الموارد – ان اعتماد الطبري على المصادر غير المباشرة كالاخباريين يقل فيها إلى حد كبير بينما يزداد اخذه عن المصادر المباشرة اشخاصًا ووثائق ومؤلفات .

١- المصَادر الشخصيّة

اعتمد الطبري في هذة الفترة على الاشخاص : رواة واخباريين ومؤرخين وساسة وشهود عيان ، وتوضح ذلك سلاسل اسناده الكثيرة المتنوعة حيث جاءته مادة واسعة عن هذا الطريق . ويقف على رأس هؤلاء أولئك الشيوخ الذين اخذ الطبري عنهم بكثرة وهم : علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ) الذي اخذ عنه ما يزيد عن الخمسين رواية

بعضها مطول وبعضها مختصر. وعمر بن شبّة (ت ٢٦٢ هـ) الذي اخذ عنه ما يزيد عن المائة رواية، ومحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) الذي نقل عنه مواضيع اختصاصية كالحج السنوي والوفيات وعمال الاقاليم في كل سنة، وتواريخ حدوث بعض الظواهر الطبيعية كالزلازل، فضلاً عن عدد من الروايات في مواضيع اخرى متفرقة. ثم الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦ هـ) الذي اخذ عنه عدداً من الروايات انصبّ معظمها على بناء بغداد (مدينة المنصور المدورة) وسيرة ابي جعفر المنصور. وعمر بن راشد ومحمد بن يحي النيسابوري وعلي بن محمد النوفلي الذي اخذ الطبري عن كل منهم ما يربو عن العشر روايات.

اما الرواة الذين يأتون بالدرجة الثانية في الاهمية فهم: محمد ابن اسماعيل (١١ رواية)، عيسى بن عبد الله (٩ روايات)، احمد ابن زهير (٧ روايات)، هشام بن محمد (٧ روايات)، اسحق الموصلي (٧ روايات)، يحي بن الحسن (٧ روايات)، يزيد بن الحارث (٦ روايات) والفضل بن اسحق الهاشمي (٤ روايات).

اما الرواة الذين يأتون بالدرجة الثالثة في الاهمية من حيث طبيعة المادة التي قدموها كمّاً ونوعاً منهم: نصر بن قديد، محمد بن عبد الله، محمد بن الحسن، ازهر بن سعيد، أبو حفصة الكرماني، سليمان بن ابي الشيخ، داود صالح ومحمد بن اسحق الهاشمي. وقد قدم كل من هؤلاء عدداً من الروايات لا يتجاوز الخمسة. وهناك من الرواة من اعطى روايتين فقط وهم: عبد الله بن عمرو، ايوب بن عمر، الاصمعي، عبد الله بن راشد، محمد بن معروف، خالد بن خداش والحسن بن ابي سعيد. أما الرواة الذين أخذ الطبري عن كل منهم رواية واحدة فقد جاوزوا المائة عدداً.

اخذ الطبري – في هذه الفترة – اذن عن رواة واخباريين وطلائع

مؤرخين كانوا يمثلون حلقة وصل بين مرحلة الاخبار ومرحلة التاريخ كالمدائني والواقدي والهيثم بن عدي وعمر بن شبّة . وقد اتبع الطبري اساليب عديدة في الاخذ عن هذه المصادر . وفيما يلي بعض الامثلة :

١ - وحدثني محمد بن يحيي قال حدثني عبد العزيز بن عمران قال حدثني ابي قال (٦١/١٠) .

٢ - حدثنا أحمد بن زهير عن علي بن محمد قال : قال عبد الرحمن ابن أمية (١٣٢/٩ .

٣ - وحُدثت عن سليمان بن ابي الشيخ (٢٥٣/٩) .

٤ - اخبرني حميد مولى محمد بن ابي العباس قال : (٢٢٧/٩) .

٥ - ذكر علي بن محمد عن زهير بن هنيد وجبلة بن فروخ واسماعيل ابن ابي اسماعيل والحسن بن رشيد (١١٧/٩) .

٦ - قال عمر حدثني سليمان بن محمد الساري قال (١٨٢/٩) .

٧ - ...فيما ذكر عمر عن ازهر بن سعيد بن نافع (٢١٣/٩) .

٨ - وزعم الواقدي (٢٨٣/٩) .

٩ - كذلك قال محمد بن عمر (٣٢٢/٩) .

١٠ - ... في قول الواقدي (٩٤/١٠) .

١١ - واما هشام بن محمد فانه ذكر عن ابي مخنف ان ... (١١٩/٩) .

هذه هي الصيغ التي يستعملها الطبري والتي يمكن تقسيمها إلى مجموعتين احداهما تشير إلى النقل الشفوي مثل (حدثني ، حدثنا ، حدثت ، اخبرني) والاخرى تشير إلى النقل عن كتاب أو مدونة مثل (ذكر ، قال ، زعم ...) . ونلاحظ في بعض التعابير آنفة الذكر اشارات اخرى عن طريقة الاخذ . فكلمة حدثنا قد تشير إلى وجود الطبري في حلقة تستمع إلى شيخها ، وكلمة (حُدثت) تشير إلى اخذ الطبري من مصدر ما بصورة غير مباشرة ، أي بواسطة شخص ثالث . اما تعبيرا (فيما ذكر) و (وزعم) فيشيران

إلى نوع من الشك وعدم الثقة . واما تعبيرا (وكذلك قال) و (وأما فلان فانه ذكر) فيشيران إلى اهتمام الطبري بايراد عدة روايات عن الموضوع الواحد ، ووجهة النقد لديه .

ونلاحظ – بصورة عامة – ان الروايات التي اخذها الطبري عن شيوخه امثال المدائني وعمر بن شبة والواقدي ، نقلها عن كتب هؤلاء ومدوناتهم وليس عن طريق شفوي ، اذ أن جل رواياتهم تبدأ بكلمة (ذكر) أو (قال) اللتين تشيران إلى الاخذ عن مصدر مكتوب . كما نلاحظ – من جهة اخرى – ان الرواة الذين اسهموا باعطاء الطبري عددًا محدودًا من الروايات اعطوه اياها عن كلا الطريقتين الشفوي والمكتوب كما تدل كلمتا (حدثني) (وذكر) .

اخذ الطبري عددًا من الروايات عن اشخاص مشتركين في الحوادث . وشهود عيان وموظفين في الدولة العباسية ومقربين لدى الخليفة وحاشيته ، واختصاصيين كالاطباء والمهندسين ، أو من أحد افراد العائلة الحاكمة نفسها ، وفيما يلي عرض لأهم الروايات التي اخذها الطبري عن هؤلاء ، مسندة اليهم :

١ – فذكر مسلم بن المعرة عن مصعب بن الربيع الخثعمي ، وهو ابو موسى بن مصعب ، وكان كاتبًا لمروان قال [ظهور عبد الله ابن علي على الشام سنة ١٣٢ هـ] (١٣٤/٩) .

٢ – وحدثني عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مسلم ويدعى ابن البواب ، وكان خليفة الفضل بن الربيع يحجب هارون من ادباء الناس وعلمائهم ، قال حدثني ابي عن الاسلمي ، يعني عبد الله بن عامر [تنبؤات حول مصير ثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم سنة ١٤٥ هـ] (٢٢٧/٩) .

٣ – حدثني عبد الحميد وكان من خدم ابي العباس قال : [توجيه قوات ابي جعفر المنصور إلى البصرة سنة ١٤٥ هـ] (٢٤٨/٩) .

٤ – وحدثني يحي بن ميمون من أهل القادسية قال سمعت عدة من اهل القادسية : [شدة المنصور في معاملة اهل الكوفة سنة ١٤٥ هـ] (٢٤٩/٩) .

٥ – وذكر عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن علي ان اسحق بن عيسى بن علي حدثه [تنبؤ عن مصير المعركة بين العباسيين والعلويين سنة ١٤٥ هـ] (٢٥٨/٩) .

٦ – فقال موسى بن داود المهندس : قال لي المأمون ، وحدثني بهذا الحديث [طلب المأمون انشاء اثر خالد] (٢٦١/٩) .

٧ – ذكر عبد الملك بن شيبان ان يعقوب بن المفضل بن عبد الرحمن الهاشمي قال : [عزل المنصور مسلم بن قتيبة عن البصرة وتولية سليمان ابن محمد بن علي ١٤٦ هـ] (٢٦٤/٩) .

٨ – فذُكر عن بعض بني هاشم انه قال [عزل المنصور اخاه العباس ابن محمد عن الجزيرة سنة ١٥٥ هـ] (٢٨٦/٩) .

٩ – وذكر الباهلي ان ابا شاكر اخبره – وكان من كتّاب المهدي على بعض دواوينه – قال [خروج المهدي إلى ماسبذان سنة ١٦٩ هـ] (١٠/١٠) .

١٠ – قال محمد بن صالح وحدثني عبد الله بن محمد الانصاري [اخبار عامة عن آل الحسن خلال ثورة الحسن العلوي سنة ١٦٩] قال عبد الله : رأيت هذا كله بعيني . (٢٥/١٠) .

١١ – فذكر عمرو اليشكري وكان في الخدم [التدبير لاغتيال يحيى البرمكي سنة ١٧٠ هـ] (٣٦/١٠) .

١٢ – وذكر احمد بن القاسم انه حدثه عمه علي بن يوسف بن القاسم

هذا الحديث فقال : حدثني يزيد الطبري انه كان حاضرًا يحمل دواة ابي يوسف بن القاسم فحفظ الكلام قال [خطبة القائد يوسف ابن القاسم عند تولي الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ] (١٠/٤٨) .

١٣ – ذكر ابو الخطاب ان جعفر بن يحي بن خالد حدثه ليلة وهو في سمره قال [موت يحي بن خالد بسبب علّة انتابته سنة ١٧٦ هـ] (١٠/٥٧) .

١٤ – وذكر ابو يونس اسحق بن اسماعيل قال سمعت عبد الله بن العباس بن علي الذي يعرف بالخطيب قال [استعطاف يحي البرمكي للرشيد سنة ١٧٦ هـ] (١٠/٥٧) .

١٥ – وذكر عن ذي الرياستين انه قال [شخوص الرشيد إلى خراسان لحرب رافع بن الليث سنة ١٩٢ هـ] (١٠/١٠٨) .

١٦ – ذكر عن جبريل بن بختيشوع انه قال [مرض الرشيد سنة ١٩٣هـ] (١٠/١١٠) .

١٧ – وذكر الحسن بن علي الربعي ان اباه حدثه عن ابيه وكان حمالاً قال [حمل الرشيد إلى طوس سنة ١٩٣ هـ] (١٠/١١٠) .

١٨ – وذكر احمد بن عبد الله انه كان فيمن شهد [حصار بغداد وخلع الحسين بن علي للامين سنة ١٩٦ هـ] (١٠/١٦٣) .

١٩ – وذكر عن عثمان بن سعيد الطائي قال : كانت لي من الحسين ابن علي ناحية خاصة : [سيطرة الحسين بن علي على الموقف سنة ١٩٦ هـ] (١٠/١٦٣) .

٢٠ – فذكر عن بعض الابناء [اغراء طاهر بن الحسين لقواد الامين سنة ١٩٧ هـ] (١٠/١٨٢) .

٢١ – قال يحي بن الحسن : وحدثني بعض الهاشميين [سبب موت الهادي سنة ١٧٠ هـ] (١٠/٣٣) .

٢٢ – وذكر ابو يعقوب بن سليمان قال حدثتني حجرة العطارة ، عطارة

ابي جعفر ، قالت [وصية المنصور للمهدي سنة ١٥٨ هـ] (٩/٣٥٠) .

٢٣ - وذكر علي بن زيد انه قال : كنت يوماً عند عمر الوراق انا وجماعة فجاء رجل فحدثنا [وقعة طاهر بباب الكرخ وتخلي الناس عنه سنة ١٩٨ هـ] (١٠/١٩٣) .

٢٤ - وذكر علي بن محمد بن سليمان ... بن عبد المطلب قال : حدثني يوسف البرم مولى آل الحسن - وكانت امه مولاة فاطمة بنت الحسن - قال [بعض سيرة الحسن بن علي] (١٠/٢٩) .

٢٥ - وذكر عن بعض الموالي انه قال [عزل الرشيد علي بن عيسى بن ماهان عن خراسان وتولية هرثمة اياها سنة ١٩١ هـ] (١٠/١٠٠) .

٢٦ - وذكر سهل بن هارون عن الحسن بن سهل [رسالة المأمون الثانية إلى الامين وردّ الامين عليها سنة ١٩٤ هـ] (١٠/١٣٤) .

٢٧ - وذكر الحسن بن ابي سعيد قال : عقدنا لطاهر بن الحسين سنة ١٩٤هـ (١٠/١٣٩) .

هذه هي اهم الروايات التي اخذها الطبري عن مصادر رسمية وشهود عيان ومشتركين في الاحداث . وهناك - فضلاً عن ذلك - روايات كل من اسحق الموصلي مغني البلاط العباسي ، والفضل بن اسحق الهاشمي واخيه من اقطاب العائلة العباسية ، والاصمعي مؤدب اولاد الخلفاء ، وخالد بن خداش احد ابناء الداعية العباسي المشهور ، وآل صالح المقربين لدى العباسيين .

وقد اخذ الطبري عن هؤلاء جميعًا مباشرة أو بصورة غير مباشرة . فعندما يرد اسم احد هؤلاء في بداية السند يشير إلى اخذ الطبري عنه مباشرة وعندما يأتي في نهاية السند يشير إلى ان الطبري اخذ عنه بصورة غير مباشرة . كما اننا نلاحظ في بعض سلاسل الاسناد لدى الطبري بعض العلاقات العائلية داخل السلسلة مثل : ابن ، خال ، عم ، مما يشير إلى الجهد الذي

بذله الطبري في الاتصال بمزيد من الاشخاص ذوي العلاقة بالحادثة أو بأقربائهم ان لم يتيسر الوصول اليهم مباشرة .

وربما كانت صلة الطبري الوثيقة ببعض الشخصيات الرسمية أو بتلك التي لها علاقات بالعائلة العباسيّة الحاكمة ، سببًا في اسهابه لدى استعراضه لسيَر الخلفاء العباسيين ، حيث نجده يخصص الصفحات الطوال لاستعراض سير هؤلاء في مختلف جوانب شخصيتهم واخلاقهم وحياتهم الخاصة والعامة واوقات فراغهم ومرضهم ووفاتهم .. الخ . فهو يخصص – مثلاً – ثلاثين صفحة في استعراض سيرة ابي جعفر المنصور ، ويورد ما يزيد عن الخمسين رواية ، مستقاة من عدد كبير من الرواة والمصادر ، وكذلك الحال في عرضه لسيرتيْ المهدي والرشيد . كما ان احد اسباب اسهاب الطبري في الكلام عن ثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم ، يعود إلى اعتماده على كثير من شهود عيان لاحداث تلك الثورة ، بصورة غير مباشرة . وما يقال عن هذه الثورة يقال عن احداث الصراع بين الأمين والمأمون حيث يسهب الطبري في عرض وقائعها وجزئياتها في صفحات طوال .

٢ـ المصَادر المكتوبة

يعتمد الطبري في هذه الفترة بشكل ملحوظ على الوثائق والرسائل والسجلات والدواوين ونصوص العهود والمواثيق والخطب والتقارير الرسمية وغيرها من الوثائق التي لها صفة رسمية أو شبة رسمية ، فضلاً عن عدد كبير من القصائد وابيات الشعر ذات العلاقة بالاحداث العامة . ومن الملاحظ ان عددًا من الوثائق التي يعتمدها الطبري ترد دون اسناد مما يشير إلى ان الطبري حصل عليها مباشرة ودونما واسطة . وقد تكون علاقته ببعض الشخصيات الرسمية من اهم اسباب حصوله على هذا العدد الضخم من الوثائق والمستندات : من دواوين الدولة وسجلاتها ،

ويتضح هذا في ايراده وصايا الخلفاء. هذا الى ان اهتمام الرأي العام الإسلامي بحادثة من الحوادث وحفظهم للوثائق المتعلقة بها شفاهًا يسّر للطبري – وغيره من المؤرخين – الحصول على فحوى هذه الوثائق، فاننا نجد مثلاً ان اهتمام الناس بثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم كان سببًا في تمكين الطبري من ايراد معظم الوثائق المتعلقة بهذه الثورة

وفيما يلي اهم النصوص الوثائقية التي اوردها الطبري في هذه الفترة من تاريخه :

١ – وذكر ان [خطبة السفاح وداود بن علي سنة ١٣٢ هـ] (١٢٥/٩ – ١٢٧).

٢ – وقيل ان ابا مسلم كان هو الذي تقدم ابا جعفر فعرف الخبر فكتب اليه ابو جعفر سنة ١٣٦ [نص الكتاب] (١٥٥/٩).

٣ – قال عمر بن راشد قال حدثني يحي قال حدثني اسماعيل بن يعقوب قال [خطبة محمد ذي النفس الذكية سنة ١٤٥ هـ] (٢٠٥/٩).

٤ – قال عمر بن شبة وحدثني محمد بن يحي قال [الكتب المتبادلة بين المنصور ومحمد ذي النفس الذكية سنة ١٤٥ هـ] (٢٠٩/٩).

٥ – وحدثني عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن يحي بن ابي طالب قال : اخبرني ابي قال [وصية المنصور لعيسى بن موسى سنة ١٤٥ هـ] (٢١٧/٩).

٦ – وذكر عن جعفر بن ربيعة العامري عن الحجاج بن قتيبة بن مسلم [نص يوضح موقف المنصور من ثورة العلويين سنة ١٤٥ هـ] (٢٥٥/٩).

٧ - ذكر عن الهيثم بن عدي [وصية المنصور للمهدي سنة ١٥٨ هـ] (٩/٣١٩) .

٨ - وقال غير الهيثم [وصية المنصور للمهدي سنة ١٥٨ هـ] (٩/٣١٩) .

٩ - وذكر ابو يعقوب بن سليمان قال حدثتني حجرة العطارة قالت [وصية المنصور سنة ١٥٨ هـ] (٩/٣٢٠) .

١٠ - وذكر عن اسحق بن عيسى بن علي عن ابيه قال [وصية المنصور للمهدي سنة ١٥٨ هـ] (٩/٣٢٠) .

١١ - وذكر عيسى بن محمد ان موسى بن هارون حدثه قال [وصايا المنصور سنة ١٥٨ هـ] (٩/٣٢١) .

١٢ - ذكر علي بن محمد النوفلي ان اباه حدثه قال [عقد البيعة للمهدي سنة ١٥٨ هـ] (٩/٣٢٣) .

١٣ - [كتاب تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد سنة ١٦٠ هـ] (٩/٣٣١) .

١٤ - [نسخة كتاب المهدي إلى والي البصرة في رد آل زياد إلى نسبهم ، سنة ١٦٠ هـ] (٩/٣٣٥) .

١٥ - وذكر احمد بن القاسم انه حدثه عمه علي بن يوسف هذا الحديث فقال حدثني يزيد الطبري انه كان حاضراً يحمل دواة ابي يوسف ابن القاسم فحفظ الكلام قال [خطبة القائد يوسف بن القاسم لدى تولي الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ] (١٠/٤٨) .

١٦ - وذكر أبو يونس اسحق بن اسماعيل قال سمعت عبد الله بن العباس قال : [نص استعطاف يحيى البرمكي للرشيد سنة ١٧٦ هـ] (١٠/٥٧) .

١٧ - [تولية الرشيد لعيسى بن العكّي بلاد الشام ونص رد الاخير وثنائه عليه سنة ١٨٠ هـ] (١٠/٦٦) .

١٨ – فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وابراهيم الحجبي [كتاب العهد للامين والمأمون سنة ١٨٦ هـ] (١٠/٧٣) .

١٩ – [نص الكتابين المتبادلين بين الرشيد ونقفور سنة ١٨٧ هـ] (١٠/ ٩١ – ٩٣) .

٢٠ – [نص كتاب علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩١ هـ] (١٠/١٠٠) .

٢١ – [الكتابان المتبادلان بين الرشيد وهرثمة بن أعين سنة ١٩١ هـ] (١٠/١٠٣ – ١٠٨) .

٢٢ – [كتاب الامين إلى المأمون سنة ١٩٣ هـ] (١٠/١٢٤) .

٢٣ – [كتاب الامين إلى المأمون وجواب الاخير عليه سنة ١٩٤ هـ] (١٠/١٣٣) .

٢٤ – وذكر سهل بن هارون عن الحسن بن سهل [رسالة المأمون الثانية إلى الامين ورد الامين عليها ، وبعض الكتب الاخرى سنة ١٩٤ هـ] (١٠/١٣٤) .

٢٥ – [كتابا المأمون إلى الامين وعلي بن عيسى سنة ١٩٥ هـ] (١٠/١٤٤) .

٢٦ – [كتاب الامين إلى المأمون سنة ١٩٥ هـ] (١٠/١٤٦) .

٢٧ – [كتاب المأمون إلى الامين سنة ١٩٥ هـ] (١٠/١٤٩) .

٢٨ – [خطبة داود بن عيسى اثناء مبايعته للمأمون سنة ١٩٦ هـ] (١٠/ ١٧٠) .

٢٩ – وذكر عن المدائني [نص كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون بالفتح سنة ١٩٨ هـ] (١٠/٢٠٣ – ٢٠٥) .

٣٠ – [كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لدى توليته على ديار ربيعة سنة ٢٦ هـ] (١٠/٢٥٨) .

وهكذا نجد الطبري يورد هذا العدد الكبير من الرسائل والوثائق والكتب الرسمية في هذه الفترة القصيرة من تاريخه . ولو اننا احصينا ما

اورده من وثائق في كل من الفترات السابقة أو اللاحقة من تاريخه ، لما وجدنا ايا منها يبلغ هذا العدد الذي أورده المؤرخ في صدر الدولة العباسية ، للاسباب انفة الذكر .

الشّعــر

يهتم الطبري في هذه الفترة – كذلك – بايراد مزيد من النصوص الشعرية وبخاصة في أحداث الصراع بين الامين والمأمون بشكل لم تشهد له الفترات الاخرى مثيلاً في الكثرة . وهو يورد هذه العقائد والابيات عبر اخبار وروايات مسندة حينًا وغير مسندة احيانًا ، وعن شعراء ساهم قسم منهم في الأحداث الجارية تارة اخرى . وفيما يلي بعض الامثلة :

١ – وذكر عن جعفر بن ربيعة العامري عن الحجاج بن قتيبة بن مسلم [ثقة المنصور وقوته مع سبعة أبيات من الشعر سنة ١٤٥ هـ] (٩/ ٢٥٤) .

٢ – وذكر عن حيان بن عبد الله الحماني قال حدثني أبو نخيلة قال [قصة خلع عيسى وتولية المهدي سنة ١٤٧ هـ مع سبع وعشرين بيتًا من الشعر] (٩/٢٧٣) .

٣ – [سبب تحويل المهدي للحسن بن ابراهيم من سجنه سنة ١٥٩ ، مع سبعة ابيات من الشعر] (٩/٣٢٧) .

٤ – [اخبار متفرقة يوردها الطبري دون اسناد سنة ١٧٠ هـ يكثر فيها من الشعر] (١٠/٥٠) .

٥ – [الصراع بين القيسية واليمانية في الشام سنة ١٧٦ هـ مع خمسة عشر بيتًا من الشعر] (١٠/٦٠) .

٦ – [اخبار شبه مفصلة عن ثورة مصر وشمال افريقيا سنة ١٧٨ مع خمسة وعشرين بيتًا من الشعر] (١٠/٦٢) .

٧ – [خبر مطول عن حج الرشيد واعطاء العهد لابنائه سنة ١٨٦ مع

ثمانية ابيات من الشعر] (١٠/٧٢) .

٨ – [عدة مجاميع من الشعر في موضع نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ] (١٠/٨٧) .

٩ – [علاقات الرشيد ونقفور والكتب المتبادلة بينهما سنة ١٨٧ مع خمسة وثلاثين بيتًا من الشعر] (١٠/٩١ – ٩٣) .

١٠ – وذكر بعض من سمع عبد الله بن خازم [جوانب من لهو الامين سنة ١٩٥ هـ مع ستة عشر بيتًا من الشعر] (١٠/١٤٢) .

١١ – وذكر عن محمد بن منصور البارودي [رجحان كفة طاهر بن الحسين واضطراب الاوضاع الداخلية في بغداد سنة ١٩٧ مع مائة وخمسة واربعين بيتًا من الشعر] (١٠/١٧٥) .

١٢ – [حصار بغداد سنة ١٩٧ مع ست وعشرين بيتًا من الشعر لعمرو ابن عبد الملك الوراق العتري] (١٠/١٨٣) .

١٣ – [وقعة درب الحجارة سنة ١٩٧ مع عشرين بيتًا للعتري] (١٠/١٨٧) .

١٤ – [حصار بغداد سنة ١٩٧ مع شعر كثير للعتري] (١٠/١٩٠) .

١٥ – [خلاف خزيمة بن خازم مع الامين واستئمانه لطاهر بن الحسين سنة ١٩٨ مع تسعة ابيات من الشعر] (١٠/١٩٢) .

١٦ – وذكر عن علي بن زيد [وقعة باب الكرخ سنة ١٩٨ مع اربعة عشر بيتًا من الشعر للوراق العتري] (١٠/١٩٣) .

١٧ – ذكر ما قيل [في الامين ومرثيته سنة ١٩٨ مع عدة مجاميع شعرية لعدد من الشعراء] (١٠/٢٠٩) .

١٨ – وقال الحسين بن الضحاك يرثي الامين (ست وثلاثون بيتًا) ، وقال عبد الرحمن بن الهداهد يرثيه (ثلاث وثلاثون بيتًا) وقال خزيمة ابن الحسن (ست وثلاثون بيتًا) (١٠/٢١٠) .

والغاية من ايراد الشعر ضمن الرواية التاريخية أو في اعقابها هي نفسها لدى الطبري في جميع فترات تاريخه ، فهو يأتي به ليضفي حيوية على الموضوع وليحرك الموقف التاريخي ، ولكن الاهم من هذا هو ان الشعر يعد وثيقة مهمة للخبر التاريخي خاصة اذا انشده مساهمون في الاحداث ، ومن ثم نجد الطبري يكثر من ايراد ابيات وقصائد للعتري الوراق الذي كان احد المشاركين في احداث حصار بغداد وما رافقه من مآسي . هذا فضلاً عن ان الشعر يعتبر جزءًا مهمًا من الثقافة ، والتاريخ – في احدى نواحيه – انعكاس لهذه الثقافة .

مُعطيات الطّبري الشّخصيّة

قدم الطبري – في هذه الفترة – معلومات مهمة واسعة دون اسناد ، أي دون ان تنسب إلى مصدر ما شخصي أو مكتوب ، ونستطيع اعتبارها جزءًا من خبراته الخاصة أو مما حفظته ذاكرته ، كما يمكن اعتبارها مأخوذة عن مصادر شفاهية أو مكتوبة لم يشأ الطبري ذكر مصدرها لسبب ما . وتشير سعة هذه الروايات – على فرض انها من معطيات الطبري وثقافته الخاصة – إلى مدى قابليته على استيعاب الروايات التاريخية وحفظها بدقائقها وتفاصيلها وفيما يلي عرض لاهم المواضيع التي اوردها الطبري دون اسناد في هذه الفترة :

سبب قتال مسلم بن قتيبة لسفيان بن معاوية سنة ١٣٢ (١٢٣/٩) القبض على ابراهيم الامام سنة ١٣٢ (١٢٤/٩) محاولة ابي سلمة الخلال لتحويل الدعوة لصالح العلويين سنة ١٣٢ (١٢٨/٩) هزيمة مروان الثاني في الزاب سنة ١٣٢ (١٣٢/٩) خروج بسام بن ابراهيم بن بسام في خراسان سنة ١٣٤ (١٤٨/٩) شخوص خازم بن خزيمة إلى عمان وقضائه على الخوارج سنة ١٣٤ (١٥٠/٩) غزوة خالد بن ابراهيم لاهل كش سنة ١٣٤ (١٥٠/٩) توجه موسى بن كعب إلى الهند لقتال منصورابن جمهور

سنة ١٣٤ (١٥٠/٩) خروج زياد بن صالح وراء نهر بلخ سنة ١٣٥ (٩/ ١٥٠) توليه العهد للمنصور سنة ١٣٦ (١٥٤/٩) خلع جهور بن مراد العجلي للمنصور سنة ١٣٨ (١٧٠/٩) مقتل ملبّد الخارجي سنة ١٣٨ (١٧٠/٩) امر المنصور بحبس عبد الله بن علي ورفاقه سنة ١٣٩ (١٧٢/٩) نقض اصبهاذ طبرستان لعهود المسلمين سنة ١٤٢ (١٧٨/٩) غزو الديلم سنة ١٤٣ (٩/ ١٧٩) خروج استاذسيس في اهل هراة وما جاورها سنة ١٥٠ (٢٧٦/٩) غزوة الرشيد الصائفة من قبل ابيه سنة ١٦٥ (٣٤٦/٩). مبايعة الهادي سنة ١٦٩ (٢١/١٠) تولي الرشيد الخلافة ومنحه السلطات للبرامكة سنة ١٧٠ (٤٨/١٠) شخوص الرشيد إلى الري وتولية بعض العمال على المشرق سنة ١٨٩ (٩٥/١٠) خروج رافع بن الليث بسمرقند سنة ١٩٠ (٩٨/١٠) فتوحات الرشيد في بلاد الروم سنة ١٩٠ (٩٨/١٠) وصف للأيام التي أعقبت فتنة الامين والمأمون سنة ١٩٨ (٢٠٦/١٠) الحملة على ابن طباطبا وسبب موته سنة ١٩٩ (٢٢٩/١٠ - ٢٣٠) خروج ابراهيم بن موسى الطالبي في اليمن سنة ٢٠٠ (٢٣٢/١٠) توجه ابراهيم العقيلي ليحج بالناس وتراجعه سنة ٢٠٠ (٢٣٥/١٠) شخوص هرثمة إلى المأمون سنة ٢٢٠ (٢٣٦/١٠) حوادث الشغب ببغداد سنة ٢٠٠ (٢٣٧/١٠) محاولة أهل بغداد مبايعة المنصور بن المهدي سنة ٢٠١ (٢٣٨/١٠) مبايعة ابراهيم ابن المهدي بالخلافة في بغداد سنة ٢٠٢ (٢٤٥/١٠) ثورة الكوفة سنة ٢٠٢ (٢٤٥/١٠)، انتصار ابراهيم بن المهدي على سهل بن سلامة المطوعي ومعاقبته سنة ٢٠٢ (٢٤٨/١٠) توجه المأمون من مرو صوب العراق سنة ٢٠٢ (٢٤٩/١٠) خلع اهل بغداد لابراهيم بن المهدي واختفائه سنة ٢٠٣ (٢٥١/١٠ - ٢٥٤)، وصول المأمون العراق سنة ٢٠٤ (١٠/ ٢٥٤ - ٢٥٥).

هذه هي اهم المواضيع التي تشكل العمود الفقري لخبرات الطبري الشخصية، أي الروايات الاساسية التي اوردها دون اسناد ودون ان

يشير إلى أي مصدر سواء كان شخصيًا ام مكتوبًا . وقد قدم الطبري بعض هذه الروايات بتعابير تشير إلى صيغة المبني للمجهول مثل فيما ذُكر ، أو ذُكر ، أو قد قيل . اما الروايات الاخرى فلم تسبقها أي من هذه التعابير. هذا فضلاً عن انه يورد اسماء عمال الاقاليم في المملكة الإسلامية في نهاية كل سنة ودونما اسناد في الغالب ، وما يقال عن العمال يقال عن امراء الحج .

ويمكن – بصورة عامة – تقسيم خبرات الطبري الشخصية أو رواياته غير المسندة إلى ثلاث مجموعات اولاها روايات موجزة اشبه بالعناوين ترد في بدء كل حولية أو في ختامها ، وثانيتها روايات متوسطة الطول ، وثالثتها روايات مطولة قد يستغرق بعضها عدة صفحات .

إن سعة المعلومات التي يوردها الطبري في بعض المواضيع دون اسناد واعتمادًا على ذاكرته أو بادئًا اياها بكلمة ذكر أو قيل ، تجلب الشك ، اذ ربّما اخذ الطبري عن مصدر مكتوب لم يشأ ذكره أو ذكر مؤلفه ، وهو مجرد ظن قد يتضح أكثر خلال الروايات العديدة المطولة التي اوردها الطبري عن فترة الصراع بين الامين والمأمون . اذ ربما نقل الطبري بعض هذه الروايات عن الجزء الواسع المفصل المتبقي من كتاب احمد بن طاهر ابن طيفور عن تاريخ بغداد ، والذي يعرض مزيدًا من الدقائق والتفاصيل عن فترة الصدام هذه بمقدماتها ونتائجها . ولكن الشك يعود فيجابهنا ثانية باثارة هذا السؤال : لماذا ذكر الطبري الكثير من اسماء مؤلفي كتب اعتمد عليها ، واغفل ابن طيفور بالذات ؟؟

المواضيعُ الأساسيّة

مما يتعلق بموضوع مصادر الطبري عن هذه الفترة مسألة المواضيع التي اعطاها اهمية خاصة وركز عليها دون غيرها . فهو في هذه الفترة يصب اهتمامه على ثورات العلويين وخاصة ثورة محمد ذي النفس الزكية

واخيه ابراهيم ، وعلى البرامكة وكيفية وصولهم إلى السلطة وتوسيع سلطاتهم ثم نكبتهم واسبابها والروايات المختلفة عنها ، وعلى قضية الصراع بين الامين والمأمون . كما انه يقدم صورًا دقيقة بتفاصيلها عن سير الخلفاء العباسيين ومختلف جوانب شخصياتهم وميولهم واخلاقهم وحياتهم الخاصة والعامة وطبيعة أوقات فراغهم ولا سيما ما يتعلق بسيرة المنصور . اما موضوع بناء بغداد (مدينة المنصور المدورة) فلا يعطيه الطبري الاهمية التي يستحقها ، رغم انه يقدم بعض التفاصيل المهمة عن اهمية المنطقة وبناء المدينة المدورة (حوالي سبع واربعين صفحة) .

يخصص الطبري صفحات طوالاً (حوالي خمس وثمانين صفحة له) [9] لثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم ، وهي الثورة الوحيدة التي بسطها الطبري في هذا العدد الواسع من الصفحات . فقد اورد عددًا كبيرًا من الروايات ، واعتمد على عدد من الرواة على رأسهم عمر بن شبة ، واسهب في الجزئيات والمسائل الثانوية كالحديث عن سيف محمد ذي النفس الزكية وصفاته – مثلاً – وعرض روايات تتفق احيانًا ، وتتعارض احيانًا اخرى ، عن كل جانب من جوانب الثورة . كما أورد جل الوثائق والكتب والرسائل المتبادلة بين المنصور وزعماء الثورة .

ان اهتمام الطبري بهذه الثورة وتقديمه هذه المادة الواسعة عنها يشير ولا ريب إلى جملة ظواهر اولاها اهتمام الناس على المستوى الثقافي والشعبي بهذه الثورة وحفظهم الكثير من وثائقها ، حيث جاءت هذه الثورة كرمز للخلاص من خيبة الامل التي اصيبت بها جماعات كبيرة اثر انحراف العباسيين عن الاهداف التي اعلنوها خلال دعوتهم ، الامر الذي اكده وقوف كبار فقهاء الإسلام كمالك وابي حنيفة (رضي الله عنهما) إلى جانب

---

٩) الطبري ٩/١٨٠ – ٢٦٥ .

الثورة قولاً وعملاً . وثاني هذه الظواهر هي اهمية هذه الثورة من وجهة النظر التاريخية ، اذا انها هدّدت الكيان الجديد للدولة العباسية ، وكادت ان تقضي عليه . فضلاً عن انها شغلت فترة زمنية هامة من عمر الدولة الناشئة ، ومساحة مكانية واسعة امتدت بين مكة والمدينة جنوبًا والكوفة ومشارف بغداد شمالاً . وثالث هذه الظواهر ينصب على ميول الطبري نفسه واتجاهاته السياسية ، اذا ان الخط العام للروايات التي اوردها عن هذه الثورة يشير إلى ميله للثائرين ، ويلقي ظلاً خفيفًا على موقف المنصور وسياسته تجاه الثورة وزعمائها . واغلب الظن ان هذا الظل كان سيزداد عمقًا لو لم يكتب الطبري تاريخه في بيئة يحكمها العباسيون انفسهم[1] .

مرّ قبل قليل ان من اسباب توسع الطبري في ايراد تفاصيل هذا الحدث هو اهتمام القطاع الثقافي من المجتمع الإسلامي بهذه الثورة وحفظه الكثير من اخبارها ورواياتها التي اعتمد عليها الطبري في تقديمه هذه الصورة المفصلة . فما هي مصادر الطبري في هذا المجال ، ومن هم اشهر رواته ؟

اخذ الطبري تفاصيل هذه الثورة عن اخباريين مشهورين كعمر بن شبة والمدائني والواقدي وعمر بن راشد ، كما اخذ عن رواة من شتىٰ المدن والاقاليم مما يشير إلى مدى التوازن الجغرافي في معطياته عن هذه الثورة ، فضلاً عن اخذه عن شهود عيان ومساهمين في الاحداث ومقربين من الزعماء ، بل اننا نجده يأخذ من ابناء العلويين انفسهم . وقد مكنه جميع هؤلاء من جمع عدد كبير من الروايات يزيد عن المائتين والثلاثين رواية . ولكننا نجد من بين كل هؤلاء إخباريًا يقف في القمة ليقدم للطبري ما يقرب من مائة رواية تشكل العمود الفقري للمادة التي قدمها الطبري عن هذه الثورة ، ذلك هو عمر بن شبة صاحب الكتابات التاريخية الكثيرة

---

١) انظر ما يلي من هذا البحث للاطلاع على ميول الطبري واتجاهاته .

التي جعلت منه ومن رفاقه حلقات وصل بين مرحلتي الرواية والتاريخ في الإسلام .

يلي عمر بن شبة في مقدار الروايات في هذا المجال عمر بن راشد (خمسة وعشرون رواية) ثم محمد بن يحيي النيسابوري (ثلاثة عشر رواية) وعيسى بن عبد الله ومحمد بن اسماعيل (تسع روايات) واخباريون ورواة آخرون قدموا روايات متفرقة وهم : المدائني ، الواقدي ، نصر بن قديد ، ازهر بن سعيد ، الحارث ومحمد إبنا الحسن ، ابراهيم بن محمد ابن ابي الكرام ، علي بن اسماعيل بن هيفة ، ايوب بن عمر ، عبد الله ابن راشد ، محمد بن معروف وخالد بن خداش . اما الرواة الذين اعطى كل منهم رواية واحدة فيبلغ عددهم ما يقرب من الخمسين .

قضية البرامكة هي الموضوع الثاني الذي يسهب الطبري فيه ، فهو يورد الروايات المختلفة عن هذه العائلة وكيفية وصولها إلى الحكم وتفردها به ثم نكبتها واسبابها ، وهذا يشير بدوره إلى الدور الذي لعبته هذه العائلة على مستوى الحكم والمستوى الاجتماعي واهمية ذلك في تاريخ العصر العباسي الاول . كما تشير دراسة روايات الطبري عن هذا الموضوع إلى وجهته النقدية وتمحيصه للروايات وتقديمه الروايات المتباينة لتعليل اسباب نكبة البرامكة .

ويرجع الطبري في معظم اخباره عن هذه العائلة إلى بعض افرادها أو المقربين اليها ، كما يشير السند الذي ينتهي في غالب الاحيان باحد هؤلاء وبخاصة جعفر بن يحيي ومحمد بن اسحق الهاشمي وابراهيم بن المهدي .

يخصص الطبري ما يزيد عن الاربعين صفحة لموضوع الصراع بين الامين والمأمون حيث يسهب في عرض أسبابه وتفاصيله ونتائجه ، ويعرض عددًا كبيرًا من الكتب والرسائل المتبادلة بين قيادات الجانبين . ونجد

ان جزءاً كبيراً من روايات الطبري في هذا المجال غير مسندة ، وربما اعتمدها من بقايا كتاب لابن طيفور عن تاريخ بغداد ، لم يشأ الطبري ذكر اسمه ، كما سبق . الا ان هذا لا يمنع من ان عدداً كبيراً يتجاوز الاربعين من روايات الطبري عن الموضوع جاءت مسندة إلى ما يقرب من ثلاثين راوية وهم حسب اهمية ما قدموه : يزيد بن الحارث ، المدائني ، داود بن سليمان ، آل صالح ، علي بن يزيد ، الحسن بن ابي سعيد ، محمد بن يحيى النيسابوري ، الفضل بن اسحق ، اسحق الموصلي ، بعض الخدم ، سفيان بن محمد ، عبد الرحمن بن وثاب ، احمد بن عبد الله ، عثمان بن سعيد الطائي ، محمد بن يزيد التميمي ، محمد ابن منصور البارودي ، محمد بن المصعب ، عمرو العتري (وهو شاعر نقل عنه الطبري الكثير من الابيات) ، الحسين بن الضحاك ، يحيى بن سلمة الكاتب ، محمد بن عيسى الجلودي ، محمد بن اسماعيل ، سعيد بن حميد ، احمد بن اسحق ، والعباس بن احمد . ومن خلال اسانيده هذه نجد الطبري يعتمد في هذا الموضوع على مصادر شخصية لها صلة وثيقة بالاحداث ووظائف الدولة .

اما سِيَر الخلفاء فهو الموضوع الاخر الذي يستقطب اهتمام الطبري ، حيث يخصص لكل خليفة صفحات طوالاً . ويشير العدد الكبير لرواياته في هذه المواضيع إلى كثرة مصادره عنها سواء كانت شخصية ام مكتوبة . وقد اعتمد الطبري في هذا على رواة وثيقي الصلة بالخلافة والحاشية ووظائف الدولة كما اعتمد على بعض افراد العائلة العباسية نفسها . ويشير اهتمام الطبري بسير الخلفاء إلى اهتمامه بالخليفة الحاكم كمحور للتاريخ الإسلامي ، ولهذا علاقة بفكرته التاريخية واسلوبه مما سنعرض له فيما بعد .

اما موضوع بناء بغداد (مدينة المنصور المدورة) فقد تناوله الطبري

في موضعين ، تحدث في اولهما عن اختيار موقع بغداد وميزاته والقرى التي كانت منتشرة في المنطقة ، وتحدث في ثانيهما عن البناء والنفقات ومحاولة نقض ديوان كسرى وتنظيم الاسواق . وتتميز هذه الصورة التي يبسطها الطبري عن بغداد في ما يقرب من خمسين صفحة بانها متقطعة ، غير شاملة ، ويصعب ان نقرر لماذا اورد هذه المعلومات دون غيرها ؟ ولاريب ان هناك تكاملاً بين القسمين وان فصلهما حدث بسبب ضرورة تقسيم الاحداث حسب السنين .

والملاحظ ان معظم معلومات الطبري عن بغداد وردت في الجزء الاول من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وفي كتاب البلدان للهمذاني . الا ان الطبري استمد معلوماته من غير رواة الخطيب . والملاحظ – كذلك – ان الطبري لم يرو – هنا – سلسلة الاسانيد كاملة ، والغالب انه لم يأخذها من شيوخه مباشرة في معظم هذه الاخبار يكتفي بذكر (وذكر فلان) وفي بعض الاحيان لا يشير إلى الراوي مكتفياً ببناء الفعل للمجهول (ذُكر) مما يرجح انه نقل معظم اخباره عن كتب مدونة . والرواة الذين اعتمد عليهم الطبري – هنا – متعددون اورد كل منهم رواية واحدة أو عددًا قليلاً من الروايات .

لقد اورد الطبري في ثنايا مؤلفه عددًا كبيرًا من اسماء الاماكن والخطط والمعالم العمرانية لدى استعراضه احداثًا وقعت في بغداد ، الا انه – رغم ذلك – لم يعط صورة واضحة لهذه الخطط عند كلامه عن بناء بغداد . لقد اراد الطبري – قبل أي شيء آخر – ان يكتب تاريخًا سياسيًا وعسكريًا وكل ما عدا ذلك من امور لا تعدو ان تكون ظلالاً لهذا التاريخ . ومع ذلك فيندر أن نجد هذا العدد الكبير والصفحات عن بناء بغداد في معظم مصادرنا ، تاريخية كانت ام جغرافية .

فيما عدا المواضيع آنفة الذكر ، لا نجد الطبري يبدي اهتمامًا كبيرًا

بغيرها من الموضوعات فيعرض عنها صورة كاملة ، واضحة المعالم ، شاملة التفاصيل ، مما يجعل الصورة المعروضة عن هذه الفترة اشبه بمجموعة قصص تتضخم حيناً وتهزل احياناً اخرى بحيث لا تفي بالغرض . (هكذا يفتقد الطبري – هنا – التوازن الكلمي الذي علمنا اياه في الفترات السابقة . فمراكز الثقل في هذه الفترة تنحصر في مواضيع محدودة ، اما المواضيع الاخرى فهي اشبه بمعلومات عامة أو خطوط رئيسية تنقصها التفاصيل والاستمرار الزمني . بل اننا نجد كثيراً من المواضيع يكتفي بمجرد الاشارة اليها وكأنها عناوين فحسب[11] .

النّقـْـدوَالأسْـلوب

يظهر الطبري في هذه الفترة – شأن الفترات السابقة – متأثراً بثقافته وشخصيته كمحدث وفقيه ، فنجده يلتزم وجهة المحدثين في النقد الذي ينصبُّ على الاسناد حيث يهتم به الطبري ويثبته في كل خبر أو رواية مهما كانت صغيرة أو تافهة ، ويتجلى ذلك بصورة واضحة في المرحلة الاولى من هذه الفترة ، اذ يتجه الطبري – بعد ذلك – إلى عدم التأكيد على الاسناد والاخذ عن كتب شتى ، وربما كان سبب هذا الاتجاه قرب الفترة من عهده – نسبيًا – وكثرة المدونات والوثائق عنها . وعلى اية حال فالاهتمام بالاسناد واضح لدى الطبري خلال هذه الفترة . ولكن كما أن لهذا الاسلوب النقدي مزاياه فله عيوبه ، فالطبري يورد خلال حدث واحد يتعلق بثورة العلويين ، مثلاً ، سلسلة الاسناد بين حين واخر مما يؤدي إلى التكرار في معظم الاحيان ، كما يؤدي إلى ظاهرة الانقطاع في عرض الحديث[12] . وبالرغم من استخدامه الاسناد الجمعي على نطاق واسع الا ان هذا الانقطاع يتكرر ويشكل عقبة اساسية امام الوحدة

---

١١) انظر على سبيل المثال : التاريخ ٣٤١/٩ .

١٢) انظر على سبيل المثال : التاريخ ١٨٠/٩ – ١٨٨ .

الموضوعية للحادثة التاريخية .

وتبرز وجهة الطبري في النقد الخارجي هذا بايراده عدة روايات عن الموضوع الواحد ، أي في المقابلة بين هذه الروايات ؛ وتتكرر هذه المقابلة مرارًا عديدة ، فهو يستعمل تعبير (واختلفوا في ذلك) ثم يعقبه باستعراض الروايات المختلفة لرواته . كما انه يستعمل تعابير اخرى تتضح خلالها وجهته النقدية هذه مثل : (وقد قيل في هلاك قحطبة قول غير الذي قاله من ذكرنا قوله من شيوخ علي بن محمد ، والذي قيل من ذلك أن ....) [١٣] (اختلف في قدوم ابراهيم البصرة فقال بعضهم ...) [١٤] (فذكر بعض اهل بغداد ... وذكر عمرو بن سعيد ... وذكر بعضهم) [١٥] (واما المدائني فانه ذكر عن محمد بن عيسى الجلودي قال ...) [١٦] (وقيل كان خروج عبد الله الصحيح سنة كذا ...) [١٧] وعن مقتل جعفر البرمكي ترد هذه الاسانيد (ذكر الفضل بن سليمان ... وذكر عن علي بن ابي سعيد ان مسرورًا الخادم حدثه ... وذكر الزبير بن بكار ان جعفرًا بن الحسين اللهبي حدثه ... وذكر بعضهم ... وذكر محمد بن اسحق ان جعفرًا ابن محمد بن حكيم الكوفي حدثه قال حدثني السندي بن شاهك ....) [١٨] .

وبالاضافة إلى ما ذكرنا من امثلة ، فان عنصر النقد والمقابلة يظهر بشكل متكرر في عدد من المواضيع ترد دائمًا في نهاية الحوليات كالوفيات والصوائف والادارة على الحج وتواريخ الاحداث وتعيين ولاة الاقاليم

---

١٣) التاريخ ٩/١١٩ .
١٤) التاريخ ٩/٢٥٠ .
١٥) التاريخ ١٠/١٥٠ .
١٦) التاريخ ١٠/١٩٩ .
١٧) التاريخ ١٠/٢٥٨ .
١٨) التاريخ ١٠/٨٤ .

أو عزلهم . مثل : (واختلف في تاريخ وفاته – أي المنصور – فقال أبو معشر حدثني أحمد بن ثابت الرازي عمن ذكره عن اسحق بن عيسى ... وروى ابن بكار انه قال .. وقال الواقدي : كانت مدة ولايته ... وقال عمر بن شبة : كانت مدة ولايته ..)[19] (وغزا الصائفة في سنة – ١٧٥ – فلان وقال الواقدي أن الذي غزا الصائفة في هذه السنة فلان)[20] (وفيها – سنة ١٣٦ – توفي ابو العباس يوم ... بالجدري . وقال هشام بن محمد توفي يوم ... واختلف في مبلغ سنه يوم وفاته . قال بعضهم .. وقال بعضهم .. وقال الواقدي ....)[21] (وفيها – سنة ١٨٧ – قتل فلان في قول الواقدي واما غير الواقدي فانه قال في سنة ١٨٨)[22] . وهكذا .

وبالرغم من أن الطبري لا يبدي وجهة نظره الخاصة بالروايات المختلفة ، ويقف منها موقفًا حياديًا ، الا ان بعض التعابير التي يوردها في بداية اسانيده تنم عن ترجيح وتأييد لبعض الروايات ، وتضعيف وشك بروايات اخرى . فهو عندما يقول (ذكر) (قال) (حدثنا) (وقد حدثني) (واخبرني) فانه يوحي باطمئنانه إلى الروايات التي يوردها ، ولكنه عندما يقول (وزعم) (وحدثت) (في قول فلان) (واما فلان فانه ذكر) فانه يوحي بشكه وعدم اطمئنانه . وفيما عدا ذلك لا يبدي الطبري وجهة نظر خاصة تجاه اية رواية .

إن التأكيد على الاسناد وعرض روايات عديدة عن الموضوع الواحد يؤدي غالبًا إلى تقطيع وحدة الحدث . الا ان الطبري استخدم – من جهة اخرى – ظاهرة الاسناد الجمعي على نطاق واسع ، وذلك عن

---

١٩) التاريخ ٩/٢٩٣ .

٢٠) التاريخ ١٠/٥٣ .

٢١) التاريخ ٩/١٥٤ .

٢٢) التاريخ ١٠/٩٤ .

طريق ايراد عدة روايات يكمل بعضها بعضًا يتقدمها جميعًا مجموعة رجال الاسناد الذين اسهموا بدرجة أو اخرى بتقديم هذه الرواية المشتركة . وبهذا حافظ الطبري على وحدة عدد من المواضيع التي عرضها بهذا الشكل . ويستخدم الطبري اسناده الجمعي اما بصورة مباشرة ، اي مزج مجموعة روايات اخذها مباشرة عن رواته في عرض متسلسل واحد ، أو بصورة غير مباشرة عن طريق قيام أحد رواته بدمج الروايات من عدة اسانيد وتقديمها للطبري كواحدة متسلسلة . وهذه بعض امثلة الاسناد الجمعي المباشر :

(وحدثني محمد بن معروف قال حدثني ابي ، وحدثني نصر بن قديد قال حدثني ابي ، وحدثني عبد الله بن محمد بن البواب وكثير بن النصر بن كثير وعمر بن ادريس وابن ابي سفيان واتفقوا على جل الحديث واختلفوا في بعضه ...) [٢٣] (وذكر عن الفضل بن العباس بن موسى وعمر ابن ماهان انهما سمعا السندي يقول ...) [٢٤] (فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وابراهيم الحجّي ...) [٢٥] (ذكر محمد بن يزيد التميمي وغيره ...) [٢٦] .

اما الاسناد الجمعي غير المباشر فهذه بعض أمثلته : (كذلك قال الواقدي وغيره ...) [٢٧] (حدثني احمد بن زهير قال حدثنا علي بن محمد قال حدثنا سلمة بن محارب ومسلم بن المغيرة وسعيد بن اوس وابو حفص الازدي والنعمان ابو السري ومحرز بن ابراهيم وغيرهم ....) [٢٨] (وذكر

٢٣) التاريخ ٩/٢٤٤ .
٢٤) التاريخ ٩/٢٥٤ .
٢٥) التاريخ ١٠/٧٣ .
٢٦) التاريخ ١٠/١٧٤ .
٢٧) التاريخ ٩/١٤٨ .
٢٨) التاريخ ٩/١٥٩ .

عبد الله بن راشد بن يزيد قال سمعت الجراح بن عمر وخاقان بن زيد وغيرهما من اصحابنا يقولون ....)[29] (حدثني عبد الله بن راشد بن يزيد قال سمعت اسماعيل بن موسى البجلي وعيسى بن النضر السمانين وغيرهما يخبرون ....)[30] . (وحدثني خالد بن خداش بن عجلان مولى عمر بن حفص قال حدثني جماعة من اشياخنا انهم ...)[31] (قال الكرماني وحدثني غير واحد ...)[32] .

يقدم الطبري اخباره على اساس التسلسل الزمني أي العرض على توالي السنين ؛ وتقسيم التاريخ واحداثه على السنين يحتاج إلى جهد فائق من حيث تصنيف المادة وتقسيم الحادثة الواحدة على مداها الزمني وهذا يشير إلى مدى تمكن الطبري من التاريخ ، ولهذه الطريقة مزاياها وعيوبها التي سبق وان اشرنا اليها . وعدم المحافظة على الوحدة الموضوعية للحدث مراعاة للتسلسل الزمني ، تبدو عيوبه في بحث الطبري عن بناء بغداد ، اذ ربما كان سبب عدم اسهابه في عرض خططها ومعالمها العمرانية ، اعتبار بنائها حدثًا من الاحداث ، وبما ان الطبري يسير حسب النظام الحولي فانه ادخل هذا الحدث الحضاري في حولية ١٤٥ هـ ولم يعطه بابًا خاصًا مما يساعد على التوسع فيه كما فعل الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) .

ولكن مما يعوض عن هذا النقص انه يعطي لبعض الاحداث اهمية كبيرة بحيث تشغل معظم الحولية ، ولا تبدو الاحداث الاخرى بجانبها سوى اشارات عابرة لا تؤثر على الاستمرار الموضوعي للحدث ، ويتضح

---

٢٩) التاريخ ٩/١٩٧ .

٣٠) التاريخ ٩/٢٤٩ .

٣١) التاريخ ٩/٢٥٠ .

٣٢) التاريخ ١٠/٣٥ .

هذا في كتابته عن الصراع بين الامين والمأمون . واما ثورة العلويين فان حدوثها في اطار سنة واحدة ساعد كثيرًا على اظهار وحدتها الموضوعية وعدم تجزئتها ، وهي بحدّ ذاتها تشكل فصلاً رائعًا اشبه بكتاب متكامل لا تعوزه التفاصيل أو قواعد البحث سوى تكرار الاسناد مما يعرقل إلى حد ما الوحدة الموضوعية للحدث . ومما يؤخذ على الطبري – كذلك – انه يذكر – احيانًا – جزءًا من الخبر ثم يتركه إلى رواية جانبية ويعود ثانية إلى استئناف عرضه للخبر[٣٣] .

وطريقة الطبري في عرض اخباره على الاساس الحولي تسير وفق نظام قلما يشذ عنه فهو يبدأ حوليته في معظم الاحيان بايراد مجموعة احداث مختصرة بدون اسناد ، وينتقل من ثم إلى الاحداث المهمة حيث يذكر عنوانها ثم يورد تفاصيلها باسناد أو بدون اسناد ، ويعود بعد ذلك لاستعراض مجموعة اخرى من الاحداث السريعة الموجزة دون اسناد ، وهو في هذه الحالة يبدأ روايته مباشرة أو باحدى التعابير التالية (ذُكر) (فيما ذُكر) (قد قيل) . وفي ختام الحولية يعرض الطبري اسماء عمال الاقاليم وامراء الحج في تلك السنة ، وتغدو سلسلة الاسناد لهذه المعلومات واحدة لا تتنوع الا نادرًا حيث يبدو الواقدي المصدر الاساسي لها مما يجعلنا نتساءل هل كان للواقدي جداول احصائية عن عمال الاقاليم وامراء الحج في كل سنة ، ام انه اورد هذه المعلومات في ثنايا تاريخه الكبير الذي وصل إلى عهد المعتصم ؟

راعى الطبري إلى حد كبير فكرة التوازن الجغرافي والموضوعي في المصادر التي نقل عنها ، ففي المواضيع الهامة التي عالجها كان يفضّل المصادر القريبة من الحادثة أو على صلة بها . فهو فيما كتبه عن البرامكة يتجه إلى

---

٣٣) انظر على سبيل المثال : التاريخ ٩/١٦٠ .

رواة من العائلة نفسها ويتممّها بروايات مقابلة أو معارضة يأخذها عن افراد من العائلة العباسية ؛ وهو فيما كتبه عن ثورة العلويين يأخذ عن رواة من الحجاز وآخرين من العراق ولا سيما الكوفة ، أي انه يعتمد على رواة من جميع أنحاء المنطقة التي كانت مسرحًا للنشاط والثورة العلوية ، فهو يعرض لنا روايات علوية واخرى عباسية ، وثالثة محايدة . وهو في اخباره عن الصراع بين الامين والمأمون يعتمد على روايات عراقية وعباسية تمثل وجهة النظر العربية ، كما يعتمد على روايات خراسانية وفارسية تمثل وجهة نظر الفرس وانصار المأمون ، ويحاول قدر الامكان ان يكون محايدًا يعرض لوجهات النظر المختلفة دون تحزب أو تميّز .

يقدم الطبري مادته باسلوب انشائي فصيح هو الاسلوب الكلاسيكي الذي يستند في اساسه إلى مؤثرات الدراسات الفقهية واللغوية ونجد في هذا الاسلوب نوعًا من الرصف اللغوي الذي يعتمد كلمات وجملاً على طريقة اللغويين ، يقابله نوع من عدم الاهتمام بابراز الجانب الفني الجمالي للاسلوب . وهذا الاسلوب يختلف في خصائصه عن الاسلوب الذي يمكن ان نلمحه بوضوح لدى الدينوري – مثلًا – في كتابه (الاخبار الطوال) ، ويمكن اعتبار كلٍّ من هذين الاسلوبين مدرسة متميزة في الكتابة العربية . فالطبري – اذا صح التعبير – يمثل الوجهة الكلاسيكية بينما يمثل الدينوري وجهة جديدة هي تتابع تفاعله مع ثقافات الامم والشعوب ، وهي شبيهة إلى حد ما بالمدرسة الرومانسية التي ظهرت في اعقاب الكلاسيكية ونادت بالابداع . فنجد الدينوري – مثلًا – يعرض تاريخه باسلوب مشرق جميل ويسعى إلى احياء الموقف التاريخي عن طريق طرح مواقف عديدة للحوار بين ابطاله ، وهو يمزج هذا الحوار مزجًا داخليًا في صميم الاخبار التي يوردها . ولا نلمح هذا لدى الطبري الذي يكثر من ايراد النصوص من رسائل وخطب واضعًا اياها في ثنايا

اخباره بشكل مصطنع لا يساعد على احياء الموقف التاريخي ؛ وهو حتى فيما يورده من شعر لشاهدي عيان ومساهمين في الاحداث لا يبدو سوى ملتزم لنهج المدرسة اللغوية التي تعزز اراءها بايراد ابيات من الشعر .

وقد كان لالتزام الطبري نظام الحوليات في تاريخه اثر واضح في اسلوبه اذ منعه هذا النظام من عرض الحدث الواحد في اطار موضوعي شائق متسلسل – كما فعل الدينوري – كما ان استخدامه الاسناد بكثرة كانت له نفس النتائج السلبية فيما يتعلق بالاسلوب .

واسلوب الطبري هو مزيج من عناصر تاريخية محدودة تتعلق بالحروب والسياسة وسير الملوك ، وبعض العناصر القصصية – خاصة فيما يتعلق بثورة العلويين حيث نجد قصصًا واساطير في حنايا الاحداث – والطبري ، بالرغم من دراساته الفقهية الواسعة النطاق ، فاننا لا نلمح لديه – في هذه الفترة من تاريخه – اثرًا كبيرًا لتلك الدراسات ، فهو لا يقدم لنا قضايا فقهية في جانبها التاريخي – الحضاري ، ولا يحلل شخصيات الفقهاء ، خاصة وان هذه الفترة تمخضت عن الفقهاء الرواة في تاريخ الإسلام كمالك وابي حنيفة والشافعي وابي يوسف .

وفيما عدا ما قدمه الطبري عن بناء بغداد ، فان هذه الفترة تكاد ان تخلو من العناصر الجغرافية «ورجل مثل الطبري قطع شوطاً كبيرًا من حياته في التنقل في اهم الاقطار الإسلامية والتي كانت مركز الحياة الثقافية في الشرق القديم ، وزار المواقع التي كانت تجاور آثار اقدم مدن العالم ، وكانت تناديه ليكتب تاريخها كتابة شاهد عيان ، ان هذا المؤرخ لم يكتب عن مشاهداته ولم يتحدث عن الخرائب التي مرّ بها ، أو التي كان يتحدث عنها الناس ... ولم يدون شيئًا من تواريخ المدن التي مرّ بها على النقيض من المسعودي – مثلًا – الذي سجل في تضاعيف كتبه ملاحظات .. وتحدث عن عادات الشعوب التي زارها .. وغرائب الطبيعة وغير ذلك .

كل هذه الامور لم تلفت نظر الطبري ولم تحرك منه ساكنًا»[34] . ويعود السبب الرئيسي لهذا في ان الطبري كان «عالمًا مولعًا بالحفظ والرواية يهتم بالجمع وتركيز الروايات ، دون عناية بالفائدة العملية ، فلذلك تضاءلت وجهات نظره بازاء الرواة فلا يتبين رأيه بين معرض الآراء»[35] .

اما العناصر الاجتماعية فاننا نلمحها إلى حد ما فيما كتبه عن سير الخلفاء كالمنصور والمهدي والرشيد ، اذ يعرض الطبري لنا حياة القصور الاجتماعية بدقائقها ، ولكن هذا العرض لا يتعدى حدود الطبقة العليا الحاكمة إلى الشعوب والجماعات ، وهذا يقودنا إلى فكرة الطبري التاريخية .

فكرة الطبري التاريخيّة

ان البحث في فكرة الطبري التاريخية يتطلب دراسته في جميع معطياته التاريخية ، أي من خلال كتابه (تاريخ الامم والملوك) في جميع فتراته : المبتدأ والسيرة والتاريخ الإسلامي ، حيث نجده يعبر بوضوح عن فكرة كتابة تاريخ عالمي يتمثل بتوالي الانبياء ، وهذا ينعكس في العنوان ذاته الذي اورده ياقوت (تاريخ الرسل والانبياء والملوك والخلفاء) فهو يرى في توالي الانبياء الذين ارسلهم الله سبحانه لهداية البشرية حلقة مترابطة متماسكة تشير إلى وحدة البشرية ووحدة تاريخها الذي هو وعاء تجاربها . كما نلمح فكرة اخرى هي وحدة تجارب الامة واتصالها عبر التاريخ الإسلامي ، لذا يتناول فترة الرسالة ثم يليها بالكتابة عن الخلفاء الراشدين فالامويين فالعباسيين[36] .

ولكن المهم هنا هو دراسة فكرة الطبري التاريخية من خلال معطياته عن هذه الفترة أي صدر الدولة العباسية ، وبالرغم من قصر الفترة زمنيًا

---

٣٤) جواد علي : موارد تاريخ الطبري ، مجلة المجمع العلمي العراقي ١/١٧٠ .

٣٥) جواد علي : المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٣٦) انظر : الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب .

وكونها جزءًا يسيرًا من الزمن الطويل الذي تناوله الطبري مبتدئًا بالخليقة ومنتهيًا عام ٣٠٢ هـ ، الا اننا نستطيع ان نلمح فيها احدى جوانب فكرته التاريخية .

فالطبري يتخذ – هنا – من توالي الخلفاء عمودًا فقريًا لدراسته التاريخية فهو يقسم هذه المرحلة على اساس فترات الحكم لكل خليفة ، ويخرج قارئ هذه الفترة وقد تبلور في ذهنه ان الخلفاء هم مراكز الثقل والفاعلية فيها ، وان جميع الاحداث التي تقع في عصرهم انما يكون الخلفاء منطلقاً أو مردًّا لها ، والا فهي احداث جانبية لا اهمية لها بجانب هذه المراكز . ومما يؤكد ذلك اسهاب الطبري في عرضه لسير الخلفاء واعطائه صورًا شاملة تتعلق بتفاصيل الحياة داخل البلاط العباسي . وبجانب هذا الاهتمام يبدو البحث عن المجتمع الإسلامي واتجاهاته وفعالياته ضئيلًا . ويحاول (الحوفي) ان يبرر هذا الاتجاه لدى الطبري بقوله : «وقد يخفف من هذا المأخذ انه ليس بدعًا في هذا الاتجاه بين مؤرخي عصره ولا بين مؤرخي العالم قبل العصر الحديث ، فقد نهجوا جميعًا هذا النهج ، ومعذرتهم في عنايتهم بتاريخ الملوك انهم المسيطرون على الشعوب ، ولم يكن للشعوب ولا للرأي العام صوت في العالم إلى القرن الثامن عشر ، حتى نطالب الطبري بأن يسجل مظاهر قوتها ونهضتها ونظمها العامة في الاجتماع والاقتصاد والعادات» [٣٧] .

وهذان التبريران لا يقدمان اقناعًا تامًا ، فان اتجاه معظم المؤرخين المعاصرين للطبري في اتخاذ الملوك محاور للدراسة التاريخية ، لا يمنع الطبري – وهو احد كبار الرواة في حقول التفسير والتاريخ والفقة – ان يسلك طريقًا مخالفاً فيؤكد على الجانبين معًا خاصة وانه ثبّت كلمة (الامة)

---

٣٧) الطبري ، صفحة ٢١٩ ، سلسلة اعلام العرب .

في عنوان كتابه ذاته ، كمحدث وفقيه ومفسّر ، ادرك المفاهيم الاساسية للقرآن الذي لا يؤكد في استعراضه التاريخي على الملوك بقدر ما يؤكد على العبر الخليقة المنتزعة من سير الشعوب والجماعات ، فضلاً عن ان الفقه الاسلامي يطرح مفهوم (الاجماع) كمصدر من اهم مصادره. والحق ان تأثير القرآن على افكار المؤرخين واساليبهم بحاجة إلى دراسة مستقلة جادة لمعرفة الاسباب التي حالت دون الافادة من هذا المنهج العظيم في حقل التاريخ إلى المدى الذي يجب الذهاب اليه [٣٨].

اما ان الملوك كانوا هم المسيطرين على الشعوب وان هذه لم يكن لها رأي عام في الاحداث الا في القرن الثامن عشر فما بعد ، فهذا ما يرفضه التاريخ الإسلامي اشد الرفض ، فثمة امثلة كثيرة تفوق العد تؤكد دور الشعوب والجماعات في التاريخ الإسلامي ، هذا الدور الذي جاء الإسلام لكي يؤكده ويضع له الضمانات والحماية الكافية ، والذي عبر عنه العصر الراشدي اروع تعبير ، كما عبر عنه فيما بعد وقوف عدد كبير من قادة الرأي العام الإسلامي وعلى رأسهم الفقهاء بوجه أي انحراف قد يبدو من الخلفاء الحاكمين ، وفي موقف مالك وابي حنيفة من ثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم مثل واضح من ذلك.

في هذه الفترة ايضًا يعزز الطبري اتجاهه في التأكيد على الجوانب العسكرية من احداث التاريخ ، فيعرض تفاصيل واسعة عن الثورات المسلّحة ضد الخلافة العباسية كثورة العلويين ، وتمرد أبي مسلم الخراساني ، وثورة عبد الله بن علي العباسي ، والصراع بين الامين والمأمون باسبابه ونتائجه. وفيما عدا الصفحات التي خصصها الطبري لبحثه عن بغداد وخططها فانه قلما كان يتطرق لنواح تتعلق بالمجتمع والخطط والتيارات

---

٣٨) انظر كتاب (التفسير الاسلامي للتاريخ) للمؤلف (دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٧٥).

الثقافية والحضارية .

يتخذ الطبري – كما يبدو من دراسة هذه الفترة – موقف الاختبار وحرية الانسان في تشكيل مصيره ، فهذه العائلة العباسية بعد ان انحرفت عن تنفيذ البرنامج الاجتماعي الواسع الذي اعلنته في مرحلة الدعوة ، تجابه بثورات عديدة كرد فعل لهذا الانحراف ، وما ثورة محمد ذي النفس الزكية واخيه ابراهيم الا محاولة لتغيير نظام الحكم الجديد الذي لم يكن في حقيقته الا صدى لنظام الحكم الاموي مع تبديل في الوجوه . لذا يقف الطبري من هذه الثورة موقف العطف ويلقي ظلًا خفيفًا على سياسة المنصور وشدته تجاه مؤيديها[٣٩] . ولكن هذا لم يمنع من ان يقف الطبري في معظم الاحداث ملتزمًا جانب الحياد[٤٠] .

والطبري ، هنا ، واقعي يعرض الاحداث كما هي دون مبالغة أو تهويل . اذ نراه لا يتجه إلى المبالغة في ايراد الشائعات التي كثيرًا ما انتشرت في تلك الفترة . والحق ان فترة العصر العباسي الاول كانت ارضًا خصبة لنمو شائعات كثيرة ورواج اساطير شتى ، خاصة بعد ما اصيب الفرس بخيبة امل شديدة في استعادة امجادهم من وراء العباسيين الامر الذي جعلهم ينسجون الاساطير عن عودة أبي مسلم جديد ، لكي يملأ الأرض عدلًا بعد ان ملئت جورًا !! ولا نجد الطبري يأبه لهذه الاساطير فيما عدا مرتين أو ثلاث . ثم اننا لنجد واقعية الطبري وموضوعيته في تأكيده على النقد ولجوئه ، في كثير من الاحيان ، إلى المقابلة النقدية بين رواياته المختلفة لعرض الحقائق مجردة عن الهوى ، الامر الذي اوضحناه فيما سبق من صفحات .

---

٣٩) انظر على سبيل المثال : التاريخ ٣٢١/٩ – ٣٢٢ .

٤٠) انظر على سبيل المثال : التاريخ ٢٣٢/٩ ، ٢٦٠ .

دراسات بلدانيّة

(ملاحظات في خطط الحلّة)



تعرضت بغداد في الثامن عشر من شهر محرم لعام ٦٥٦ هـ لهجوم القوات التترية بقيادة هولاكو ، واضطر قائد الخليفة العباسي إلى التراجع بجيشه الضئيل إلى قلب بغداد ، وتسلل عدد من الاهالي هاربين إلى الحلّة والكوفة[1] . وخلال الحصار ارسل اهالي الحلة وفدًا علويًا إلى هولاكو ليلتمسوا اليه ان يعين لهم شحنة[2] فاجابهم إلى طلبهم وارسل كلًا من «خان بوكله» والامير «بجلي النخجواني» ثم الحق بهما الامير التتري «بوقا تيمور» لجس نبض اهالي الحلة والكوفة وواسط والوقوف على مدى اخلاصهم للتتر . وما ان وصل الوفد التتري إلى مشارف الحلة حتى خرج اهلوها للاستقبال فاقاموا جسرًا على الفرات ، واعلنوا الافراح ابتهاجًا بقدوم التتر . ولما شاهد بوقا تيمور ترحيبهم واخلاصهم غادر الحلة في العاشر من صفر متوجهًا نحو واسط[3] .

ما لبث التتر ان اخضعوا – في فترة قصيرة من الزمن – معظم انحاء العراق ، بعد ان قتلوا وفتكوا بعدد كبير من سكانه وخربوا مساحات

---

١) رشيد الدين فضل الله جامع التواريخ ، صفحة ٢٨٦ .

٢) هو الشخص المسؤول عن قضايا الأمن والادارة ، وهي وظيفة استحدثها السلاجقة . انظر : حسين أمين : نظام الحكم في العصر السلجوقي «مجلة سومر/مجلد ٢٠/سنة ١٩٦٤» .

٣) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق ، صفحة ٢٩٥ – ٢٩٦ .

واسعة من المواقع التي تصدت لهم . كما قتل معظم افراد البيت العباسي باستثناء البعض ممن استطاع الفرار والنجاة . ويمكن القول بأن المقاومة الجدية للغزو التتري بين سنتي ٦٥٦ و ٦٦٠ هـ لم تقم الا في الجانب الشرقي من بغداد ، وفي اربل وواسط والموصل[٤] .

وهكذا نجد ان مدينة الحلة لم تبد اية مقاومة للتتر ، ولم يلحقها ، بناء على ذلك ، الحرق والتخريب والتهديم في قليل أو كثير ، كما لحق المدن والمواقع الاخرى ، ومن ثم يمكن اعتبار هذه المدينة – من حيث خططها العامة – استمرارًا للعصر الذي سبق السيطرة التترية ، وان المصادر التي تصف خطط الحلة في الفترة السابقة هذه ، لابد وان تعطي ايضاحًا – في الخطط على الاقل – لتلك المدينة في الفترة التالية كذلك .

ومدينة الحلة حديثة العهد بالنسبة لمدن العراق الاخرى ، فبينما اسست البصرة والكوفة في مطلع القرن الاول للهجرة ، وانشئت واسط في النصف الثاني منه ، وبغداد في النصف الاول من القرن الثاني ، نجد الحلة قد اسست في اواخر القرن الخامس للهجرة . وهذه المدن جميعًا من نتاج الحضارة الإسلامية ، الا ان ما يميز الحلة عن المدن الاخرى في العراق ، ان تلك المدن انشئت بامر من خلفاء الدولة الإسلامية وتحت اشرافهم المباشر ، كما هو الحال في بغداد ، أو اشراف نواب عنهم كما هو الحال بالنسبة للبصرة والكوفة وواسط . اما الحلة فقد انشأها أحد الامراء المحليين ، وهو سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي ابن مزيد الاسدي ، وكان يسكن هو وقبيلته من بني اسد في منطقة النيل المتفرع عن الفرات الاوسط ، فلما قوي امره واشتد ازره وكثرت امواله ، لانهماك السلاجقة بالحروب والصراع فيما بينهم ، انتقل باهله وعساكره

---

٤) جعفر خصباك الادارة الايلخانية في العراق «مجلة كلية الاداب ، حزيران ١٩٥٩ ، صفحة ٣٠» .

إلى منطقة تدعى «الجامعين» ، غربي الفرات ، ليبعد عن ملاحقة السلاجقة ، وذلك في مطلع عام ٤٩٥ هـ ، وكانت هذه المنطقة «اجمة تأوي اليها السباع» فاستقر بقبيلته هناك حيث بنى واصحابه المساكن الواسعة والدور الفاخرة ، وسرعان ما غدت مدينة واسعة من أفخر بلاد العراق وأحسنها . واخذ التجار يقصدونها من كل مكان ، وغدت قصبة تلك المنطقة [٥] . ومن هنا غدا اسمها : الحلة بعد ان كان يطلق على المنطقة اسم «الجامعين» . فكلمة حلة لغة : «القوم النزول وفيهم كثرة» [٦] .

لم يمضِ سوى وقت قصير على انشاء الحلة حتى تفوقت في أهميتها وعمرانها على مدينة اخرى كانت قد انشئت في العصر الاموي في منطقة الفرات الاوسط ، وسميت باسم بانيها «قصر ابن هبيرة» ، وغدت في القرن الرابع الهجري اكبر مدينة بين بغداد والكوفة ، واشتهرت بكثرة اسواقها ، الا انه ما ان بدأ القرن السادس الهجري حتى كانت قد انحطت وضعف شأنها بارتفاع شأن الحلة ، بحيث ان موضعها اليوم اصبح غير معروف ، وان اشارت اليها الخرائط كمجموعة من الخرائب شمالي بابل القديمة [٧] . ولعل تحول الفرات المتعدد في مجراه كان سببًا في ذلك .

كانت الحلة تقع على الجانب الايمن من فرع الفرات الذي كان يسمى آنذاك نهر سورا ، وسرعان ما علا شأنها بسبب وجود جسر عظيم معقود على مراكب متصلة ، وصار طريق الحج من بغداد إلى الكوفة يمر بهذا الجسر بعد ان بطل الطريق المار بقصر ابن هبيرة والذي كان قد آل حينذاك إلى الخراب [٨] . واغلب الظن ان هذا العامل الديني ، وهو

---

٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، صفحة ٢٩٤ – ٢٩٥ .

٦) المصدر السابق ، ٢/٢٩٤ .

٧) كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، صفحة ٩٧ – ٩٨ .

٨) المصدر السابق ، صفحة ٩٧ – ٩٨ .

الحج ، كان له اثره الكبير في السرعة التي تميز بها نمو هذه المدينة ، اذ ان موقعها على طريق الحج بالقرب من العاصمة بغداد جعل منها المحطة الكبيرة الاولى لقوافل الحجاج السنوية التي تجتمع في بغداد من مختلف انحاء العالم الإسلامي ، ثم تتجه إلى مكة – تحت اشراف نواب عن الحكومة – مارة بالحلة . ويسهب الرحالة ابن جبير في وصف تلك القوافل المارة بالمنطقة ذهابًا وأيابًا ، فيشير إلى ان الخليفة العباسي هو الذي امر بعقد الجسر على الفرات اهتمامًا بامر الحاج واعتناء بسبيله ، وكانوا قبل ذلك يعبرون بالمراكب ... «ومن مدينة الحلة يتسلل الحاج أرتالًا ، وافواجًا افواجًا ، فمنهم المتقدم والمتأخر والمتوسط ، لا يعرج المستعجل على المتعذر ولا المتقدم على المتأخر ، فحيثما شاؤوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا ...» ويذكر كيف ان كثرة القناطر المعترضة طريق الحجاج بين بغداد والحلة هي التي كانت تضطرهم إلى التفرق وعدم السير سوية ، ومن ثم يجدون في الحلة مجالًا واسعًا لاعادة تجمعهم وتنظيم سيرهم من جديد تحت اشراف امير الحج الذي يعينه الخليفة لهذا الغرض ، والذي يقيم في الحلة – في كل موسم – ثلاثة ايام لتنظيم مسير الحجاج [٩] .

ان الذاهب إلى الحلة ، الان ، يجد على الضفة الغربية للنهر بقايا اسواق وخانات وبيوت قديمة تشير طريقة بنائها وتنظيمها وقدم آجرها إلى انها بنيت منذ عهد قديم يعود إلى عدة قرون . ولقد مر بنا شيء عن ظروف بنائها وتطورها . ومن ثم أخذت تنمو وتتسع بشكل تدريجي ، وقد ساعدها موقعها على ذلك ، فهي في منطقة خصبة كثيرة المياه كثيفة الزراعة ، بالاضافة إلى كونها تقع على خطوط المواصلات التجارية البرية والنهرية ، كما انها كانت – كما مر بنا – محطة مهمة لقوافل الحجاج القادمين من بغداد . وفوق ذلك كله لم تتعرض الحلة لهزات سياسية

٩) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ – ١٩٣ .

وعسكرية عنيفة كما حدث بالنسبة للمدن الاخرى كالبصرة على يد الزنج ، وبغداد والموصل على يد جحافل التتر .

وباستطاعتنا ان نلقي نظرة على خطط هذه المدينة ، في اواخر القرن السادس الهجري ، بحيث نستطيع تكوين صورة تقريبية لها ، هذه الصورة التي استمرت محتفظة بسماتها الرئيسية طيلة القرن السابع الذي هو مدار البحث . وعلى هذا ، فان الصورة التي قدمها ابن جبير اثر زيارته للحلة في اواخر القرن السادس ، تساعدنا على تصور معالم المدينة خلال القرون التالية ايضًا ، خاصة وان ابن بطوطة ، الذي زار المدينة خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، قد قارب في وصفه إياها سلفه ابن جبير إلى حد كبير .

فالحلة «مدينة كبيرة ، عتيقة الوضع ، مستطيلة ، لم يبق من سورها الا حلق من جدار ترابي مستدير بها ، وهي على شط الفرات ، يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها»[10] ولم يقتصر عمران الحلة على الجانب الغربي من الفرات بل امتد فشمل بعض مساحات الجانب الشرقي كذلك[11] .

هذا هو أهم ما تقدمه لنا المصادر عن خطط الحلة . وعلى كل ، فان الذي يميز المدينة كونها ممتدة بشكل مستطيل على ضفاف النهر ، وانها كانت في البداية تقتصر على الضفة الغربية ، ثم اتسعت وامتدت إلى الضفة الاخرى حيث اقيمت دور السكن والاماكن العامة والاسواق ، وهكذا غدا نهر الفرات يخترق المدينة من وسطها . الا ان سكنى الجانب الشرقي جاءت في وقت متأخر نسبيًا ، اذ ان ابن جبير لم يتطرق لذكر شيء من ذلك . وعلى ما يظهر لم تكن الحلة ، اثناء زيارته لها في اواخر

---

١٠) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ .

١١) المستوي القزويني : عن لسترنج ، المصدر السابق ، صفحة ٩٧ – ٩٨ .

القرن السادس الهجري ، قد شملت الضفة الاخرى . اما القزويني الذي ذكر ذلك فانه من معاصري ابن بطوطة «قبل منتصف القرن الثامن الهجري» . وهكذا راح هذا الجانب الجديد من الحلة يتسع ، حتى غدا – خلال عقود معدودة – ينافس إلى حد ما الجانب الغربي . ثم اننا نجد ان الحلة كانت تشابه بقية المدن الإسلامية في العصر الوسيط من حيث احاطتها بسور ، لم يبق منه في القرن السادس الهجري ، سوى بقايا جدار ترابي مستدير . وكان الامير سيف الدولة صدقة – مؤسس الحلة – قد بنى هذا السور من الطين [١٢] ليخلصها – إلى حد ما – من هجمات واخطار القبائل العربية المحيطة بالمنطقة .

كانت المدينة قوية العمارة ، وهذا ما يفسر وجود بقايا من آثارها حتى اليوم على الضفة الغربية للنهر . ويشير ابن بطوطة إلى كثرة هذه العمارة [١٣] ، وهذه الظاهرة ، بالاضافة إلى ازدحام السكان ، تشير إلى سعة الحلة وامتدادها – في فترة قصيرة – شمالًا وجنوبًا على نطاق واسع ، كما تشير إلى سبب في اتخاذ الضفة المقابلة منطقة للسكنى . واذا ما اضفنا إلى ذلك كثرة حدائق النخيل في المدينة ، داخلًا وخارجًا ، وانتشار دور السكنى بين هذه الحدائق [١٤] ، عرفنا مدى سعة المدينة .

ان اشهر ما كان يميز الحلة – كمدينة كبيرة – انتشار بساتين النخيل في مناطقها المختلفة ، تلك البساتين التي شجع صدقة بن مزيد على زراعتها [١٥] ، بحيث غدت الدور محاطة بهذه الحدائق ، فكان ذلك سببًا لرطوبة هوائها ، واعتدال مناخها . وربما كان كل بيت – في الحلة –

---

١٢) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ج ٩ ، صفحة ٢٣٦ .

١٣) تحفة النظار ، صفحة ٢٢٠ .

١٤) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ ، ابن بطوطة ، المصدر السابق ٢٢١ .

١٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٩ صفحة ٢٣٦ .

يحتوي على مجموعة خاصة به من اشجار النخيل ، كما كان سائدًا في بعض مناطق بغداد حتى العصر الحاضر ، وقد تفصل كل بيت عن الاخر مجموعة من الاشجار ، وبهذا لا يكون هناك اتصال مباشر بين البيوت مما يؤدي إلى كثرة الممرات والدروب وعدم تداخل مناطق السكنى مع بعضها ، على العكس مما حدث بالنسبة للكوفة والبصرة على سبيل المثال . وربما كانت البيوت تشكل مجموعات متصلة مع بعضها ، تفصل بين كل مجموعة واخرى حدائق النخيل ، والدروب التي تتخللها .

واغلب الظن ان جسر الحلة كان يعد من اهم معالمها العمرانية ، على الاقل بالنسبة للسواح الذين زاروها في تلك الفترة ، حيث نجد كلًا من ابن جبير ، وابن بطوطة من بعده ، يسرع في استعراض المدينة وبيوتها ومعالمها بكلمات معدودة لينتهي بالجسر ، حيث يسهب في وصفه فهو «جسر عظيم معقود على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط ، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالاذرع المفتولة عظمًا وضخامة ، ترتبط إلى خشب مثبتة في كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة»[١٦] . وقد مر بنا كيف ان الخليفة العباسي امر بعقد هذا الجسر على الفرات اهتمامًا بالحجاج واعتناء بسبيلهم ، وكان هؤلاء ، قبل ذلك ، يعبرون بالمراكب . ويشبه ابن بطوطة الجسرين المعقودين ببغداد بجسر الحلة[١٧] ، مما يشير إلى مدى ضخامة هذا الجسر واهميته .

وتخلو المصادر من تحديد مكان السوق الرئيسي والمسجد الجامع ، واغلب الظن انهما كانا أقرب إلى الضفة منه إلى الجهات الداخلية من المدينة ليكونا على مقربة من النهر الذي يشكل الطريق الحيوي للذهاب والاياب والنقل التجاري . كما انهما كانا متجاورين شأنهما في هذا شأن معظم

١٦) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ ، ابن بطوطة ، تحفة النظار ، صفحة ٢٢٠ .
١٧) تحفة النظار ، صفحة ٢٢٣ .

المدن الإسلامية . ومن المقطوع به انهما كانا يقعان في الضفة الغربية التي انشئت الحلة في ربوعها ، وهي التي تمثل الجانب الأكثر أهمية وقدمًا واتساعًا من الضفة الشرقية . هذا وليس بين ايدينا ما يشير إلى اماكن المؤسسات الاخرى في الحلة وبخاصة دار الامارة . ولمدينة الحلة «اسواق حافلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية»[١٨] ، ولا ريب ان غنى المنطقة الزراعي وموقعها التجاري على شبكة من طرق المواصلات البرية ، وصلاحية نهرها لسير السفن صعودًا وهبوطاً[١٩] وكونها محطة لقوافل الحجاج العظيمة ، قد ادى جميعًا إلى نمو اسواقها بحيث غدت حافلة جامعة للمرافق والبضائع المختلفة ، وكانت الحركة التجارية في اسواقها مستمرة[٢٠] وتهافت اليها التجار من كل مكان ومن ثم اصبحت من «افخر البلاد»[٢١] وتجب الاشارة –كذلك– إلى ان وجود عدد كبير من القبائل البدوية المحيطة بالمنطقة ادى إلى ان تغدو الحلة مركزًا تجاريًا لتبادل المنتجات بين المراكز البدوية والحضرية .

اما الصناعة فلابد وان تكون الحلة قد بلغت مرحلة بعيدة من الرقي في نشاطها الاقتصادي بحيث احتوت اسواقها عددًا كبيرًا من الصناعات الضرورية ، كما يشير كل من ابن جبير وابن بطوطة ، واغلب الظن ان الحلة كانت في هذه الفترة قد ورثت صناعات النسيج المختلفة وفنونها العريقة التي عرفتها منطقة الفرات الاوسط منذ قيام الحيرة في العهد الساساني ، وخاصة بعد ما لحق قصر ابن هبيرة من خراب ، اذ كان هذا الموقع هو المركز التجاري والصناعي في المنطقة قبل ظهور الحلة .

---

١٨) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ ، ابن بطوطة ، تحفة النظار صفحة ٢٢٠ .

١٩) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٩٠ .

٢٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، صفحة ٢٤٥ «حاشية» .

٢١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٢٢/٢ (طبعة ليبزج) ، ابن بطوطة ، المصدر السابق صفحة ٢٢٠ .

فاذا ما انتقلنا إلى النشاط الزراعي ، وهو الاساس الحيوي لاقتصاديات معظم البلاد آنذاك ، فاننا سنجد الحلة والمناطق المحيطة بها بستانًا واسعًا لانتاج شتى الغلال والثمار بسبب خصوبة التربة ووفرة المياه وملاءمة المناخ ، فضلًا عن اهمية موقعها الذي يشجع على تصريف هذه المنتجات .

ويصف ابن جبير الطريق الصاعد من الحلة إلى بغداد بانه «احسن طريق وأجملها في بسائط من الارض وعمائر ، تتصل بها القرى – أي المراكز الزراعية – يمينًا وشمالًا . ويشق هذه البسائط اغصان من ماء الفرات تتسرب وتسقيها» . ويشير إلى ان هذه الارض كانت منبسطة على امتداد النظر وان الامن فيها منتشر[٢٢] . وهذا ولا ريب من اهم العوامل المساعدة على ازدهار النشاط الزراعي في المنطقة . ولنستأنف رحلتنا مع ابن جبير على الطريق بين الحلة وبغداد إلى ان نصل «قرية تعرف بالقنطرة ، كثيرة الخصب ، كبيرة المساحة ، متدفقة جداول الماء ، وارفة الظلال «بأشجار» الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها .... والفينا حصاد الشعير بهذه الجهات .... وقرى هذه الطريق – من الحلة إلى بغداد – على هذه الصفة من الحسن والاتساع ...»[٢٣] والمنطقة بصورة عامة – فضلًا عن هذا الطريق – كثيرة القرى والمزارع والضياع والمراكز الزراعية[٢٤] .

واهم ما كانت تنتجه هذه المنطقة هو الحنطة والشعير والارز[٢٥] وقد بلغ انتاج الغلال هذا حدًا كبيرًا جعل المنطقة اشبه بمخزن لتزويد العاصمة

---

٢٢) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ – ١٩٠ .

٢٣) المصدر السابق ، صفحة ١٨٩ – ١٩٠ .

٢٤) انظر : ابن الوردي ، خريدة العجائب صفحة ٣٩ ، ورحلة ابن جبير صفحة ١٩٠ والاصطخري مسالك الممالك ، صفحة ٨٧ .

٢٥) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، صفحة ٨ ، ١٠ ، رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ – ١٩٠ .

بغداد بالغلال في اوقات الحاجة[٢٦] .

كما كانت تكثر في المنطقة زراعة الكروم[٢٧] وازدهر -كذلك- انتاج الفواكه المختلفة[٢٨] بسبب وفرة المياه وملاءمة المناخ . هذا فضلًا عن انتشار اشجار النخيل التي كانت تغل انواعًا مختلفة من أجود التمور[٢٩] . كما انتشر في المنطقة نوع من القصب استخدم في بعض الصناعات المحلية[٣٠] وقد ساعدت كثرة الانهار والسطوح المائية على انتشاره . واعتمادًا على هذا الازدهار الزراعي وبخاصة انتاج الغلال ، فضلًا عن كثرة المراعي بسبب وفرة المياه ، انتشرت مهنة تربية المواشي والاغنام للاستفادة من منتجاتها في تنمية الدخل الفردي لعدد من سكان المنطقة ، تلك التي شهدت اعدادًا كبيرة من قطعان الماشية والاغنام[٣١] .

ادى هذا النشاط الاقتصادي التجاري والصناعي والزراعي إلى زيادة سكان مدينة الحلة «وازدحامها بالخلق» [٣٢] وهنالك نص طريف يورده ابن جبير ، يشير إلى مدى ازدحام المنطقة المحيطة بالحلة بالسكان حيث يقول «رحلنا واجزنا جسرًا على نهر يسمى النيل -يقصد جسر الحلة- وكان عليه ازدحام ، فغرق كثير من الناس والدواب في الماء ، فتنحينا مريحين إلى ان انفرج ذلك المزدحم وعبرنا على سلامة وعافية

---

٢٦) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، صفحة ٤٤٧/٣٣١ .

٢٧) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ صفحة ٢٨٠ ، ياقوت (طبعة ليبزج ٤٤٧/١ ، ١٨٥/٣) .

٢٨) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٩١ .

٢٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٤/٩ ، رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة صفحة ٢٧٧ . ابن بطوطة ، تحفة النظار صفحة ٢٢٠ .

٣٠) ابن الجوزي ، المنتظم ٢٧/١٠ .

٣١) المصدر السابق ٢٩/٨ .

٣٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، صفحة ٢٤٥ (الحاشية) .

والحمد لله» ! ! [٣٣] .

ويشكل العرب الغالبية العظمى لسكان الحلة التي تقع في منطقة يقطنها عدد من القبائل العربية كبني اسد وبني عقيل وبني عبادة وبني خفاجة ، فضلًا عن ان نشأة الحلة واتساعها تم على يد امراء المزيديين من بني اسد الذين حكموا المنطقة فترة طويلة واعتمدوا على العرب إلى حد كبير . وإلى جانب العرب كان هناك عدد لا بأس به من الاكراد [٣٤] واليهود حيث يشير الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي توفي في العقد السابع من القرن السادس الهجري ، إلى ان عددًا من اليهود يبلغ زهاء عشرين الفاً كان يسكن بابل القريبة من الحلة [٣٥] هذا كما ان هناك عددًا من الأماكن اليهودية المقدسة كانت منتشرة في المنطقة ، كما كانت مدينة «قصر ابن هبيرة» كثيرة اليهود . ولما اندثرت هذه المدينة ، واتسعت الحلة على حسابها نزح كثير من سكانها – بما فيهم اليهود – واستقروا هناك ، منذ ذلك الوقت ، وهذا يفسر السرعة التي ازدهرت بها اسواق الحلة وفعالياتها الاقتصادية .

ومعظم سكان الحلة كانوا يدينون بالمذهب الامامي «الاثني عشري» ، وهم ينقسمون إلى طائفتين احداهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف باهل الجامعين ، «والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم ابدًا» [٣٦] وتورد المصادر عددًا من الروايات عن قداسة منطقة الحلة في نظر سكان تلك الجهات

---

٣٣) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٩٠ .

٣٤) ابن بطوطة ، صفحة ٢٢٠ ، وانظر ابن الجوزي ، المنتظم ٦٠/٨ ، ٨٨ ، ٢٠٥ .

٣٥) رحلة التطيلي ، صفحة ١٤٠ – ١٤١ وانظر ابن الجوزي ، المنتظم ٣٨/٩ ورشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، صفحة ٣٢ . ويتطرق ابن الساعي في كتابه «الجامع المختصر» صفحة ٦٥ إلى وجود بيت يهودي في الحلة هو بيت كمونة اليهودي وانه من البيوت المشهورة في القرن السابع الهجري .

٣٦) ابن بطوطة تحفة النظار ، صفحة ٢٢٠ .

وانتشار الاضرحة والمقامات فيها . فهنالك على مقربة من شواطىء الفرات بين الحلة والكوفة قرية تذكر الروايات ان النبي الاسرائيلي حزقيال مدفون بها ، وقد ابدى اليهود دائمًا تقديسهم الشديد لهذا الضريح ، فكانوا يحجون اليه ويقدمون له الصدقات الوافرة[37] . وفي مدينة الحلة نفسها انتشرت مشاهد «الجمجمة» ، والشمس ، والجامعان ، وعلي بن ابي طالب رضي الله عنه . وإلى اسفل من الحلة قرية تدعى «شوشة» يقبع فيها قبر أبي القاسم ابن موسى بن جعفر «رضي الله عنهم» [38] .

تأثر سكان الحلة بالاعتقادات السائدة حول الاضرحة والمزارات ، واصبحت لهم بالتدريج مجموعة من العادات والتقاليد المذهبية ، منها خروج مائة رجل من اهل المدينة كل مساء بكامل اسلحتهم ، حيث يتجهون إلى امير المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منه فرسًا مسرجًا ملجمًا أو بغلة «فيضربون الطبول والبوقات امام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ، ويتبعها مثلهم ، ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله أخرج . قد ظهر الفساد وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك ، فيفرق الله بك بين الحق والباطل . ولا يزالون كذلك ، وهم يضربون الابواق والطبول إلى صلاة المغرب . وهم يقولون ان محمدًا بن الحسن العسكري دخل المسجد وغاب فيه ، وانه سيخرج ، وهو الامام المنتظر عندهم[39] ويشير ابن بطوطة إلى ان اهل الحلة كانوا متطرفين في اعتقادهم المذهبي وانهم «رافضة غالية» . وكذلك الحال بالنسبة لعدد من القرى القريبة من الحلة[40] .

---

٣٧) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، صفحة ٣٢ .

٣٨) الهروي ، الاشارات إلى معرفة الزيارات ، صفحة ٧٦ .

٣٩) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠ – ٢٢١ .

٤٠) المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠ – ٢٢١ .

غدت الحلة في وقت قصير – بعد بنائها – عاصمة للمنطقة الوسطى من العراق ، وقضت على شهرة واهمية المدن الاخرى في المنطقة كالكوفة وقصر ابن هبيرة وغيرهما . وقد حكمت في هذه المدينة ، منذ تأسيسها عام **٤٩٥** هـ ، اسرة بني مزيد الاسدية حكمًا ذاتيًا ، فترة تزيد على نصف القرن[٤١] ، ظهر خلالها عدد من الامراء المزيديين الذين كان لهم دور في الاحداث السياسية التي شهدها العراق طيلة هذه الفترة . وقد ساعد وجود هذه الامارة في الحلة على نمو هذا المركز في شتى المجالات العمرانية والدينية والبشرية والاقتصادية ، حيث مرت الحلة في عهد هذه الاسرة – رغم طابعها البدوي – في فترة من الهدوء والاستقرار مهدت لنمو مرافقها المختلفة .

وفي عام **٥٥٩** هـ ، وجهت الضربة الاخيرة لبني مزيد الاسديين في الحلة ، حيث توجه اليهم الخليفة العباسي المستنجد بالله على رأس قواته ، وتمكن من اجلاء بني اسد – وبضمنهم المزيديون – عن المنطقة ، بمساعدة بعض القبائل المجاورة[٤٢] لذا نجد المدينة تغدو ، بعد هذا الهجوم ، مجالًا لتحكم القبائل العربية المجاورة .

وفي اثناء زيارة ابن بطوطة للعراق ، في اواخر العقد الثالث من القرن الثامن الهجري ، اشار إلى مدينة الحلة بقوله : «كان قد غلب عليها ، بعد موت السلطان – الايلخاني – ابي سعيد ، الامير محمد بن رميثة ابن ابي نمي امير مكة ، وحكمها اعوامًا ، وكان حسن السيرة يحمده اهل العراق ، إلى ان غلب عليه الشيخ حسن – الجلائري – سلطان العراق .....»[٤٣] .

---

٤١) انظر زامباور ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة ، مجلد ٢ ، صفحة ٢٠٧ – ٢٠٨ .
٤٢) ابن الاثير ، الكامل ، ١١/١١٩ – ١٢٠ .
٤٣) تحفة النظار ، صفحة ٢٢٢ .

وهكذا تقلبت الحلة بعد سقوط بني مزيد في ايد عديدة إلى ان غدت جزءًا من ممتلكات الدولة الجلائرية التي قامت في العراق على انقاض الايلخانيين قبيل منتصف القرن الثامن الهجري . وكانت حتى ذلك الحين من الاهمية والسعة بحيث جذبت اليها انظار الرحالة والجغرافيين ، فخصصوا لها فقرات من تصانيفهم لوصفها وتوضيح معالمها .

أهم المصادر

١ – الاصطخري : أبو اسحق ابراهيم بن محمد «ت ٣٤٦ هـ» .
مسالك الممالك : نشر دي غوية ، بريل – ليدن ، ١٩٢٧ .

٢ – ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتي «ت ٧٧٩ هـ» .
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار : بيروت ، دار صادر – ١٩٦٠ .

٣ – البكري : أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري «ت ٤٨٧هـ» .
معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع : تحقيق مصطفى السقا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥–١٩٥١ .

٤ – بنيامين : ابن يونه التطيلي الاندلسي «ر ٥٦١–٥٦٩ هـ» .
الرحلة : ترجمة عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ، بغداد – ١٩٤٥ .

٥ – ابن جبير : أبو الحسين محمد بن احمد الأندلسي «ت ٦١٤ هـ» .
الرحلة : دار صادر ، بيروت – ١٩٥٨/١٩٥٩ .

٦ – ابن الجوزي : ابو الفرج عبد الرحمن «ت ٥٩٧ هـ» .
المنتظم في تاريخ الملوك والامم : مطبعة دائرة المعارف ، حيدر آباد ، ١٣٥٨ .

٧ – ابن حوقل : ابو القاسم محمد بن علي «ت ٣٦٧ هـ» .
صورة الأرض : نشر دى غويه ، ط ٢ ، ليدن – بريل ١٩٣٨ .

٨ – رشيد الدين : فضل الله الهمذاني «ت ٧١٨ هـ» .
جامع التواريخ : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة – ١٩٦٠ .

٩ – ابن الفوطي : ابو الفضل عبد الرزاق «ت ٧٢٣ هـ» .
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة : المكتبة العربية ، مطبعة الفرات ، بغداد – ١٣٥١ هـ .

١٠ – الهروي : ابو الحسن علي «ت ٦١١ هـ» .
الاشارات إلى معرفة الزيارات : تحقيق سورديل ، دمشق – ١٩٥٣ .

١١ – ابن الوردي : عمر بن مظفر بن عمر «ت ٧٤٩ هـ» .
خريدة العجائب وفريدة الغرائب : المطبعة الشرقية مصر – ١٣١٤ هـ .

١٢ – ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله «ت ٦٢٦ هـ» .
معجم البلدان : بيروت ، دار صادر – ١٩٥٧ ، ليبزج ١٨٦٦–١٨٧٠ «تحقيق فستنفلد» .

نقـــد

(الصفحات الأخيرة من حضارتنا)

يبدأ (عبد الحليم عويس) بحثه[1] بالاشارة إلى أن (المكتبة الإسلامية والتاريخية حافلة بالدراسات والقصص حول الصفحات الوضيئة من تاريخنا .. ولكم كتب الكاتبون حول صناع الحضارة الإسلامية ولكم اطنبوا في الحديث عن ابطالنا وعن فضلنا على اوروبا وغير اوروبا . ولقد ظهر تاريخنا من خلال هذا التركيز وكأنه تاريخ اسطوري وكأن الذين عاشوه وأسهموا في صنعه ملائكة وليسوا بشرًا – صفحة ٤) . ثم يستعرض النتائج الخطيرة التي تمخضت عن هذا (المنهج) واولاها ترك مهمة التحليل العلمي لتاريخنا لأعداء هذا التاريخ الذين راحوا يركزون على الجوانب السلبية منه ، وثانيها ضياع الحقائق الموضوعية المتصلة بهذا التاريخ وانقسام الناس بصدده إلى قسمين قسم يرفضه بالجملة وآخر يراه كل شيء ، وثالثها أن التركيز المتزايد على (المديح) صرفنا عن الاستفادة الحقيقية من تاريخنا ودفع البعض إلى الاعتقاد بأن ما نعانيه في هذا القرن من مشاكل وتحديات نموذج لم يتكرر في تاريخنا ، فقادهم إلى طريق اليأس المسدود .

يبني الباحث منهجه – استنادًا إلى الرغبة الجادة في تجاوز هذا الموقف – على تناول الصفحات الاخيرة في حضارتنا من خلال التركيز (على سقوط دول إسلامية بعضها كان درسًا ابديًا حين كانت الامراض خبيثة وفتاكة ، وحينما ذهبنا نطلب الدواء من عدونا فكانت فرصته لاعطائنا السموم القاتلة – صفحة ٥) .

ولم ينس ان يشير إلى أن (أكثر الصفحات في حضارتنا كانت مجرد تغيير في هيئة الحكم بحثًا عن طموح شخصي ، أو انطلاقًا من دعوى عنصرية أو دفاعًا عن نعرة مذهبية ، أو فشلًا من دولة كبيرة جامعة كالعباسيين والامويين في السيطرة على كل ما تحت يدها مما يمنح الفرصة للمطامع ان تظهر وللنعرات ان تحكم – صفحة ٦) . ويعود الباحث

---

١) نشر المختار الإسلامي ، القاهرة – ١٩٧٥ .

ليشير في نهاية مقدمته إلى أن (هذا البحث دعوة لتشريح تاريخنا من جديد .. وبجرأة ، فلأن نشرحه نحن – بانصاف – اولى من أن نتركه لادعياء المنهج العلمي يشرحونه بحقد وعنف واجحاف – صفحة ٨) .

نلتقي – بعدئذ – بعرض مركز لخطواتنا الاخيرة في مراحل السقوط عبر ساحات ثلاث : الساحة الاندلسية فالمشرقية ثم المغربية ، وعبر كل ساحة من هذه الساحات يتجول الباحث ليقف قليلًا عند تجاربها المؤلمة واخطائها المدمرة وممارساتها الخاطئة التي قادت تجاربها السياسية إلى التدهور والسقوط ، محاولًا أن يسلط اضواءه على البقع السوداء من تاريخنا لتشخيص مواطن الداء وتبين الاسباب الحقيقية للضعف والتفتت والانهيار ، ومتجاوزًا بذلك مناهج الاجيال السابقة من مؤرخينا التي كانت تتعمد الاغضاء عن هذه البقع وكأن تاريخنا تاريخ مجتمعات ملائكية سداها الطهر ولحمتها النور – تلك المناهج التي اعطت الاشارة لمدعي المنهج العلمي في البحث ، فجاسوا خلال تاريخنا – وهم يحملون – مسبقًا – رؤيتهم المدخنة السوداء ، فما لبثوا أن وقعوا في الطرف الآخر من الخطيئة عندما تعمدوا الاغضاء عن مساحات الضوء في هذا التاريخ وكأنه تاريخ حفنة من الشياطين والمردة سداها الكراهية ولحمتها البغضاء .

في الساحة الاندلسية يحدثنا الباحث عن خطيئة التشبث بالغنيمة وكيف أنها أوقفت (آخر خطوات المد الإسلامي في اتجاه اوروبا)[١] . في معركة بلاط الشهداء (توقف المد . لأن بريق المادة غلب على اشعاعات

١) هنالك من يرى أن بلاط الشهداء لم تكن خاتمة الهجوم الإسلامي على اوروبا الغربية وان كانت غيرت من الاتجاه الاستراتيجي لهذا الهجوم حيث استهدف عبر العقود والقرون التالية سواحل اوروبا الجنوبية وجزر البحر المتوسط وحيث وصل المسلمون إلى اطراف سويسرا وانشأوا امارة لهم هناك . كما توغلوا في الجانب الغربي لايطاليا حتى حاذوا سهل لومباردي (انظر تاريخ غزوات العرب في فرنسا لرينو) .

الايمان . والذين يسقطون في هاوية البحث عن الغنائم لا يمكن أن ينجحوا في رفع راية عقيدة أو حضارة – صفحة ١٢)[٢] .

في عام ٤١٧ قضي – نهائيًا – على وحدة الخلافة في الاندلس بسقوط الامويين حيث (قامت على انقاضهم مجموعة دويلات هزيلة عرف عهدها بعهد ملوك الطوائف الذي كان من أكثر عهود المسلمين في الاندلس تفككاً وضعفاً وانحدارًا نحو هاوية السقوط) ويضع يده على السبب (إن هؤلاء الامويين لم يفهموا سمات التكوين الاندلسي ، أو فهموه ولم يقوموا بما تتطلبه طبيعته . وأبرز سمات هذا التكوين وجود النصارى في ترقب دائم لاية ثغرة ينفذون منها ، وتباين الاجناس التي تعيش على ارضهم وتستظل برايتهم ، لا يجمعها الا اقوى وشيجة في التاريخ وهي الإسلام . ولم يكن هناك من حل حضاري لمواجهة طبيعة هذا التكوين الا تعميق (الإسلامية) وتجديدها بين الحين والحين بحركات جهاد مستمرة ضد الممالك النصرانية المتحفزة .. وحركات جهاد تمتص (المشاكل الجنسية الداخلية ، وفي الوقت نفسه توقف النصارى عند حدودهم وتجعلهم في موقف الدفاع لا الهجوم – صفحة ١٤) .

تمزقت الاندلس الأموية ، ولم يجيء تمزقها وسقوطها دفعة واحدة ،

---

٢) في بحث حديث كتبه الدكتور علي المياح (استاذ الجغرافية في جامعة بغداد) ونشرته مجلة (المحارب) العراقية قبل ثلاث سنوات نلتقي بدراسة ميدانية للظروف والمصاعب الطوبوغرافية والمناخية التي جابهتها حملة الغافقي في اقاليم فرنسا الجنوبية الغربية ، وانها – وليست الغنائم – كانت السبب الرئيسي في هزيمة المسلمين . ويبدو أن مؤرخينا القدماء كانوا يتخذون من مسألة الغنائم في بعض الأحيان مشجبًا يعلقون عليه أسباب هزائم المسلمين بين الحين والحين . وان كنا لا ننفي هنا دور الاغراء المادي في مصائر الحروب .. فليست معركة أحد عنا ببعيدة . وليست أيات القرآن العديدة التي تؤكد هذه المسألة حتى على مستوى الجماعة المؤمنة نفسها ، ليست هي الاخرى ببعيدة .

فلقد (جرى عليها ما جرى على الفاطميين بعد ذلك في مصر ، وما جرى على المماليك ايضًا ، لقد ضاعت الزعامة منهم عبر انقلاب سلمي لم ترق فيه قطرة دم بالمعنى المباشر للانقلابات الدموية – صفحة ١٥) . ولقد ورث خلافة الامويين أكثر من عشرين حاكمًا في أكثر من عشرين مقاطعة أو مدينة (وقد انقسم هؤلاء الحكام إلى بربر وصقالبة وعرب وكانت بينهم حروب قومية لم تخمد اوارها طيلة السنوات التي حكموا فيها ، ولقد ترك هؤلاء الملوك المستذلون الضعاف الملوك النصارى يعبثون بهم ويتقدمون في بلادهم ، وانشغلوا هم بحروبهم الداخلية ، وباستعداء النصارى ضد بعضهم البعض ، وتسابقوا إلى كسب ود النصارى وامتهنوا بذلك كرامتهم وكرامة الإسلام فدفعوا الجزية ، وتنازلوا طوعًا عن بعض مدنهم للنصارى ، وحاربوا في جيوش النصارى ضد المسلمين من اخوانهم والمدن الاخرى من ارض الاندلس الإسلامية – صفحة ١٦) .

ويقف الباحث بعض الوقت عند تجربتي بني عباد وبني الاحمر (اخر قوة إسلامية في الاندلس) لكي يحلل طبيعة الاخطاء والممارسات التي قادتها إلى التدهور والزوال ، وهو تحليل ينسحب – ولا ريب – على سائر الدويلات العشرين التي شهدتها الساحة الاندلسية (فحين يبحث كل عضو منا عن نفسه تسقط سائر الاعضاء – صفحة ٢٥) .

في الساحة المشرقية ينتقل الباحث عبر مصارع بضعة عشر دويلة إسلامية ، مكثفًا في بدء عرضه للدويلة أو في ختامه ، القوانين والسنن التي قادت (التجربة) إلى البوار.. وهو التكثيف الذي اعتمده في كتابه كله والذي يعد بحق ابرع ما في البحث رغم تعميميته أحيانًا .

(الانتصار في معركة – يقول الباحث بصدد الحديث عن سقوط الدولة الطولونية في مصر – والحصول على مكسب وقتي ، والوصول إلى السلطة .. هذه كلها ليست هي قضية التاريخ ، ولا معركة التقدم البشري ..

بل هي عمومًا ليست من عوامل تحريك التاريخ إلى الامام أو الخلف على نحو واضح وضخم . ان الانتصار في معركة قد لا يعني الهزيمة الحقيقية ، فحين لا تتوفر العوامل الحقيقية للنصر يصبح أي نصر مرحلي عملية تضليل واستمرار للسير الخطأ وتماديًا في طريق الوصول إلى الهزيمة الحقيقية .. هكذا سار التاريخ في مراحل كثيرة من تطوراته .. كان النصر بداية الهزيمة ، وكانت الهزيمة بداية النصر . وحين يصل انسان ما إلى الحكم ، دون أن يكون معدًا اعدادًا حقيقيًا للقيادة ، ودون أن يكون في مستوى امته ، يكون وصوله على هذا النحو المسمار الاخير الذي يدق في نعش حياته وحياة الممثل لهم . والتاريخ في دوراته غريب ، وهو يعلمنا أنه لا توجد قاعدة ثابتة للتحول ترتكز على اسس متينة ، اللهم الاقاعدة التغيير من الداخل المرتكزة على عقيدة لها جذورها في اعماق النفس ، ولها انسجامها مع حركة الكون ولها صلاحياتها في البقاء والانتشار والخلود – صفحة ٣٢-٣٣) .

اما الصفارون في بلاد فارس فقد (سقطوا كما تسقط كل حركة انفصالية ترتكز على طموح شخصي وتفتقر الوعي بحركة التاريخ وبايديولوجية قتالية واضحة تستأهل الموت في سبيلها .. ودائمًا يعلمنا التاريخ الإسلامي : ان الاندفاع غير الموضوعي وغير المتناسق مع روح التطور ، لا مصير له الا الموت السريع – ٣٧) .

واما الاخشيديون في مصر فانه حتى لو لم يتم لجوهر الصقلي – القائد الفاطمي – أن يصل إلى حدود مصر فانهم كانوا سيسقطون بفعل عامل آخر . فعندما لا يكون هناك مبرر للوجود ، لا يكون ثمة دافع للبقاء . ولا تفعل القوى الخارجية التي تسيطر على الامم والشعوب سوى ان تتقدم في فراغ دون ان تصطدم بجدران حضارية أو صخور قوية راسخة بالعقيدة ، بمبرر الوجود ومؤهل البقاء – (صفحة ٤٠) .

ولم تكن الدولة السامانية فيما وراء النهر (أكثر من حركة قومية غرقت في احياء تراثها الخاص ، كما انها لم تكن أكثر من حركة انقلابية قامت باسلوب الطفرة غير الطبيعية وانتهت كذلك باسلوب الطفرة غير الطبيعية سنة ٣٠٨ هـ بعد أن عاشت في ظل حماية ضعف الخلافة قرنًا من الزمان - صفحة ٤٢-٤٣) .

أما البويهيون في بلاد فارس والعراق فما كانوا باكثر من اسرة متسلطة (وكما هي العادة في امثال هذه الاسرة .. أنها سريعة الانقسام على نفسها شديدة التنافس فيما بينها ، وهكذا سقطت الاسرة البويهية إلى حضيض الانقسام والتناطح الداخلي .. ان سيطرة عنصر من العناصر المتعصبة قوميًا أو المتأثرة بخلفية تاريخية لم تتخلص من شوائبها هو ابرز ما واجه ركب مسيرتنا الحضارية والتاريخية . وبالقومية المتعصبة وباصحاب النزعات المشبوهة وذوي الولاء لحضارات معاكسة لنا ولخطنا الحضاري .. بهؤلاء تمت عملية سقوطنا المتكرر في مراحل تاريخنا . لكن تاريخنا الذي تتدخل فيه ارادة الله بحفظ هذا الدين كي يظل المعلم المضيء في ليل البشرية الطويل المظلم ، هذا التاريخ يجد مع كل نكبة تاريخية أو فترة من فترات التداعي والهبوط ، من يعيد إلى الجسم حيويته ويمنع عنه السقوط القاتل . وهكذا انبعث من جديد ، من بين الاتراك انفسهم ، عنصر إسلامي مجاهد ، اعاد للخلافة شبابها ، ونجح قائد الاتراك السلاجقة (طغرلبك) سنة ٤٤٧ هـ في أن يقضي على دولة البويهيين .. لقد تعبت الامة من سيادة البويهيين اشد التعب .. وسقطوا .. لان التاريخ يعلمنا دائمًا أنه : بانفصال رأس الأمة عن جسدها تتعطل طاقات الحياة فيها - صفحة ٤٥-٤٦) .

واما الدولة الحمدانية في حلب فقد تمثلت قوتها في شخص هو سيف الدولة (وكعادة الدول التي ترتبط باشخاص تسقط بسقوطهم ..

وكان أكبر عامل حضاري زحزح الدولة الحمدانية عن مكانها في التاريخ أنها فشلت في الاستجابة للتحدي – البيزنطي – الذي كان أقوى منها ، ولم تنهج النهج السليم في مقاومته ، عن طريق ايجاد وحدة إسلامية تتجاوز الصراعات لتواجه الخطر الحضاري الكبير . وعندما تفشل دولة في الاستجابة للتحدي الذي يفرضه القدر عليها ، فانها ، وان قاومت قليلًا ، لا بد أن تسقط – صفحة ٥٠–٥١) .

والسلاجقة انفسهم سقطوا (لانهم لجأوا إلى نظام الاقطاعات واسندوا معظمها إلى شخصيات سلجوقية وقد حسبوا أن هذا من شأنه أن يشغل السلاجقة عن التفكير في الحكم ، وأن يرضيهم بالبعد عن السلطة ، لكن الاقطاعيين السلاجقة سرعان ما حاول كل منهم أن يكوِّن لنفسه من اقطاعاته امارات صغيرة حاولت كل منها الانفصال عن السلطة ، وهو عكس ما كان يهدف اليه السلاجقة الحكام . وقد ادى هذا إلى تفكك وحدة السلاجقة والى اجهاد السلطة السياسية المالكة .. وتبقى كلمة التاريخ الموحية : فان السلطة غير الحازمة ، والتي تقبل التهاون في وحدة الدولة ارضاء لبعض العناصر أو الشخصيات ، لا بد وأن تدفع ثمن تهاونها يومًا .. وهكذا كان يجب ان يفهم السلاجقة وغيرهم من زعماء الدول ، الذين يقبلون نصف الحكم أو شيئًا من الحكم ، دون وعي منهم بأن سيادة الدولة لا تتجزأ وبأن انصاف الحلول مقدمة طبيعية لزوال الحكم كله – صفحة ٥٢–٥٣) .

اما الفاطميون فقد مارسوا الخطأ القاتل باستعانتهم بعدوهم التاريخي ، وفقدانهم القدرة على الرؤية الصحيحة (والتسامح قضية كبرى من قضايا حضارتنا ، ومبدأ عظيم من مبادئ اسلامنا . لكن هذ التسامح – بترك الناس يحيون وفق معتقداتهم – شيء ، وتسليمك مقاليد الامور لهذا الذي ينتمي روحيًا لأعدائك ، ويشعر بتعاطف نحو من تحارب ، وتقل

حصانته - مهما يكن - عن اخيك المسلم .. تسليمك هذا شيء اخر بعيد عن التسامح .. انه نوع من الغفلة والحماقة ، أو بتعبير آخر نوع من الانتحار . وفي الدولة الفاطمية التي قامت في المغرب العربي سنة ٢٩٦ هـ وانتقلت قيادتها إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، كانت ظاهرة الاعتماد على اليهود والنصارى سمة من سمات الحكم في الدولة ، فمن هؤلاء كان كثير من الوزراء وجباة الضرائب والزكاة ، والمستشارون في شؤون السياسة والاقتصاد والعلم ، ومنهم الاطباء والثقات لدى الحكام ، وإليهم تحال معظم الاعمال الجسام .. وقد بلغ من حب العزيز الفاطمي لوزيره يعقوب ابن كلس اليهودي انه ترك له امر الدعوة إلى المذهب الفاطمي ، وكان هذا الاخير يجلس بنفسه يعلم الناس فقه الطائفة الاسماعيلية ، وقد الف نفسه كتابًا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز والعزيز الذي قال «وددت لو انك تباع فابتاعك بملكي» .. لقد نسى الفاطميون الاستراتيجية الإسلامية العالمية : «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» — صفحة ٥٤ ، ٥٦) .. فسقطوا ! !

أما الايوبيون فسقطوا لان الحكام الذين جاءوا بعد صلاح الدين كانوا اقل من صلاح الدين ، اقل بكثير (فلم يستطيعوا لعب الدور الذي لعبه ، وكان بعضهم متخاذلاً يؤمن بامكانية المفاوضات مع العدو الصليبي التاريخي — صفحة ٥٩) .

وعندما يجيء الباحث إلى الدولة العباسية يستبعد حركات الانشقاق وتحكم العناصر في سقوطها ، ويرى أن اخطر العوامل على الاطلاق هو اهمال العباسيين لركن هام من اركان الإسلام وهو (الجهاد) .. (لقد تقوقعوا في مشاكل الدولة الداخلية فحصرتهم وماتوا ببطء ، ولو انهم وجهوا طاقة الامة نحو الجهاد لتغير امر الحركات الهدامة التي قدر لها أن تظهر وتنتشر ، ذلك ان هذه الحركات لا تنتشر الا في جو مليء بالركود

والفساد ، والمناخ الوحيد الصالح للقضاء عليها هو المناخ القتالي الذي يكشف المعادن النقية ويذيب المعدن الرخيص .. والذين لا يملكون ارادة الهجوم يفقدون القدرة على الدفاع – صفحة ٦٢–٦٣) .

والمماليك في مصر سقطوا لانهم (نسوا الرسالة التي عاشوا من اجلها وتعاقدوا مع الشعوب التي حكموها بشأنها . نسوا رسالتهم في الدفاع الخارجي وتبلدوا عند اسلوب معين ، ولم يطوروا انفسهم ، ثم تطوروا فانقلبوا من حماية خارجية للامة إلى متسلطين داخليين عليها يمنعون حركتها وتطورها – صفحة ٦٥–٦٦) .

فاذا ما انتقلنا إلى الساحة المغربية فاننا نلتقي بحشد آخر من السنن والقوانين التي يفسر بها الباحث تدهور وسقوط تجاربها السياسية واحدة تلو الاخرى : الاغالبة في تونس والبحر المتوسط (لان الدول الانفصالية لا يمكن ان تقف امام الحضارات الجامعة التي تمثل كياناً له ابعاده الحضارية المتكاملة ، وهكذا فانهم لم يستطيعوا ان يصمدوا امام كيان الفاطميين الحضاري الزاحف وهم كيان له راية ايديولوجية يقف تحتها ، مهما اختلفنا في ابعاد هذه الراية أو هذه الايديولوجية – صفحة ٨٤) .

والخوارج في الجزائر لانهم (تحولوا في ظل دولتهم الرستمية إلى رجال حكم ودولة أكثر منهم رجال عقيدة ودعوة .. وجلي ان الذي لا يتقدم يكون عرضة للتأخر . وهكذا تأخر الرستميون بعد أن فقدوا روحهم النضالية – صفحة ٨٦–٨٧) .

والادارسة في المغرب لانهم لم يكونوا أكثر من مجرد حركة انفصالية ... (والسقوط – وان كثرت المقويات والمساعدات – هو مصير كل الحركات الانفصالية – صفحة ٩٠) .

والمرابطون في المغرب لان (.. حركة التاريخ التي تقودها سنة الله

التي لا تتخلف كانت تأكل دولة المرابطين التي تركت امرها لمجموعة من ضيقي الافق ومرتزقة الكلمة ، هؤلاء لا يفهمون اصول الإسلام .. ولا روح الحكومة الإسلامية الحقيقية – صفحة ٩٦) .

وبنو صنهاجة .. وبنو حماد .. والموحدون .. (ومن خلف مسيرة الدم والعنف ، بقي قانون الله في القصاص عبرة للذين يعتبرون ، فالدم هو طريق الدم ، اما الذين يحاولون صنع الانسان أو صنع حضارته فلهم طريق اخر .. طريق اخر كريم ونظيف – صفحة ١٠٤) .

تلك هي المسائل الاساسية التي يطرحها الاخ عويس في بحثه الذي بين يدينا .. ولنا أن نتساءل عن عنوان البحث نفسه (الصفحات الاخيرة من حضارتنا) هل كان الباحث دقيقاً في اختياره ؟ واذا كانت حضارتنا وحدة متماسكة لها شخصيتها ونفسها وملامحها وروحها ، بغض النظر عن قوة هذه الوحدة ومتانة تلك الشخصية أو ضعفها .. واذا كانت هذه الحضارة لم تأخذ – بمجموعها – طريقها نحو التوقف والتعثر والجمود – ولا اقول السقوط – الا في القرون الثلاث أو الاربع الاخيرة من تاريخ العالم ، واذا كان المؤلف نفسه يؤكد في مقدمة بحثه على ان اكثر هذه الصفحات الاخيرة (مجرد تغيير في هيئة الحكم) .. الم يكن الاولى تسمية البحث بـ (الصفحات الاخيرة من تجاربنا السياسية أو دولنا) .. ؟ ان البحث يحلل نهايات ما يزيد على العشرين دويلة أو تجربة سياسية إسلامية ، فهل يعني ذلك ان (حضارتنا) كانت قد سقطت ما يزيد على العشرين مرة ، ثم عادت إلى الحياة من جديد في اعقاب كل سقوط ؟

ان الذي حدث على مسرح تاريخنا اذن لا يعدو بمجموعه ان يكون حركة تغيرات نسبية كانت تحدث دائماً تبدلًا في جغرافية العالم الإسلامي السياسية ، ولكن حضارته ظلت – في تأرجحها بين الاتباع والابداع ، بين البطء والاسراع – تملك ديمومتها واستمراريتها عبر الحدود الاقليمية

المتبدلة ، وعبر حركات الانفصال التي اكد المؤلف نفسه ، اكثر من مرة ، على انها ما كانت لتنطفىء الواحدة تلو الاخرى لولا انها كانت بمثابة الشذوذ عن الارضية الواحدة لحضارتنا ووجودنا .

فأما ان كان هدف الباحث ان يحدثنا عن الصفحات الاخيرة من التجارب السياسية في حضارتنا فما كان احراه ان يسمي بحثه (الصفحات الاخيرة في حضارتنا) من اجل ان يزيل من ذهن القارئ أي لبس أو غموض .. هذا اذا لم أكن مخطئًا في فهم العنوان وهو الارجح .

فاذا ما جئنا إلى المقدمة فاننا نلمح بين سطورها رغبة الباحث الجادة في اعتماد ذلك المنهج الموضوعي العادل في التعامل مع تاريخنا ، المنهج الذي يبحث عن الاسود والابيض في الوقت نفسه ، والذي كان مالك ابن بني – رحمه الله – قد دعا إلى ضرورة الاخذ به – كما حذرنا من نقيضه – في بحث له عن الاستشراق بعنوان (انتاج المستشرقين واثره في الفكر الإسلامي الحديث) ونذكر قوله بهذا الصدد (.. هكذا اصبح الفكر الاسلامي ، على اثر الصدمة الثقافية التي اجتاحته ، وما تسبب عنها من مركب نقص . ينحاز إلى معسكرين : احدهما يدعو لتمثل الفنون والعلوم والاشياء الغربية – حتى اللباس – والآخر يحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس .. للتغلب على المهانة التي اصابته من الثقافة الغربية المنتصرة ، كما يبحث المدمن عن حقنة المخدر التي يستطيع بها مؤقتًا اشباع حاجته (المرضية) . ثم يضرب مالك ابن بني مثلًا على ذلك فيقول (إننا عندما نتحدث إلى فقير لا يجد ما يسد به الرمق اليوم ، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه واجداده ، انما تأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل فكره مؤقتًا وضميره عن الشعور بها ، اننا قطعاً لا نشفيها . فكذلك لا نشفي امراض مجتمع بذكر امجاد ماضية . ولا شك ان اولئك الماهرين في فن القصص قد

قصوا للاجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصة الف ليلة وليلة ، وتركوا بذلك ، اثر كل سمر ، نشوة تخامر مستمعيهم حتى يناموا فتنغلق اجفانهم على صورة ساحرة لماضٍ مترف . ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير في الغد فتنفتح ابصارهم من جديد على مشهد الواقع القاسي الذي يحيط بها في وضعها الذي لا تغبط عليه اليوم .. وأن الاعجاب بالشيء الغريب لم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية والميكانيك – صفحة ١١–١٤) .

ومن اجل الا يحتوينا هذا الموقف الخاطيء في تعاملنا مع تاريخنا علينا ان نتحول إلى موقع اكثر علمية وايجابية وانفتاحًا ، موقع نتحمل فيه مسؤولية الرؤية الشاملة لمواضع الخطأ والصواب ، والنقد البصير للحدود الدقيقة الفاصلة بين الاسود والابيض ، والانتقاء الواعي لكل ما من شأنه ان يشعل الاضواء في طريقنا صوب المستقبل ، ويقدح شرارة الايمان والثقة في نفوسنا من اجل ان نتحول من حالة (السكون) التي نعانيها ، إلى حالة (حركية) لا تدع الزمن والتراب وسائر المكونات الحضارية تفلت من بين ايدينا .

ولقد اسهم الاخ عبد الحليم عويس في بحثه هذا – الذي كان يمكن ان يكون اكثر اتساعًا وامتدادًا من الصورة التي اخرج بها – ومن قبله الاستاذ انور الجندي في كتابه (الإسلام وحركة التاريخ) ، اسهامًا اصيلًا لتنفيذ هذا المنهج الذي يتجاوز موات الاكاديمية وحقولها البور ، ويتشبث – في الوقت نفسه – بالاسلوب العلمي الذي يرفض تحويل العمل التاريخي إلى (غنائية) فخر أو مديح أو رثاء تضع بين القارئ المسلم وبين عصر (الفعالية والميكانيك) سدًا من الغفلة والغيبوبة والنسيان ، وتعطي الاشارة لمدعي العلمية من الماديين والمستشرقين كي يجوسوا وحدهم في تاريخنا لكي يطفئوا اضواءه جميعًا ، ويسحقوا زهراته البيضاء .

الا ان الباحث في تلمسه لمواقع السلب في صفحاتنا الاخيرة ، ورفضه لظاهرة الانفصال والتجزؤ ، ودفاعه - الذي يتردد صداه اكثر من مرة - عن الوجود العباسي باعتباره الدولة أو الحضارة الجامعة (وهو تعبير يقتبسه المؤلف - كما يبدو - من مصطلحات توينبي المعروفة) .. لا يقدم تأكيدًا كافيًا - في صلب بحثه - على أن المسألة ليست مسألة وحدة الارض والخلافة العباسية - على خطورة هذا الجانب - بقدر ما هي وحدة الحضارة الاسلامية وحيويتها وتدفقها وابداعها .. ومن ثم فان التفكك السياسي والتساقط الدوري المستمر للدويلات الاسلامية ، قد لا يبدو شرًا كله ، لا سيما اذا تذكرنا ان الخلافة العباسية ، في عصورها التالية ، كانت قد استنفذت طاقاتها تقريبًا واصبحت اعجز من ان تلعب دورًا قياديًا وتتسلم زمام المبادرة في نهر التاريخ المتغير .. وان الكيانات الشابة التي ولدت من رحم الخلافة الام كانت اكثر صلاحية لاداء هذا الدور .

هذا رغم ان المؤلف كان قد أشار في مقدمة بحثه اشارة ذكية الى هذه المسألة بقوله (ونحن لا نستطيع القول بأن هذه الصفحات كانت كلها خيرًا أو شرًا ، ولعل بعضها كان لفتة قوية للدول الكبرى كي تسير في الطريق الاسلامي الصحيح ، كما اننا كذلك لا نميل إلى القول بأن هذه الصفحات التي ادت إلى تغيير دولة بدولة أو حكم بحكم كانت تسير بالامة في طريق الهاوية ، فلا شك أن ثمة مزايا اخرى يمكن أن تكون قد تناثرت على الطريق . انني لا اميل إلى ما يعتقده البعض من أن التاريخ يسير في طريق عمودي سواء إلى اعلى ام إلى اسفل ، ان تجربة تاريخنا الاسلامي تكشف لنا أن حركة التاريخ في دائرة الحضارات الكبرى الجامعة - كالحضارة الاسلامية - حركة لولبية - ان صح هذا التعبير - فثمة انحناءة إلى اسفل في جانب تقابلها انحناءات إلى اعلى في جوانب

أخرى ، فهي حركة دورية تنتظمها مراحل الهبوط والصعود . الهبوط بفعل التناحر والفساد الداخليين ، والصعود بفعل الاستجابة لتحديات خارجية قوية . ومن الملفت للنظر ان مراحل الهبوط – في التجربة التاريخية لهذه الامة – قد ارتبطت باوضاع داخلية ، فهذه الامة لم تضرب من خارجها بقدر ما ضربت من داخلها ، بل ان الاعداء الخارجيين لم ينفذوا اليها الا من خلال السوس الذي ينخر فيها من الداخل .. ولقد افادنا الاعداء بتدخلهم كثيرًا ، وغالبًا ما كان لتدخلهم فضل ايقاظ الضمير الاسلامي أو اعلان الجهاد العام أو اظهار (صلاح دين) أو (سيف دين) مما من شأنه ان يجمع المسلمين تحت راية واحدة) ويمضي عويس إلى القول (لقد كانت الامة المسلمة قادرة ، بما فيها من عناصر القوة الكامنة ، على الاستجابة للتحديات الخارجية ، كأروع ما تكون الاستجابة للتحديات ، لو لم ترهق هذه الامة – في اغلب مراحل تاريخها – بحكام يشلون حركتها ، ويخنعون امام اعدائها ، ويبددون من طاقتها حفاظًا على انفسهم . لو لم تكن هذه الظاهرة مستشرية على هذا النحو ، ولو ان هذه الامة قد تركت لفطرتها وتراثها وقيمها وحضارتها التي غرسها ورعاها الاسلام ، لو تم هذا لكان في الامكان أن تحدث منعطفات كثيرة في تاريخ هذه الامة هي لصالحها ولحساب رقيها وازدهارها : صفحة ٦–٧) .

واذ تبدو هذه المسألة على درجة كبيرة من الاهمية ، فيما نحن بصدده ، فلنا أن نقف عندها بعض الشيء .

ان التمزق الذي اصاب جسد الدولة الاسلامية بعد عقود فحسب من نجاح العباسيين في تأسيس دولتهم ، وظهور عدد من الامارات والمدن المستقلة ، في انحاء العالم الاسلامي ، رغم انه يعد بحد ذاته ظاهرة سلبية ومرضًا عرضيًا خطيرًا يدعو للتأمل والنقد ، الا ان امة متحضرة كالامة الاسلامية في ذلك العصر ، كان بامكانها أن تحول هذه الظاهرة ،

التي تبدو حتمية مقفلة ولا مناص مما قاله الله سبحانه : ﴿وتلك الايام نداولها بين الناس﴾ .. تحولها إلى (حركة) ايجابية مثمرة في مجالي السياسة والحضارة .. حيث صرنا نجد عددًا من الدويلات تنشأ حيوية قوية ، لكي ترد على العدوان الذي كان يتهدد حدود الإسلام باستمرار في الغرب والشرق والشمال ، في وقت كان مركز الدولة الاسلامية فيه يعاني مرضًا وشيخوخة زمنية وارهاقًا وغيابًا مكانيًا ، لم يتح له ان يقوم بالتصدي الفعال لهذه الاخطار .. كما صرنا نجد عددًا من الدويلات تنشأ لكي تزيد من حدة التنافس الحضاري بين امارات المسلمين ، ولكي تعمق مجرى الحضارة الاسلامية وتغنيها بمزيد من المعطيات ، الامر الذي دفع تلك الحضارة خطوات واسعة عريضة الى الامام .. ثم اننا صرنا نجد عددًا من هذه الدويلات يعيد بعث روح الجهاد في نفوس المسلمين ، ويصوغ تنظيمات عسكرية وعقائدية وسياسية لتحقيق هذا الهدف العظيم الذي لولاه لما قامت للاسلام قائمة . ولو أن تمزقًا سياسيًا وجغرافيًا كهذا اصاب امة منحلة متعبة مكدودة لاطاح بها وبمقدراتها ولقدمها لقيمات سائغة لاولئك المتربصين بها على الحدود .. وشواهد التاريخ كثيرة في هذا المجال .

هذا هو القانون الحضاري الذي لا يخطىء : ان امة تتميز بالتحضر والحيوية – وهما بلا شك امران متلازمان – بمقدورها ان تحيل كل ظواهر الهدم في جسد الامة الى قيم انشاء وابداع وبناء ، لان الانسان هو الذي يتحكم في صياغة الظروف الخارجية ، إن امتلك زمام نفسه وسعى دومًا إلى ممارسة عملية التغيير الذاتي التي أعلن عنها القرآن الكريم في قانونه الثابت : ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ .. ان الفيضانات الخطيرة ، قوة هائلة مدمرة ، ولكن (الانسان) هو الذي يحيلها إلى اداة تنمية واستثمار ، أو يتركها تغرق المزارع والحقول وتكتسح المواقع والقرى .. وانه لتحد خطير يطرحه الله سبحانه لكي يستثير همة

الانسان وحيويته وفاعليته ، على نطاق (الطبيعة) حيث الصواعق والزلازل والفيضانات والاعاصير .. وعلى نطاق (التاريخ) حيث النشوء والسقوط ، والسلم والحرب ، والتحضير والهمجية ، يلفها جميعًا قانون الله الثابت : ﴿وتلك الايام نداولها بين الناس .. ﴾ .

هكذا استطاع (المسلم) ان ينطلق من نقطة الضعف هذه حيث تمزق الدولة الواحدة إلى مدن وأقاليم ودويلات ، الى آفاق التحضر والقوة والابداع .. وبدلًا من أن يستسلم للظاهرة ويجلس قابعًا في حدود امارته المنشقة ، نجده يقف متحفزًا للحركة من اجل عالم الاسلام كله ، بمجرد أن تتاح له القيادة الصالحة المرنة الذكية المخلصة المجاهدة التي تعرف كيف توجه الحركة إلى هدفها المطلوب ..

هكذا لعب (الادارسة) دورهم في المغرب في مد الإسلام إلى قلب القارة السوداء عبر مسالكها الشمالية الغربية ، وكانوا أول من مهد الطريق للنشاط الواسع الذي مارسه الدعاة الى الاسلام في تلك القارة .. وهكذا لعب (الاغالبة) في تونس دورهم في صد خطر البيزنطيين تجاه السواحل الافريقية ، وفي تحويل موقف الدفاع الذي اتخذته هذه المنطقة الى هجوم استمر عقودًا طويلة من الزمن ، واستطاع ان يجلو بواسطته قوات البيزنطيين إلى داخل القارة الاوروبية ، وأن يكتسح جزرهم في البحر المتوسط وينشيء فيها حضارة ثرية كانت احدى الجسور التي انتقلت عليها حضارة المسلمين إلى الغرب .. وهكذا لعب (الطولونيون) في مصر والشام دورهم في ايقاف محاولات البيزنطيين الارتدادية صوب بلاد الشام .. وهكذا لعب (الحمدانيون) في حلب دورهم المشهور في صد تلك المحاولات نفسها ، وهي على اعنف ماتكون ، وتمكنوا من كسر حدتها .. وهكذا لعبِ (السامانيون) فيما وراء النهر دورهم في نشر الاسلام والثقافة الاسلامية في اقاليم التركمان الوثنية الشاسعة الممتدة حتى اطراف الصين ، وفي تحويل

هذه القوى البدوية التي لا تعرف السلم والاستقرار ، الى قوة بشرية مسلمة مثقفة مستقرة ، مارست دورها – فيما بعد – على طريق الاسلام .. وهكذا لعب (الغزنويون) و (الغوريون) من بعدهم ، في شمال الهند ، ازاء الهنود الوثنيين نفس الدور الذي لعبه رفاقهم السامانيون من قبل ازاء الاتراك .. وهكذا ايضًا ظهرت دولتا (المرابطين) و (الموحدين) في المغرب لكي تعيد للجهاد الاسلامي مفهومه الثائر العميق ، ولكي تنشىء التنظيم الذي يكفل تحقيق هذا الهدف ، ولكي (تتحرك) هذه التنظيمات للدفاع في الوقت المناسب عن مقدرات الاسلام والمسلمين في وقت كانت القوى الصليبية تتحرك فيه لتوجيه ضربة ماحقة للجناح الغربي من عالم الاسلام .. ثم اذا التفتنا إلى دويلات الشام والجزيرة الفراتية ، وجدناها تسهم هي الاخرى ، سواء في عهد (ولاة السلاجقة) ام في عهد (الاتابكة) ، اسهامًا قياديًا مباشرًا وخطيرًا ضد الغزو الصليبي في حملته الاولى على الجناح الشرقي لعالم الاسلام .

ان حضارة الاسلام ، كما اكد كثير من الباحثين في الشرق والغرب ، هي حضارة (الوحدة والتنوع) ، ولقد انعكست هذه السمة الأصيلة على ظاهرة نشوء الدويلات في عالم الاسلام .. فصرنا نجد تنوعًا في التشكيلات السياسية التي انشقت عن جسد الدولة ، وصرنا نجد في الوقت نفسه وحدة وتجانسًا وتعاطفًا في العطاء الحضاري ، وفي الاساليب والاهداف الكبرى ..

وفيما عدا حالات معدودة شاذة لهذه القاعدة الشاملة ، حالات ظهر فيها عدد من الدويلات تبنت مبادئ وعقائديات باطنية اباحية هدامة ، ذات جذور فارسية ويهودية ، غريبة عن عقيدة الإسلام وتصوره وقيمه ، دويلات لمت شعث مبادئها الغريبة هذه من نظريات رجعية موغلة في البعد عن جوهر التوحيد وسماحته وانكشافه وحريته .. دويلات مارست قواها الذاتية ، لا في الدفاع عن ارض الإسلام وعقيدته ووجوده ،

وانما ضد ارض الإسلام وعقيدته ووجوده (قرامطة البحرين على سبيل المثال). بل ان بعض هذه الدويلات سعى إلى عقد محالفات ومواثيق مع الاعداء الخارجيين المتربصين على الحدود والثغور. فيما عدا حالات كهذه، حيث التشكيلات السياسية الاسماعيلية بمختلف اجنحتها، والتي لا زالت بحاجة ماسة إلى دراسات أصيلة لتفحص دوافع نشوء الحركات التي اقامتها واهدافها وارتباطاتها السرية مع الحركات المجوسية والصليبية واليهودية، دراسات تنظر بجد وموضوعية إلى الارضية الاجتماعية الظالمة التي الجأت الكثير من البائسين والمظلومين إلى الانضواء اليها، ولكنها لا تغفل في الوقت نفسه عن تركيب (القيادات) وعلاقاتها وارتباطاتها، الامر الذي قادها إلى الوقوف، لا بوجه السلطة كجهاز سياسي متعسف، ولكن بوجه الإسلام كعقيدة وتنظيم، والى الصراع، لا مع بني العباس كقيادة عربية مستأثرة، ولكن مع الوجود العربي نفسه!!

فيما عدا هذه الحالات، فان معظم التشكيلات السياسية التي شهدها عالم الاسلام، اسهمت حسب قدراتها وطاقاتها، في (خدمة) هذا العالم سياسيًا وحضاريًا، ولن تغني الامثلة الموجزة هنا عن واقع تاريخنا نفسه!!

لقد جاء كتاب (الصفحات الاخيرة من حضارتنا) (قراءة جديدة للتاريخ) كما اراد له مؤلفه أن يكون.. واذ كان البحث خطوطًا مركزة عريضة لفترة تاريخية ممتدة في الزمان والمكان.. فاننا نأمل أن نلتقي بعبد الحليم عويس مرات اخرى وهو يقف طويلًا عند ظاهرة ما أو مرحلة أو تجربة سياسية وحضارية، فاحصًا، دارسًا.. لكي يغني مكتبتنا التاريخية الفتية بمزيد من المعطيات وفق المنهج (العدل) الذي حدثنا عنه في مقدمة بحثه.

اقـــتراحَـــات

(في التدريس والمنهاج التاريخي)



تشكل مادة التاريخ وسيلة من اهم وسائل التثقيف في المؤسسات الاكاديمية ، لا سيما بعد التطور الكبير الذي طرأ على الدراسات التاريخية في حقولها المختلفة ، وبعد أن ظهرت مذاهب شتى للتفسير التاريخي تشحذ ذهن الانسان وتدفعه للكشف عن آفاق جديدة في حقول المعرفة ، اعتمادًا على ما يقدمه التاريخ من احداث وظواهر وسنن تسير فاعليات البشر وترسم مصائرها .

وهكذا ، فان ـكان التاريخ ان يتخذ وسيلة لتخريج طلاب يمتلكون القابلية على استقراء ،، واهر والاحداث ، وتحليلها ، ومقارنة بعضها ببعض ، وادراك طبيعة السنن والقوانين التي تحكم نشاط الجماعات البشرية ، وتطور الحضارات وعوامل سقوطها ، فضلًا عن تميز هؤلاء بثقافة واسعة بحكم تخصصهم في فرع – يعد اليوم – من اشد الفروع اهمية في سعة مساحته ، وامتداد آفاقه ، وعمق اغواره ، واعتماده – بما انه تجربة البشرية وحصيلة معطياتها – على معظم الادوات التي تيسرها له العلوم الاخرى ، وبخاصة الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والاداب والفنون ، لانها جميعًا تساعد على تعميق الاضواء الكاشفة عن طبيعة الحدث التاريخي ، ودوافعه واهدافه ، وعلاقاته بالاحداث الاخرى القبليّة والبعديّة ، وعن المصير الذي تتشكل به هذه الاحداث جميعًا ، والسنن التي توجهها في هذا الطريق دون ذاك .

ومن ثم يبدو التخصص في التاريخ يفتح الطريق أمام الطالب لان يمتلك ثلاث امكانيات تعد اساساً متيناً للثقافة الحقيقية ، اولاها القدرة علىٰ التحليل والمقارنة ، وربط الجزئيات في أُطر كلية وتشكيلات موحدة في طبيعتها ودوافعها واهدافها ، وتعطيه امكانية الرؤية الواسعة لما يجري على سطح الارض من افعال واحداث ، ولما ينتج عن نشاط الانسان من معطيات ، ومن ثم يتيح له - هذا التخصص - أن يصل بسهولة إلىٰ تفسير مقنع للتاريخ ، والايمان بتصور معين ينبثق عن هذه الرؤية لرصيد التاريخ ، والقدرة على تحليله ومقارنته ، وثانيتهما الاطلاع على مساحات واسعة في حقول المعرفة البشرية لا تتيسر لطالب الفروع الاخرىٰ بسبب عدم اهميتها له .. وهكذا فان طالب التاريخ يتخرج وهو يمتلك معلومات واسعة عن الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والاداب والفنون .. الخ بسبب من ارتباطها الوثيق بالتاريخ . وثالثتها منح الطالب القدرة علىٰ تشكيل المعلومات ، في أي موضوع ، في نسق معين ، لاعطائها معنىً خاصاً ، أو للتوصل الىٰ حقيقة مهمة من حقائق التاريخ ، وذلك بتمرسه على كتابة التقارير والابحاث التي تمكنه في المستقبل من الكتابة والتأليف اعتماداً على ما يمتلكه من معلومات عن فن الكتابة ، وطريقة تنسيق المعلومات .

إن امتلاك الطالب لهذه الامكانات الثلاث - بعد تخرجه - بدرجة أو أخرى ، يعني أن هذا الفرع المهم في الاكاديميات قد حقق هدفه على احسن ما يكون ، دون ضرورة - أبداً - لتكديس كثير من تفاصيل التاريخ وجزئياته تكديساً عشوائياً ، لا يخدم أياً من هذه القيم الثقافية الثلاث .

ولكن الذي يحدث - للاسف - ان فروع التاريخ في جامعاتنا ، لا تخرج طلبة يمتلكون جانباً كافياً من هذه القيم الثلاث .

وذلك راجع بالدرجة الاولى إلى النظم التعليمية التي تسود هذه الفروع ، فهي تؤكد دائماً على تكديس مزيد من تفاصيل التاريخ في اذهان الطلاب ، وعلى الاسراع بتغطية كافة تاريخ البشرية قبل ان يخرج الطالب ويهرب من بين ايديها !! وهكذا تصب في اذهان الطلاب تفاصيل كل الفترات ابتداءً من عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، دون أي اهتمام بتوجيه الطالب نحو المقارنة والتحليل أو توسيع آفاق رؤياه للتاريخ ، ودون أي اكتراث باعطائه قاعدة ثقافية واسعة من العلوم والمعارف التي لها مساس مباشر ، أو غير مباشر ، بالتاريخ ، فضلًا عن عدم اهتمامها – الا بشكل ثانوي – بتعويد الطالب على البحث ، والتنسيق الفني ، والتأليف .. ومع اهتمام هذه الفروع بالتفاصيل والجزئيات ، وتأكيدها على الناحية الكمية ، لا الكيفية للتاريخ ، فان الطالب ما إن يتخرج ، حتى يلفُّ النسيان معظم التفاصيل ولا يتبقى في ذهنه الا الخطوط الاساسية للتاريخ ، تلك التي نقشت في اعصابه وهو بعد صغير !! .

فاذا ما انتقلنا الى التاريخ الاسلامي بالذات ، وهو تاريخنا ، والزاوية التي يجب أن ننطلق منها لفهم تاريخ العالم .. التاريخ الاسلامي الذي يتميز عن غيره من التواريخ بمعالم وسمات اصيلة تهبه شخصية مستقلة ، والذي يعبر اكثر من غيره عن حصيلة اعظم لقاء بين السماء والارض ، وعن طموح الانسان المؤمن لاعادة سير التاريخ في مجراه الطبيعي ، وانطلاقه نحو هدفه المرسوم في الكون .. التاريخ الذي يصوّر لنا الجهود العملاقة التي بذلها المسلمون لتشكيل مصير العالم وفق منهج متفرد يجمع في اطار واحد : الظاهر والباطن ، والحضور والغياب ، والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والمادة والروح .. ويفتح امام الانسان الطريق لتقديم اقصى ما عنده من طاقات في بناء حضارة غير متأرجحة ولا مهزوزة .. حضارة تنساح فاعلية صناعتها على كل المساحات وسائر القطاعات : الآداب والفنون ،

والعلوم والفلسفة . والقانون والنفس والاجتماع .. وتنبثق عن ايمان عميق بدور الانسان في الكون . وهدفية فاعليته وتوازنها .. اذا ما انتقلنا إلى هذا التاريخ .. فماذا نرى ؟؟ عددًا هائلًا من الطلاب يتخرجون وهم لا يعرفون المعالم الاساسية التي تميز تاريخهم ، ولا السمات الاصيلة التي تطبع حضارتهم .. وهم يجهلون التصور الذي يقوم عليه هذا التاريخ ، وتنبثق عنه هذه الحضارة .. يتخرجون وقد التبست في اذهانهم معالم كل التواريخ ، وتداخلت سمات كل الحضارات ، وضاعت مفاتيح التفسير التي تقدم لكل تاريخ معناه ، ولكل حضارة مفهومها العميق .. يتخرجون وليس في نفوسهم أي اعتزاز بهذا التفرد الذي يتميز به تاريخهم وحضارتهم ، ولا في ثقافتهم تلك القيم التي تتيح لهم استقلالًا في التحليل والتفسير ، اللذين ينبثقان عن المفاهيم التي يتميز بها هذا التاريخ وهذه الحضارة . ليس هذا فحسب ، بل هناك الاهداف المرسومة بخبث ودهاء ، والتي فرضت عليهم ان يتلقوا تاريخهم وفق مناهج التفكير والبحث الغربية ، هذه المناهج التي لا يمكن بحال ان تقدم تفسيرًا معقولًا شاملًا لتاريخنا الاسلامي .. فهي ان نجحت في تفسير وتقييم التاريخ الغربي ، فستخفق حتمًا في تفسير التاريخ الاسلامي . ذلك انها مناهج لا تقوم على اساس متوازن ينظر إلى القيم المادية والروحية كعوامل فعالة مشتركة في صنع التاريخ ، بل على العكس ، تسعى بدافع من علمانيتها ، الى ترجيح الدافع المادي وتقليص مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ ، بل طمسها احيانًا ، وانكارها اساسًا كعوامل فعالة في تاريخ البشرية .

وهذه المناهج – ثانيًا – تقدم تاريخ العالم كله ، وبضمنه تاريخنا نحن ، من زاوية نظر غربية اقليمية تجعل اوربا مركزًا للعالم تدور حول قطبه كل المساحات الاخرى في الارض ، وما عليها من شعوب ودول وحضارات ، حيث تغدو في معظم الاحيان أشبه بالظلال الباهتة لهيكل

التاريخ الاوربي العالي الذي يشع نورًا واهمية وبهاءًا ! ! ولنستمع إلى «محمد اسد» وهو يعلق على هذه الرؤية القاصرة في كتابه «الطريق الى مكة» قائلًا : «لقد مال المفكرون والمؤرخون الأوروبيون ، منذ عهد اليونان والرومان ، الى ان يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الاوربي ، والتجارب الثقافية الغربية وحدها . اما المدنيات غير الغربية ، فلا يعرف لها الا من حيث ان لوجودها ، أو لحركات خاصة فيها ، تأثيرًا مباشرًا في مصائر الانسان الغربي . وهكذا فان تاريخ العالم ، وثقافاته العديدة ، لا يعدو ان يكون – في اعين الغربيين – تاريخًا موسعًا للغرب . وطبيعي ان النظر من هذه الزاوية الضيقة لا بد ان يوقع العين على مشهد مشوه غير سليم . ان الاوربي ، أو الامريكي العادي ، بما اعتاد ان يطالع من الكتب التي تعالج أو تبحث مسائل مدنيته الخاصة بتبسيط وتوسع يضفيان عليها ألوانًا حية ، دون ان تلقي على سائر اجزاء العالم سوى نظرات عابرة هنا وهناك ، ليستسلم ويرضخ بسهولة ويسر إلى الوهم الخادع الذي يصور ان الخبرات الثقافية الغربية ، ليست اسمى من سائر الخبرات الثقافية في العالم كله فحسب ، بل لا تتناسب معها على الاطلاق ، وبالتالي ان طريقة الحياة الغربية هي النموذج الصحيح الوحيد الذي يمكن ان يتخذ مقياسًا للحكم على سائر طرائق الحياة ، وان كل مفهوم ثقافي أو مؤسسة اجتماعية أو تقييم ادبي يتعارض مع النموذج الغربي ، انما ينتمي – حتمًا – إلى درجة من الوجود ادنى وأحط . ومن هنا نرى ان الغربي ، تمثلًا باليونان والرومان ، يحب ان يعتقد ان جميع تلك المدنيات ليست ، أو لم تكن ، الا تجارب متعثرة في طريق الرقي ، هذا الطريق الذي تتبعه الغرب بكثير من السداد والعصمة من الخطأ . أو انها في أفضل الاحوال – كما هي الحال في مسألة المدنيات السالفة التي سبقت مدنية الغرب الحديث مباشرة – ليست أكثر من فصول متتابعة في كتاب وحيد فريد ، آخره

– غير شك – المدنية الغربية»[1] .

وما من شك في ان ابسط مفاهيم التعليم التاريخي هي تخريج مثقفين معتزين بتاريخهم وامتهم وحضارتهم ، شاعرين في قرارة نفوسهم بالاستعلاء الثقافي والحضاري على بقية الامم والتواريخ والحضارات . لا سيما وان الشرق عامة ، والامة الاسلامية خاصة ، تمثل في حضاراتها لقاءات معطاءة بين السماء والارض ، وتنبثق في معظم الاحيان عن مصادر عليا للمعرفة والتوجيه لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وان هذه النقطة بالذات هي ما يجب ان توضح دائمًا في عملية التعليم لكي تغرس في كيان المثقفين مشاعر الاستعلاء ، وابعاد أي شعور بالنقص تجاه الحضارات الاخرى ، وقطع الطريق على اية محاولة لتكريس التبعية الفكرية لدى هؤلاء .

وهذه المناهج – ثالثًا – وعندما تدرس تاريخنا بالذات تتحكم فيه عصبيات شتى ، ورواسب نفسية ، ومخلفات ثقافية ، واطماع سياسية واقتصادية ، وتحزبات دينية وعرقية ، لكونها نشأت وتبلورت في القرن الذي بلغت فيه حركة الاستعمار القديم للعالم الاسلامي المتعب اوجها ، وراحت موجة الصليبية الثانية تثأر لما لحقها من هزائم في الموجة الاولى ، تثأر على مستوى الفتوحات السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وعلى مستوى الافكار حيث برز إلى العالم عدد كبير من المؤلفات ، تميزت جميعًا بروح التعصب الصليبي والعرقي الذي يسودها ، وسَعَتْ جميعًا الى تقديم التاريخ الاسلامي في اطر واشكال تختلف اساسًا عن حقيقته وجوهره الاصيل . ولنستمع إلى «محمد اسد» مرة اخرى وهو يحلل هذه المواقف الفكرية المتعصبة تجاه اوطان غدت في نظر الصليبية الثانية

---

١) ليوبولد فايس [محمد أسد] الطريق إلى مكة ، ط ١ ، صفحة ١٧ – ١٨ ، ترجمة عفيف بعلبكي .

اراضٍ موات يجب احياؤها لصالح الكنيسة والدولة الغربية .. انه يقول «اما فيما يتعلق بالاسلام ، فان الاحتقار التقليدي اخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية . وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين اوربا والعالم الاسلامي (منذ الحروب الصليبية) غير معقود فوقه بجسر . ثم اصبح احتقار الاسلام جزءًا اساسيًا من التفكير الاوربي . والواقع ان المستشرقين الاولين في الاعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الاسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الاسلام وتاريخه مدبرة على اساس يضمن التأثير في موقف الاوربيين من «الوثنيين» . غير ان هذا الالتواء العقلي قد استمر ، مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها . أما تحامل المستشرقين على الاسلام فغريزة موروثة ، وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية بكل ما لها من ذيول ، في عقول الاوربيين»[٢] .
ومن ثم فان تطبيق هذه المناهج في دراسة التاريخ الاسلامي في جامعاتنا قد آتى ثماره المرة منذ اول جيل خرجته هذه الجامعات ، وسيظل يقدم هذه الثمار الى ان يحدث المؤرخون الجامعيون انقلابًا جذريًا في الاسس التي يعمل بموجبها داخل هذه الجامعات ، وبخاصة في الفروع الانسانية . جيل بعد جيل من الشباب ، يتخرجون وهم يمقتون تاريخهم ، وتتغلغل الشبهات في اذهانهم ونفوسهم فتحيل التاريخ الاسلامي ساحة مظلمة يسيطر عليها الجهل والطغيان والقتل والظلم الاجتماعي .. وان المصاب ليزداد فداحة عندما نتذكر ان مناهج الفكر الغربي تمكنت ان تنقل مآسي التاريخ الغربي إلى الشرق الإسلامي فتزرعها في قلوب ابنائه ،

---

٢) محمد أسد : الاسلام على مفترق الطرق ، ط ٦ ، صفحة ٦٠ — ٦١ ، ترجمة عمر فروخ .

وتخيل اليهم ان تاريخ الغرب – لا سيما في عصوره الاخيرة – لم يعرف هذه المآسي في يوم من الايام .

كيف يتم القضاء على هذه الاخطاء التي تمارس في تدريس التاريخ ؟ وعن أي طريق يمكن تخريج طلاب يستطيعون ان يناقشوا ويحللوا ويقارنوا ، اعتمادًا على خلفية ثقافية واسعة ، وامكانية في التنسيق والتأليف ؟ وبأية مناهج نتمكن من تقديم التاريخ الاسلامي على حقيقته دون اعتساف أو تشويه ؟ ان لكل باحث أو مرب أو مدرس للتاريخ امكانية ايجاد الحلول لمشاكل كهذه ، الحلول التي تُخرج فروع التاريخ من الدوامة التي تدور فيها ، وتحطم الحلقة المفرغة التي تحيط بأجيال المتخرجين .. وهاهي بعض هذه الاقتراحات التي يمكن ان يضاف اليها الكثير فيما بعد :

١ – هناك ساعات محدودة للمحاضرات يجب الا تضيع بالقاء الدروس على طريقة التدريس الابتدائي أو الثانوي .. يكلف الطلاب بتحضير صفحات ثلاث أو اربع ، ثم يسألون عنها في المحاضرة التالية . وبعد أن تعدو عشرين أو ثلاثين صفحة يمتحنون بها ، وتقدر درجاتهم ومستوياتهم اعتمادًا على مدى سيطرتهم على مزيد من سطور هذه الصفحات العشرين .. صحيح ان حفظ تسلسل الاحداث والسنين والحدود الزمنية والمكانية لكل دولة أو امارة ، يعد قدرة مهمة يجب ان ينميها الطالب وبخاصة في فرع التاريخ الذي يحتاج إلى تمرين «الحافظة والذاكرة» الى حد كبير باعتبارها المفتاح الاساسي لسجل التاريخ الحافل بالاحداث والسنوات والتشكيلات ، الا ان الامر يجب الا يقف عند هذا الحد لا يتعداه .. ان هذه الطريقة المتعبة ، سخرية مرة نضحك بها على انفسنا وعلى طلبتنا من أجل ان نبذل جهدًا أقل ، ومن أجل أن يضمنوا هم مستقبلًا ومعاشًا .. ان هذه الساعات المحدودة للمحاضرات يجب ان

تستغل الى الدرجة القصوى ، وان تحطم فيها طريقة الاعتماد على كتاب أو مجموعة من المحاضرات المطبوعة أو المكتوبة .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد نقاشاً مستمراً بين الطلبة والمدرس ، وبين الطلبة أنفسهم افراداً ومجموعات ، نقاشاً يتميز بالحرية والتنظيم في وقت واحد ، بحيث يجد كل طالب المجال لان يتكلم ويناقش ويعبر عن وجهة نظره ، ويصدم بأفكاره افكار الاخرين ، ويقدح -كما يقولون- الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد عرضاً حيوياً للتاريخ : فيه التحليل والمقارنة والهدم والبناء والتجميع والتنسيق ، وفيه النظرة الشاملة والرؤية الواسعة التي تجمع الاحداث المتشابهة من هنا وهناك .. من الشرق والغرب ، ومن العصور القديمة والحديثة لكي تسلكها في وحدة معينة تعطي للتاريخ معنى ، ولدوافعه واهدافه مبررات وقيماً .

وتمكن الطالب من تنمية القابلية على التصور التاريخي والنظرة الشاملة ، واتخاذ موقف شخصي اصيل من الاحداث .

ان هذه الساعات يجب ان تشهد اعتماداً غير متكلف على شتى فروع المعرفة التي -لها مساس بالتاريخ- من علوم وفنون واداب ، وقضايا نفسية وفلسفية واجتماعية ، لكي يكون لدى الطلاب القاعدة والادوات التي يتمكنون بها من تقديم تفسير اوسع واعمق للتاريخ ، ومن امتلاك رؤية أشد تركيزاً لاحداثه ووقائعه .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد اغراءً بمزيد من القراءات والمطالعات في شتى المعارف والعلوم ، وان تعرض على الطلبة خلالها المؤلفات والنشرات والكتب التي تتدفق على المكتبات كالسيل ، وان تقدم لهم عن كل منها خلاصة تتيح لهم معرفة ما يجب ان يقرؤوه وما يجب ان يدعوه .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد تنمية التفكير المستقل لدى الطالب ، والذاتية المعتزة بامكاناتها دونما اسراف ، تنمية تتيح للطالب ان يناقش المدرس فيما لا يؤمن به

وان ينقد الكتاب المقروء كمعطيات تحتمل الخطأ والصواب ، لا كقيم منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . كما يجب ان تشهد هذه الساعات بعثًا للذوق الفني والادبي لدى كل طالب بحيث يستطيع ان يحكم من خلاله على الاساليب التي يكتب بها التاريخ ، أيها اجمل واروع ، وايها اكثر ملائمة لكتابة التاريخ أو عرض الشخصيات .. وان نناقش – في هذه الساعات – حتى قضايا الموسيقى والفنون التشكيلية لانها في حقيقة الامر رصيد من أرصدة التاريخ ، ووسيلة من وسائل التعبير الذاتي للانسان ، هذا التعبير الذي يعطي للتاريخ لونه ، ويطبع الحضارات بطابعه الخاص .

خلاصة الامر أن هذه الساعات المحدودة يجب ان تستغل لتكوين الانسان المثقف ، والمؤرخ الذي يستطيع ان يسهم – بامكاناته المرنة الواسعة – في مجرى التاريخ .... فاذا ما قابلنا هذا بما يجري فعلًا من تضييع هذه الساعات بتلقين الطلبة صفحات معدودات ، وشرحها في الدرس كلمة كلمة ، وحرفًا حرفًا .. تبـدت لنا النقيصة التي تمارسها جامعاتنا ، والزمن الذي تضيعه هباء .

٢ – هذا يعني وجوب تخصيص بعض الساعات لتدريس مواد تاريخية تساعد على تحقيق الاهداف السالفة :

أ – فمثلًا تخصيص ساعة في الاسبوع لتدريس فلسفة التاريخ والحضارة التي غدت اليوم تشكل قطاعًا من اهم قطاعات الثقافة المعاصرة ، لانها المفتاح الحقيقي لفهم الاسس التي تقوم عليها الدول وتنشأ بموجبها المجتمعات ، والمنحنيات التي تسلكها هذه الدول والمجتمعات ، والنهايات التي تنتهي اليها وتسقط فيها . هذا فضلًا عن ان موضوع فلسفة التاريخ والحضارة يقدم للطالب الطريقة التي يتعلم فيها استغلال ذكائه وثقافته الخاصة في تعليل الاحداث وتفسير الظواهر التاريخية ، كما انها تقدم

له ثقافة واسعة نظرًا لما يحتاج اليه هذا الموضوع من قاعدة ثقافية واسعة[1] .

ب – ويمكن تخصيص ساعة اخرى في الاسبوع لدرس يطلق عليه «اساليب تاريخية» : باي اسلوب يكتب التاريخ ؟ وعلى أي اساس يمكن تصنيف الدراسات التاريخية الحديثة ؟ وما هي احسن الاساليب لعرض التاريخ كتابة وتدريسًا ؟ وما هو المدى الذي يمكن ان نذهب اليه في الاستفادة من اساليب المدرسة الحضارية في تدريس التاريخ وكتابته ؟ وما هي اهمية المعايشة التاريخية ، والتجربة الذاتية ، والرؤية الفنية في دراسة التاريخ ؟

جـ – ويمكن استغلال الساعة السالفة لتدريس الطلبة طريقة البحث التاريخي ، وتنسيق المعلومات والنصوص ، وتنظيم الهوامش ، وقوائم المراجع والمصادر .. الخ مما هو ضروري لكل متخصص في هذا الفرع الذي هو من اشد الفروع الانسانية حاجة إلى معرفة اكيدة بطرق البحث والتنسيق . ويمكن الاعتماد في هذا المجال على «التقارير والابحاث» التي يكلف بها الطلاب ، لكي يعرفوا بأنفسهم مواطن الخطأ والصواب في أبحاثهم . ويجب ان يؤكد في هذه الاعمال على الناحية الكيفية لا الكمية . اذ ان انجاز تقرير واحد في السنة يمكن ان يقدم من الفوائد ما لا تقدمه كتابةُ عدد كبير من التقارير .

٣ – اذا القينا نظرة على حجم المادة التاريخية التي تعطى للطلاب ، خلال السنوات الاربع – حسب النظم المنهجية المتبعة – ومهما بذل المدرس من جهد لتكريس مادة اكثر في اذهان الطلبة وفي كراساتهم ، نجد انها لا تكفي اساسًا للالمام بالجوانب المهمة من التاريخ ولا بخطوطه

١) انظر على سبيل المثال : (مختصر دراسة التاريخ) لارنولد توينبي ، و(تدهور الغرب) لازوالد اشبنغلر ، و (سقوط الحضارة) لكولن ولسن .

الاساسية . وهذا يعود الى خطأ هذه المناهج في التأكيد على اعطاء تفاصيل وجزئيات المواضيع المعطاة للطلاب واضطرار المدرس الى استهلاك وقته المحدود في نطاق هذه التفاصيل والجزئيات ، فضلًا عن ان هذه المناهج تؤكد على تدريس مواضيع مختلفة دون تمحيص للاهم فالمهم ، وبالتالي فان هذا يدفع المدرس إلى ربط الطلبة بمصدر واحد أو محاضرة محددة ، مكتوبة أو مطبوعة ، لكي يستطيع بساعاته القليلة تغطية كل التفاصيل المطلوب منه تقديمها للطلاب وتخلصًا من هذا الخطأ يمكن :

أ – تقسيم التاريخ – بعد دراسة دقيقة وعميقة – الى قسمين :

قسم تعطى تفاصيله الكاملة بدقائقها للطلاب ليتعلموا الطريقة الجزئية والنقد والاساليب التاريخية وطرق تنسيق المعلومات فضلًا عن محاولة الالمام الكامل بالفترات الحيوية من التاريخ ، تلك التي تمثل مراكز الثقل في حركة البشرية وتطورها الحضاري . أما الاقسام الاخرى فتعطى خطوطها الرئيسية فحسب ، ويكلف الطلبة بتتبع تفاصيلها ، ومحاولة فحص سماتها وخصائصها عن طريق كتابة التقارير والابحاث ، شرط ان تُتداول بين الطلبة ، وتناقش معهم جميعًا خلال ساعات المحاضرات أو في ندوات خارجية ، لا أن تبقى – كما هي عليه الان – مجرد واجب ثقيل يلقى على عاتق الطالب ، يعيده الى المدرس بعد الانتهاء منه ليأخذ عليه درجة ما ، دون ان يطلع هو ، أو غيره من الطلاب على النتائج والمعلومات المهمة التي يمكن ان تُستخلص من مجموع التقارير .

ب – تعويد الطلاب الاعتماد على انفسهم بالرجوع الى المصادر والمراجع واستخراج محاضراتهم منها ، ومناقشتهم فيها خلال الدرس . فليس من الصواب ان يكون اعداد المحاضرات حكمًا على المدرس وحده ، اذ ان ذلك ينشيء في نفوس الطلبة الروح السلبية الاتكالية ، ويربطهم بمصادر محدودة ووجهة نظر خاصة . ان رجوع الطلبة بانفسهم

الىٰ هذه المصادر سيحقق نتائج مهمة منها اطلاع الطالب علىٰ مزيد من التفاصيل عن الفترة المدروسة ، وتفهم الاساليب القديمة في كتابة التاريخ ، وتكوين وجهة نظر يستطيع بها ان يناقش المدرس وان يصل معه الىٰ نتائج مقنعة ، فضلًا عن تمرسه على استخدام النظم المكتبية . ويجب ان يلزم الطلبة بالرجوع الىٰ هذه المصادر ، لا ان يكتفي المدرس بمجرد التوجيه . وان تدخل هذه الفعالية في الامتحانات لكي يشعر الطالب بالزامها . وعلى المدرس ان يقدم في بداية كل سنة دراسية قائمة بأهم المصادر والمراجع . ويسهم مع الطلبة في نقدها وتعريفها واحدًا بعد آخر ، والتوصل الىٰ السمات الاساسية التي تميز كلًا منها .

٤ – توسيع النشاطات اللاصفية : ان ساعات الدروس الاسبوعية محدودة ، وهي لا تكفي مطلقًا لتنفيذ بعض هذه الاقتراحات ، ولابد اذن من استغلال الزمن المفتوح خارج نطاق الدروس ، هذا الزمن الذي يذهب معظمه جفاء ، والذي يمكن اقتطاع بعض ساعاته لاجراء لقاءات مع الطلبة في اجواء حرّة لا اكاديمية .. في اجتماعات وندوات وحلقات ، يناقِشون ويناقَشون ، يستمعون لغيرهم ويقولون ما عندهم ، ويحاسب بعضهم بعضًا على افكاره وآرائه واجتهاداته . وليس من الضروري – ابدًا – ان تقتصر هذه الندوات المفتوحة على موضوعات تاريخية . بل من المستحسن ان تتعدىٰ التاريخ الىٰ شتىٰ حقول الثقافة التي لها مساس بالتاريخ ، والتي تنمي في الطالب سعة النظر ، وتعمل على توسيع آفاق رؤياه ، وليس من الضروري –كذلك– ان تقتصر هذه الندوات على مدرس التاريخ وتلاميذه ، بل يجب ان يسهم فيها طلاب من شتىٰ الفروع ، واساتذة من شتىٰ الاختصاصات ، لكي يثمر النقاش ، وتلتقي الافكار ، ويتسع مدىٰ الرأي وآفاق الكلام . وهناك ، فضلًا عن الندوات ، ضرورة اخرى لا تقل عنها أهمية ، وهي اصدار نشرة أو مجلة خاصة بالكلية أو الفرع ،

لكي يجد فيها الطلبة مجالًا للتعبير عن آرائهم ، واشباع رغبتهم في البحث والكتابة . ثم هناك الافلام التاريخية والتعليمية ، والنشاط المسرحي ، والسفرات الطلابية التي يجب ان تأخذ مكانها جميعًا في هذا الميدان .

٥ – تضعيف القيود الاكاديمية :[١] ذلك ان القيود الاكاديمية بوضعها الحالي تخنق أي محاولة للنفاذ إلى اعماق التاريخ ، ومهمة كحركة حيّة متطورة ، كفعل دائم الصيرورة ، كنهر عظيم مستمر الجريان ، والابتعاد عن خطر النظر الى التاريخ كعالم جامد مسطح ، واحداث عمودية يتلو بعضها بعضًا . ان التاريخ يجب ان يُقدَمَّ الينا وهو يموج حركة وحيوية ، كمسرحية حاضرة للعيان تجعل من التاريخ «فعلًا» مستمرًا آخذًا شتى الاتجاهات والابعاد ، وليس مجرد عالم مسطح ، وتقضي على فكرة الامتداد العمودي للاحداث ، لكي تدفع الانسان الى تدبرها افقيًا ، بكل عناصرها وابعادها ، كما تدفع المؤرخ الى معايشة التاريخ ، ومن ثم مد ابعاد الرؤية الى كل جوانب الكينونة الانسانية .

فعندما يعيش المؤرخ احداث التاريخ ، وينفعل بها ، فان بامكانه ان يقول لنا اشياء لا يستطيع ان يقولها لنا الاكاديميون الذين تقتصر فاعليتهم على التنسيق والتفكير العقلي المجرد ، وتنظيم النصوص ، وسرد المحاضرة سردًا تقريريًا ميتًا[٢].. ان الدعوة الى تضعيف القيود الاكاديمية في كتابة

---

١) انظر عن هذا الاقتراح بتوسّع ، فصل لكاتب البحث بعنوان : (نقد للاكاديمية وتأمل في التاريخ) في كتاب (في النقد الاسلامي المعاصر) .

٢) والمعايشة التاريخية لا تستلزم احياء الحدث التاريخي أسلوبًا وموضوعًا فحسب بل هي تتطلب كذلك رصيدًا من التجارب النفسية والفكرية والعقيدية تساعد المؤرخ على ادراك جوهر التاريخ . ودارسو التاريخ الاسلامي بالذات يجب ان يعايشوا التجربة الاسلامية . من هنا كانت قدرة مفكر كليوبولد فايس أو دينيه – على فهم التاريخ الاسلامي أكثر من قدرة مؤرخ مختص كجب . اوبرنارد لويس ، فليوبولد ودينيه – عاشا التجربة ، أما جب ولويس فقد درساها من بعيد .

وتدريس التاريخ لا تمثل رغبة شخصية في الحصول على مزيد من المتعة الروحية في مجالات النشاط التاريخي المعروض بهذا الاسلوب الحي ، وانما هو امر واقع حتمي تفرضه طبيعة الوجود التاريخي نفسه ، بما انه حركة حياة نامية متطورة ، تتدفق من اعماق الوجدان البشري ، لتنساح – بعد هذا – على مساحات الزمان والمكان ، ولتنشيء – من ثم – دولاً واحداثًا وحضارات هي نتاج تفاعل خلاق بين العقل والعاطفة ، والمادة والروح ، والتراب والحركة ، والقدر والحرية . ولا يمكن التوصل الى رؤية كاملة لهذا التدفق الحيوي الا بالاعتماد على نفس القيم والوسائل التي تصنع التاريخ وتوجهه ، ولا يتحقق النفاذ الى معنى التاريخ وهدفيته الا بافتراض هذا القاسم المشترك الاعظم بين المؤرخ نفسه والبشرية ، بين الذات والموضوع ان على المؤرخ الجادّ ان يحيل التاريخ الى عملية حيوية ويخلصه من التجريد ، أن يدخل الى صميم الحدث ، لا أن يقف خارج الاسوار وينظر من بعيد . وهذا البعد الاخير على درجة كبيرة من الاهمية ، لان التاريخ ليس حصيلة احداث خارجية فحسب بل هناك القوى الداخلية والطاقات الروحية التي تمثل دائمًا العامل الاهم في رسم مجرى التاريخ وتحديد مصيره ، وهنالك القوى الغيبية التي تتدخل في عالم الحضور بشكل مباشر أو غير مباشر ، ولحكمة الهية بعيدة المدى ، لتوجيه التاريخ وجهة دون اخرى . وفهم التاريخ لا يتسم اذًا الا باسهام الطاقة الروحية والحيوية للانسان في عملية التقييم .

خلاصة الامر – فيما يتعلق بالتدريس كذلك – ان المدرس يجب أن يعرض التاريخ بهذه الحيوية وهذا التدفق ، وان يقدمه للطلاب كمسرحية حاضرة للعيان – كما يقول الناقد البولندي المعاصر : يان كوت – لا كفعل مسطح ، لان المدرس بهذا سوف يحرك وجدان الطلبة ، ويفتح في اعماقهم نوافذ جديدة تشدهم الى التاريخ ، وتعطيهم امكانية تسليط مزيد من

الاضواء على ظلمات التاريخ لإدراك معناه . ان هناك طلبة يمتلكون معرفة فطرية للمعاني الكامنة وراء الاحداث وان على المدرس ان ينمي هذه القدرة ، لانه بهذا سوف يتيح للشرق ان يشهد في يوم من الايام دراسات تاريخية عملاقة كتلك التي قدمها توينبي واشبنغلر وغيرهما . كما انه بهذا يؤكد على القيم الروحية في فهم التاريخ ، ويحطم الجدران المادية الضيقة التي تخنق الدراسات التاريخية وتمنع من النفاذ الى الاعماق .

فإذا ما انتقلنا – بصدد اقتراحاتنا هذه – الى التاريخ الاسلامي بالذات فهناك ثلاثة اقتراحات على الاقل :

١ – تطبيق منهج اسلامي دقيق في دراسة تاريخنا ، يمتلك من الامكانات ما يستطيع بها ان يتوغل الى هذا التاريخ ، ويستبطن معناه ، ويحلل دقائقه ويحدد معالمه الرئيسة ، ويستكْنه الاهداف التي كان – ولا يزال – يصب طاقاته في بحرها العظيم .. ان هذا التاريخ يختلف عن غيره اساسًا لأنه يمثل اوسع واعمق تعبير عن تاريخ ينبثق عن دين عظيم ، وعن حضارة يبعثها لقاء خلاق بين قوى السماء والارض . ان هذا التاريخ لم تسهم في صنعه فاعلية دون فاعلية ، ولا دفعه الى الوجود عنصر دون عنصر ، أو عامل دون عامل ، انه يتميز بانه نتاج كل القوى والعوامل والطاقات التي اودعها الله في الكون والعالم ، والتي منحها للانسان .. لذا فاننا نجد في هذا التاريخ قوى المادة والروح ، والطبيعة والغيب ، والتراب والحركة ، والقدر والحرية .. وان تطبيق أي منهج قاصر في دراسة هذا التاريخ ، من شأنه ان يغفل احد هذه العوامل ، سيؤدي ولا شك الى فهم ناقص ، وتحليل مضطرب لمعنى هذا التاريخ وطبيعة مجراه ... ان المهندس الميكانيكي لا يطلب منه رسم تصميم لعمارة شاهقة ، وعالم الفيزياء لا يجازف باقامة جسر على نهر عظيم ، والمهندس المعماري ، بدون ادوات الرسم ومستلزماته ، لا يستطيع تجسيد ما في مخيلته من

وهكذا فان تطبيق المنهج المادي ، العلماني ، الغربي في دراسة تاريخنا أحدَث من الاخطاء والمهازل ما يجب علينا ان نوقفه عند حده ، وان نبدأ - نحن - من جديد بتقييم تاريخنا ودراسته وفق منهج يقدم من الادوات والامكانات ما يساعد المؤرخ المسلم على دراسة هذا التاريخ .

ولا ريب ان من اهم سمات المنهج انه منهج شامل لكل الدوافع والقيم التي تصنع التاريخ ، غير عاجر امام حدود الواقع الملموس الظاهر للعيان ، ويتيح من الرؤية البعيدة ما يستطيع المؤرخ معها ان يقدم تقييمًا اصيلًا لأحداث التاريخ الإسلامي وشخصياته . ان تاريخنا الإسلامي بحاجة ماسة الى طبقة جديدة من المؤرخين ، يعيدون تحليل هذا التاريخ وعرضه بكل حيويته وتدفقه ، وعناصره الظاهرة والباطنة ، مما سيتيح - بلا شك - فهمًا اعمق لهذا التاريخ ، وادراكًا اشد تركيزًا لعناصر تطوره ، ورؤية أكثر وضوحًا لخطوط سيره ومنعطفاته الفاصلة . لقد عثر التاريخ الاوربي - كما رأينا - على مؤرخين اعادوا اليه الحياة ، وقدموه في اطار حي كصورة فنيّة رائعة بكل عناصرها : الخلفية والتكوين ، والاضواء والظلال ، والالوان والمساحات . ومن زاوية عرقية اقليمية ، أو مذهبية متعصبة ، قدموا تاريخ العالم . ونحن نلمح في صورهم الشاملة هذه اغفالًا متعمدًا - أو غير متعمد - لمساحة من اهم مساحات التاريخ البشري ، تلك التي يحتلها التاريخ الاسلامي الذي يتصف - اكثر من غيره - بان بناءه قام على كل عناصر تقويم الانسان والعالم . ومن ثم فان عرضه وتفسيره لا يتم الا وفق منهاج حي شامل . وحينذاك سيجد التاريخ الاسلامي مفتاحه الضائع الذي ما حاول الاكاديميون يومًا الدخول بواسطته الى التاريخ الإسلامي من بابه الواسع المفتوح .

٢ - تخصيص عدد من المحاضرات لتدريس «علم الرجال» أو ما

يسمى في مصطلح الحديث باسم «علم الجرح والتعديل» .

ذلك انه ما من أمة في الارض عنيت بتمحيص مصادر اخبارها وتاريخها كالأمة الاسلامية فهناك تراجم لنصف مليون رجل اسهموا جميعًا في تقديم الاخبار والروايات التاريخية التي لا يمكن توثيقها والأخذ بها الا بعد فحص اولئك الرجال الذين تناقلوها .

ومن ثم فان دراسة التاريخ الاسلامي دراسة جادة ، تستلزم حتمًا دراسة هذا الموضوع الخطير ، لكي تقدم الدراسات التاريخية معتمدة على أوثق المصادر وأدق الاخبار . وسوف تؤدي هذه المحاضرات الى نتيجتين هامتين

أولاهما : غرس الاعتزاز في نفوس طلبتنا بتاريخهم الإسلامي ، الذي يتفرد – دون غيره من التواريخ – بهذه العلمية وهذه الدقة وهذا التمحيص .

وثانيتهما : – وهي على درجة كبيرة من الاهمية – تعويد الطالب المتخصص على عدم التسليم بكل ما يعرض له من روايات ، ومنحه الادوات التي يستطيع ان ينقد وان يأخذ ما يراه صحيحًا ، ويدع ما دون ذلك . وفي هذا يستطيع ان يقدم لنا ورفاقه ، بعد تخرجهم ، دراسات صحيحة خالية من كل الدسائس والسموم التي نفثتها القوى المضادة في تاريخ الاسلام ، وبخاصة المجوسية والشعوبية .

ولا بد من الاشارة هنا الى الملاحظة القيمة التي ابداها «محب الدين الخطيب» حول هذا الموضوع ، فهو يشير الى ان تاريخ الطبري العظيم لا يمكن الانتفاع بما فيه من آلاف الاخبار ، إلا «بالرجوع إلى تراجم رواته» في كتب الجرح والتعديل .. وان كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوي ، ومتى يجوز الاخذ برواية المخالف . ولا نعرف امة عني

مؤرخوها بتمحيص الاخبار ، وبيان درجاتها ، وشروط الانتفاع بها ، كما عني بذلك علماء المسلمين . وان العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الاسلامي . اما الذين يحتطبون الاخبار بأهوائهم ، ولا يتعرفون الى رواتها . ويكتفون بأن يشيروا في ذيل الخبر الى الطبري : رواه في صفحة كذا من جزئه الفلاني ، ويظنون ان مهمتهم انتهت بذلك ، فهؤلاء من ابعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الاسلامي من الوف الاخبار . ولو أنهم تمكنوا من «علم مصطلح الحديث» ، وأنسوا بكتب الجرح والتعديل ، واهتموا برواة كل خبر ، كاهتمامهم بذلك الخبر . لاستطاعوا ان يعيشوا في جو التاريخ الاسلامي ، ولتمكنوا من التمييز بين غث الاخبار وسمينها ، ولعرفوا للاخبار اقدارها بوقوفهم على اقدار اصحابها[1] . والطبري نفسه يقول في مقدمته «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من اجل انه لم يعرف له وجهًا صحيحًا ، ولا معنى في الحقيقة ، فليفهم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وانما اتي من بعض ناقليه الينا ، وانما ادينا ذلك على نحو ما ادي الينا» ! !

٣ – وعدد آخر من المحاضرات يجب ان يكرس لتدريس الطلبة ما يسمى بـ «تحليل النصوص» أو «النصوص التاريخية» يكلفون خلالها بدراسة وتحليل نصوص من مختلف المؤلفات التاريخية القديمة ، واجراء مطالعات في هذا المجال داخل الدرس ، لتمكين الطلاب بذلك من التمرس على قراءة وفهم تلك الاساليب ، التي يتخرج الكثيرون منهم وهم لم يعتادوها ويألفوها ، الامر الذي يبعدهم (نفسيًا) عن الرجوع إلى الموارد الأولى للتاريخ ، والاكتفاء باعتماد ومطالعة المراجع الحديثة لسهولة اسلوبها

---

١) المراجع الاولى في تاريخنا : مجلة الأزهر ، المجلد ٢٤ ، ج ٢ صفحة ٢١٠ . صفر ١٣٧٢ هـ .

ووضوحه . وهذا يشكل «بالطبع» أشد الاخطار على أية دراسة تاريخية . هذا فضلاً عن ان الطلبة سيزداد تمرسهم على الاساليب القديمة بما سيكلفون به من كتابة تقارير ، واعداد محاضرات تضطرهم الى الرجوع للمصادر القديمة . ولا ريب ان التمرس على هذه الاساليب هو الوسيلة الوحيدة لفهم النص التاريخي واستبطان معناه ، وعدم الوقوع في اخطاء فاضحة كتلك التي وقع فيها بعض المستشرقين نتيجة عدم فهمهم بعض الكلمات والنصوص [٢] .

بهذا تتمكن جامعاتنا من تخريج الطالب الذي يجد في نفسه من الامكانات والدوافع والاغراءات ما يجعله يقوم بنفسه ، لا بالاطلاع على مزيد من مساحات التاريخ فحسب ، بل بتوسيع مطالعاته في شتى الاتجاهات ، وتقديم دراسات وبحوث تغني المكتبة التاريخية ، وتزيد من رصيد الفكر التاريخي .

* * *

---

٢) انظر : فتحي عثمان : أضواء على التاريخ الاسلامي ، صفحة ١٦٣ - ١٦٥ .

كتب للمؤلف

أ- أبحاث تاريخية

ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، الدار العلمية ، بيروت – ١٩٧٠ ؛ الطبعة الثانية ، الدار العلمية ، بيروت – ١٩٧١ ؛ الطبعات الثالثة والرابعة والخامسة ، مؤسسة الرسالة . بيروت - ١٩٧٥ .

عماد الدين زنكي . الدار العلمية . بيروت – ١٩٧٢ .

خطوات في الهجرة والحركة ، الدار العلمية . بيروت – ١٩٧٢ ؛ الطبعة الثانية ، مكتبة القدس . بغداد – ١٩٧٦ ؛ الطبعة الثالثة . دار الاعتصام ، القاهرة – ١٩٧٩ ؛

دراسة في السيرة . مؤسسة الرسالة – دار النفائس ، بيروت – ١٩٧٥ ؛ الطبعة الثانية ، بيروت – ١٩٧٧ ؛ الطبعة الثالثة . بيروت – ١٩٧٨ .

الامارات الأرتقية في ديار بكر (أضواء جديدة على المقاومة الاسلامية للغزو الصليبي والتتري) ، مؤسسة الرسالة – ١٩٨٠ .

نور الدين محمود : الرجل والتجربة . (تحت الطبع) دار القلم – دمشق ١٩٨٠ .

ب - أبحاث إسلامية

لعبة اليمين واليسار . مؤسسة الرسالة ، بيروت – ١٩٧٢ ؛ الطبعة الثانية – بيروت – ١٩٧٩ .

تهافت العلمانية . مؤسسة الرسالة . بيروت – ١٩٧٥ ؛ الطبعة الثانية ، بيروت – ١٩٧٧ ؛ الطبعة الثالثة ، بيروت – ١٩٧٩ .

التفسير الاسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت – ١٩٧٥ ؛ الطبعة الثانية ، بيروت – ١٩٧٨ .

مقال في العدل الاجتماعي . مؤسسة الرسالة ، بيروت – ١٩٧٧ ؛ الطبعة الثانية ، بيروت – ١٩٧٩ .

الحصار القاسي (وثائق من تاريخنا المعاصر) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – ١٩٧٨ .

آفاق قرآنية ، دار العلم للملايين ، بيروت – ١٩٧٩ ؛ الطبعة الثانية ، بيروت – ١٩٨٠ .

مع القرآن في عالمه الرحيب ، دار العلم للملايين ، بيروت – ١٩٧٩ .

جـ - أعمال أدبية

المأسورون (مسرحية) . دار الإرشاد ، بيروت – ١٩٧٠ .

مشكلة القدر والحرية في المسرح الغربي المعاصر (نقد) ، الدار العلمية ، بيروت – ١٩٧١ .

في النقد الاسلامي المعاصر (نقد) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – ١٩٧٢ .

الطبيعة في الفن الغربي والاسلامي (نقد) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – ١٩٧٧ .

فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (نقد) . مؤسسة الرسالة ، بيروت – ١٩٧٧ .

جداول الحب واليقين (شعر) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – ١٩٧٨ .

رحلة في المصير (شعر) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – ١٩٧٨ .

معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – ١٩٧٩ .

فهرس عام

الموضوع	الصفحة

دراسات بلدانية – ملاحظات